حكايات من بلاد ما بين النارين

قصص

حسب الله يحيى

البراعة في احتمال الأذى

مضت سنوات طويلة والسيد عباس كان قد اعتاد على أداء عمله سائقا للقطـار النازل من بغداد إلى البصرة بشكل منتظم وتقليدي ,ومستجيبا لكافـة التعليمـات التي توجه أليه .

إلا أنه وفي هذه الليلة من تموز اللاهب , تم إبلاغه بان يلتحق بعملـه فـورا , فهناك حمولة يستدعي وصولها مساء الغد إلى البصرة .

لم يتخلف السيد عباس عن الحضور إلى المحطة التي ينطلق منها إلى القطـار كان الجو اللاهب قد انكسرت حدته , ولاحت في الأفق نسمات خفيفة يتوق المرء للنوم عند هبوبها .

كانت به رغبة ملحة للنوم ألا أن الأوامر كانت تحول دون تحقيق رغبته وصـل المحطة عند منتصف الليل ووجد كل شيء معد للرحلة فالعربات موصدة ومحكمة الأقفال وليست مهمته السؤال عن حمولته وكل ما هو ملزم بتنفيذه يعتمد علـى قيادته للقطار وبالسرعة المعتادة .

وعلى الرغم من ملاحظته حركة غير اعتيادية في المحطة , وان هناك من صعد إلى عدد من العربات المكشوفة السقوف بملابس ريفية ألا أن الأمـر لـم يكـن ليشغل ذهنه .

وترقب أن تعطى له الأوامر من مدير المحطة ليبدأ الحركة كان الوقت يقترب من الساعة الرابعة والنصف فجرا , عندما بدأت ضجة الحركة في قيـادة القطـار , وانتشر الضجيج إلى سائر العربات بحيث أصبح السيد عباس في وضع لا يمكنه من سماع صوت مساعده الذي كان يقف إلى جانبه. كان القطار يسير وئيـدا , يئن من الصدا , ومن ثقل , ومن حمولة غير معهودة في الداخل لا يعرف السيد عباس ما الذي تحتويه .

لكنه فوجئ عند توقفه في محطة (المحاويل) بشاب حدد عمره بـالثلاثين عامـا يخاطبه :

ـ خالي .. تعرف حمولتك ليست حديد بل بشر.. هم من خيرة الناس !؟

كان صعود الشاب إلى مكانه غير مألوف , فلسائق القطـار مكانتـه وحـصانته وليس لأحد الحق في التدخل في شؤون عمله .. لكن الأمر هذه المرة كـان قـد تجاوز المألوف ووقع في الضرورة والواجب والإنسانية والموقف .. وقبـل أن يراجع ما سمع , سمع ثانية :ـ أخي حمولتك ليست بضاعة .. أنهم سجناء تنبه إلى النداء الملهوف والشغوف والمتوسل والمقهور .. نادى مساعدة :ـ أذهـب ,تأكد من الموضوع , كان المساعد قد سمع تلك النداءات الملحة وكانت به رغبة حقيقية لمعرفة ما يحدث في عربات القطار تقع ضمن مـسؤولياته الإنـسانية لا القانونية تخلى عن القوانين جميعا وكانت الرحمة تحط في قلبه كشمعة مـضيئة .. توجه إلى العربات وراح يسمع نداءات الاستغاثة من الداخل , صـدته أيـاد غليظة قال لهم انه مساعد سائق القطار سحبوه إلى مكـان .. عـاد يـركض صارخا :ـ عجل الكلام صحيح .. هناك بشر في العربات بشر وليست بضاعة ! أدرك السيد عباس انه ينقل جنازات بالجملة وان قطاره محمل بالموت الحتمي .. ذلك انه يعرف جيدا طبيعة تلك العربات التي تتحول إلى جمر في ظهيرة تمـوز فكيف إذا كانت قد طليت بالقار حماية لها من الصدا ؟! كانت شمس تمـوز فـي وسط السماء تسطع لهيبا وتخنق الهواء , وتمنع تنفسه وفكر في وسيلة ينقـذ بها السيد عباس حمولته لم تكن مفاتيح العربات بين يديه , وممنوع عليه فتحها ألا من قبل مدير المحطة المعنية والسرعة محدودة .. لم يكن يملك سوى الخيار الوحيد أن يعجل أن يجعل القطار ينطلق بأقصى سرعته أن يصل قبـل موعـده بساعات .. ولا شأن له بما سوف يحدث من تقاطع مع قطـارات أخـرى فمـا سيحدث ليس أسوأ مما هو مرشح للحدوث وبشكل مؤكد .. كان الـسيد عبـاس يعرف جيدا كيف هو الحال داخل تلك العربات .. وكيف يمكن للمرء أن يتـنفس وهي محكمة الإغلاق لا نوافذ لها انتابه القلق وأحس بالاختناق , ألا انه انـدفع بسرعة جنونية ساعده على اختيار العمل بها مساعده فهي الطريقـة الوحيـدة

والتي ربما تفلح في إنقاذ من يتبقى من هذه الكائنات البشرية التي تختنق فـي العربات الحديد وهو ..هو من يدرك خطورة أن يحمل أحياء ويسلمهم أمواتا لا عليه من المسؤولية الوظيفية لا عليه مما يجري داخل تلك العربات .. مهمتـه القيادة , إما مهمة موت إنسان فهي مهمة شاقة, ليس بمقدوره التخلي عنها .. حتى لو أنه لقي مصير من يحمل من البشر كل ما كان يدور في رأسـه يـدعوه إلى اختيار السرعة سبيلا وحيدا لإنقاذ من تبقى كان القطار يتقدم نحـو مدينـة السماوة .. وعندما لاحت له بعض ملامحها انتابه فرح غامر وهو يشاهد الأيادي تلوح من بعيد .. مما عني لديه أن كل هذه الأيدي تعرف بما حصل .. وقد تكون سباقة له في هذه المعرفة .. توقف القطار توجه جمع كبير مـن النـاس نحـو العربات لم يكن بمقدور احد فتحها لم تكن هناك مفاتيح لدى الحراس الذين كانوا يرتدون الملابس الريفية .. وهم في حالة تنكرية لحقيقة مهماتهم .. غير أشياء في حواسهم تيقظت وصاروا يبحثون عن سبل لفتح الأبواب .. بعيدا عن التفكير بأية مسؤولية مؤكدة .. المهم ألان كيف يمكـن إنقـاذ هـذا الحـشد البـشري المشحون داخل العربات .. وصلت قطع حديدية غليظة وصلت جموع جديدة من الناس تحمل قطع الحديد إلى جانب الماء والخبز الحار واللبن وافلح الجمع فـي كسر الأبواب فاستلقت جثث بالكاد تتنفس تقـدمت الأمهـات يـسقين والرجـال يساعدون والأطفال يقدمون خدمات شتى كانت الفوضى تعم المكـان .. راحـت أصوات تنادي :ـ لا تسقوهم الماء البارد .. نحتاج إلى ملح وماء دافئ راحـت الأقدام تركض باتجاه البيوت لتعود حاملة الملح والماء الدافئ وراح كـل يأخـذ مجموعة ويعتني بسقايتها وإطعامها ..كان السيد عباس ومساعده فـي حالـة ذهول لما يجري وكان الحراس قد تحولوا إلـى منقـذين لتلـك الأرواح التـي يشاهدونها أمامهم وهي تهوي .. ولا تقوى على الوقوف لم يفكر أحد بالهروب فالهرب عصي على الموتى وأشباههم من هنا اطمأن الحراس إلى أن احد مـن السجناء لم يختفي والعدد كامل , وسيتم التسليم والاستلام بالتمـام والكمـال .. شرط أن تظل العيون في حالة ترقب وانتباه فوجئوا بان احد السجناء عصي على الحياة وليس بمقدور احد أن يجعله يتنفس ويأمن سلامته .. وانطفأ مثل قنـديل

في ليلة عرس وتحول المكان من فوضى إلى قلق خشية أن تكون هناك ضحايا أخرى .. فالجو حار جاف لا يحتمل الأصحاء فكيف بهؤلاء الذين لا يقوون على مقاومة الموت أن يبقوا أحياء في هذا الجو الخانق ؟

كان الأطباء الثلاثة يرافقون السجناء يماثلون سواهم وليسوا بأفضل منهم كانوا يبحثون كذلك عن حياتهم حتى لا يفقدوها إلى الأبد ويزيدوا اليتامى والأرامل وراءهم .. كانوا يحبون الحياة , حبا .. جعلهم يضحون من اجله بأعز ما لديهم من الأمنيات وشغف المسرات كان الدكتور رافد أكثر رفاقه حرصا ونباهة واستعداد للتضحية ومتابعة وترقبا وتوجيها واندفاعا في إدامة الحياة إلى أقصى مدى ممكن جعلهم يمتصون العرق النازف من أجسادهم جعلهم يساعدون بعضهم . في حل القيود التي شدتهم إلى بعضهم بالحبال .. فوجئوا أن الحبال لم تكن عصية على الحل .. مما يعني أن البعض ممن ساهم في تقييدهم كان يتعاطف معهم ويتفاعل مع أفكارهم وأحلامهم وكانوا في العربات يكتوون بالإسفلت ويصعب عليهم حتى الاتكاء على صفائح العربات اتكأوا على بعضهم نصحهم الدكتور رافد أن لا ينزعوا ملابسهم حتى يحتفظوا بالعرق ولا ينخفض ضغط الدم بعد فقدان الأملاح .. كما أقترح عليهم أن يتنفسوا شيئا من الهواء من الفتحة الموجودة أسفل بوابة العربة وفعلوا ذلك بالتساوي بحيث لم يأخذ أحد وقتا للتنفس أكثر من سواه .. ولم يفكر احد بالعيش مقابل أن يموت الأخر كانوا في البدء ينشدون ويغنون ويتحدثون في شؤون مختلفة ألا أن الحرارة التي راحت تبسط ظلالها فوق صدورهم جعلتهم يهمسون وتتحول أصواتهم إلى كلمات متقاطعة ومن ثم حروف غير مترابطة وباتت الحركات النشطة تتلاشى شيئا فشيئا كان الإسفلت التموزي يذوب تحت أقدامهم يلتصق بها وتغوص جمراته في أعماق موغلة من تلك الأقدام التي لم تعرف أين تضع مستقرها وليس بمقدورها أن تظل معلقة في الهواء .. بعد أن توسلت القدم الأولى بالثانية حتى تبقى وقتا أطول .. كانت الأقدام تتقاسم الألم ترتفع واحد وتنزل الأخرى , أخرى تصعد ثانية تنزل حاول الواحد منهم أن يكون عادي في اقتسام الأذى مع قدميه كان الواحد منهم يدرك جيدا أن ثمة أقدام ثقيلة تريد سحقهم , سحقهم تماما هكذا

وبهذه الطريقة العجيبة المبتكرة .. حتى تحتفظ أقدامهم الصقيلة بالزمان والمكان كانوا مجتمعا كاملا بينهم الضباط والقـضاة والأطبـاء والمهندسـون والعمـال والفلاحون كانوا نخبة منتقاة في وعيها وإدراكها .. يجيـدون الإصـغاء مثلمـا يجيدون الكلام وقد تنبهوا إلى أنهم صفوة من مجتمع يحبهم ويحبونه ومن يحب لابد أن يضحي من هنا وجدوا أنفسهم في امتحان صعب يعتمد على إتقـان فـن الاحتمال .. البراعة في احتمال الأذى والبراعة في اختراع البقاء والبراعة في مواجهة الموت وقوفا كانت العربات تتوجع وتكاد تنفجر مـن طبيعـة محتـوى غريب عليها صفائح الحديد كانت في حداد تام على رحيل جماعي مرتقب لم تكن الصفائح تحتمل كل هذا الأذى كل هذا الأنين كل هؤلاء الرجال الـذين يحتمـون بأفكارهم ومواقفهم في مواجهة هذا اللعب المكتـوم ودت صـفائح الحديـد أن تصافحهم ذابت من أذى وتوجعت من صدى الأنين وتنبهت .. وتنبهت إلى أنهـا تزيد من وقع الكارثة وفرحوا أحسوا بالوقع الزاهي للحيـاة .. وهـم يـسمعون نداءات استغاثة خارج العربات تهتف بهم :ـ احتملوا .. احتملوا .. سـننقذكم.. لم يكن أي واحد منهم يعرف مصدر تلك الأصوات .. لكـنهم أدركـوا أن هـذه الأصوات قد علمت بشأنهم حال نقلهم إلى العربات وحال توقفهم فـي محطـة (المحاويل) صار الأمل مقدسا , صارت الحياة نشيدهم لكن شـمس تمـوز فـي الظهيرة كانت تحول دون الإبقاء على هذا الأمل وعلى هذا الإنشاد الجماعي الذي بات يخفت شيئا فشيئا مثل فتيل شمعة تذوب شيئا فشيئا وتقطر من دموع حارقة ألا أنهم استعادوا هذا الأمل عندما لاحظوا أن القطار راح يسرع, ينطلق يريد أن ينفلت من اسر السكك ويحلق في علو يستعصي على احد الإمساك بـه .. كـان القطار يسرع.. يسرع .. يريد أن يهرب بهم كانت عملية الهـروب هـذه كمـا رسمها كل واحد منهم تعني أن السائق يبذل جهدا نادرا في إنقاذهم وفي جعلهـم ينفلتون من الموت ويهربون إلى الحياة مرت نسائم جافة مـن أسـفل البوابـة رافقها تراب خانق تخلى كثيرون عن أدوارهم في اخذ الشمة .. استجاب آخرون بدت حيرة سحيقة تنتابهم بين الاختناق بالتراب , والاختناق بالجمر الذي يبعثـه الصفيح الحديدي لم يعد بمقدور احد مواساة احد ولكن بين لحظة وأخرى كـان

يقوي احد على مساعدة احد والأطباء السجناء الثلاثة احتـاروا فـي مـدارات أنفسهم ومدارات سواهم لكن أكثرهم مقاومة على المقاومة كان الدكتور رافـد : أخوان الحسوا عرقكم اشربوا عرقكم لا يدع أحدكم العرق يسقط من على جسده ارتدوا قمصانكم الحس عرق زميلك ودعه يلحس عرقك هذا هو السبيل الوحيـد للبقاء أخوان أرجوكم أنا طبيب وسجين مثلكم .. حياتي مرهونة بحياتكم .. نحن جميعا نريد أن نعيش .. نحن نعشق الحياة .

كانت عباراته متقاطعة , ساكنة هادئة أحيانا, هاربة من الاختناق والموت أحيانا أخرى .. ملحة متوسلة متعلقة بهامش الحياة ويعدو قطار الموت يعدو سـريعا يخترق المجهول والأرض الجرداء والسماء الساطعة والسيد عباس يزيـد مـن السرعة إلى أقصاها . وثمة صقور تهرب من وقع الأصوات الحادة للقطار في ما كانت تشم رائحة ما من بعيد وراح البعيد يقترب , وصار القرب يعني البقـاء . وصار البقاء يعني أن الأمل بدأ يكبر ويتسع , وثمة ملامح للعيش بدت تقـوى . كان الوقت يمر ثقيلا , ومعه تمر مخيلات كثيرة متلاطمة ومحتدمة , مثل سفينة ظلت طريقها في بحر صاخب وعتمة لا نهاية لها , ثم بدأ القطار .يبطـئ فـي حركته بدا منهكا من مسافات الركض الطويلة التي مارسها, ولابد له أن يستريح الآن القطار كائن أتعبته الحمولة وأتعبته السرعة , وصار جهـده عـصيا فـي حرارة تموز وفي مكان جاف شغوف إلى قطرة ماء .ماء . ماء. لا ماء في أناء .. لا أناء فيه ماء .. لا ماء ولا أناء . وصلت أصوات بعيدة إلى آذانهم اتـسعت آذانهم لأصوات بدأت تقترب أصوات غير مفهومة صـرخات . بـدأت الكلمـات تتوضح في الأذان شيئا فشيئا ـ أسرعوا .. الماء ,الخبز , الحليـب ,التمـر.. الطعام هيا .. كلمات تلحق كلمات عربة تسمع , عربة تتلقى السمع قبل سـواها فتنقله إلى عربة أخرى يهتف صوت :ـ ما زلنا أحياء أيها الأخـوة . أحيـاء . أحياء وتعلقت أجساد مجهولة بالعربات, سقطت أخرى بعـد أن اكتـوت بحديـد العربات وناضلت أخرى على البقاء محتملة جمرة الحديد توقـف القطـار وبـدأ العمل سريعا من اجل كسر الأبواب .. جاءت قطع الحديد من هنا وهناك .. لـم يسأل احد أحدا عن ما يفعل .. كان الكل يريد أن يشارك في كسر أبواب العربات

كانت العربات تريد أن تتنفس كان السيد عباس يتنفس بارتياح وهو يصل قبـل الموعد المقرر له بساعات مما جعله يدرك جيدا .. نبل لـم يكـن يـدري انـه يقودهم إلى الموت فإذا به يقودهم إلى الحياة واستجابوا للحياة أكملوا بـراعتهم في احتمال الأذى شربوا الماء الدافئ في ظهيرة تمـوز تنـاولوا المـلح نيئـا واحتملوه شربوا معه الماء والحليب واسترخوا على جلد الأرض الجافة .. لـم يحسوا بالاكتواء فقد اعتادت أجسادهم اكتواء اشد انتقلوا إلى ظلال جدران مبنى المحطة صاروا قبالة مدينة السماوة قبلوا أرضها وسماءها والناس الذين فيهـا أكلوا من كرم أهلها أكل معهم حراسهم خجل حراسهم من مهمـاتهم ثـم ضـج المكان بالأسلحة الصدئة والوجوه اليابسة والـسيارات الرسـمية البوليـسية, أحاطوا المكان جعلوا ينادون الحراس لم يجب احد كان الحراس وحدهم قد هربوا كان السيد عباس يحدق في الوجوه بصمت ويحس باطمئنان وراحة وفرح غامر فيما أخذت الوجوه اليابسة تتحول إلى أصفاد حديدية , وتجـر الـسجناء إلـى عربات صغيرة محركات سيارات عتيقة وسط وجوه غاضبة محتجة تملأ محطـة قطار السماوة .. ظلت الوجوه المحتجة تحدق في لهفة إليهم وفيها شـيء مـن الاطمئنان وشيء من القلق بينما راحت المحركات الصاخبة تسير متوجهة إلـى صحراء السماوة .

مهنة الأذى

يبدأ عمله قبل ان يستيقظ أحد، قبل أن ينادى للصلاة، قبل أن تبدأ الديكة فاتحة النهار، قبل أن تنطلق فيروز في شدوها العذب.

الفجر... يحمل بشائر خير دائم إليه.. يستبشر بالرزق الحلال والنسمة الهادئـة اعتاد حياته هكذا، مبكراً يعمل، ومن قبل مبكراً يدرس.. الدراسة كانت هاجـسه من بين أقرانه كافة، أعد نفسه لها، للتفوق فيها، لأستباق الـزمن.. فـي قفـز الصفوف والمراحل...أفلح في هذا كله لكنه اخفق في التواصل مـع الدراسـة الجامعيه التي كانت تحتاج الى المال ، والمال عصي..

التحق بالجندية... لم يكن بمقدوره دفع البدل النقدي، كان يخشى على نفسه من الهروب ومن التخاف... القوانين سنت حتى تحترم وحتى يتم الالتزام بمـا ورد فيها..هكذا كان يفهم الاشياء بوضوح تام ودراية متقنـة. الدراسـة الجامعيـة صارت فعلاً ماضياً، والعسكرية الالزامية تفرض عليه التزامـات نظـام وجهـد ومسؤولية مع قدر ضئيل من المال يستطيع ان يذهب من وحدته...

أبوه أحس بحاجته..أبوه تعب، وباتت ا نفاسه ثقيلة.. بعد أن تحول الى سـائق عمومي حال تحوله من مدير مدرسة ثانوية الى رجل متقاعد يبحث عن مـورد مالي يسد به حاجات ضرورية...لأفواه تجوع وجدران بيـت يتآكـل وشـباب لا يجدون العمل، وقد نسوا شبابهم تماماً حتى ان الواحد منهم يتأمـل مـشهداً او صورة لذكر او انثى... ويحسبون ان الامر بالنسبة إليهم هو المستحيل... ذلـك ان القطط والعصافير وحتى الذباب... من السهل ان يجد الواحـد مـنهم اليفـاً يسره... اما مسراته هو... فهي مسرات مستحيلة!.

أبوه...حول سيارة الأيام الخوالي والنجم الساطع الى سيارة للأجرة... وبدأ يعد نفسه للعمل بالتناوب مع أبيه..

كانت السيارة الكسولة، المتعبة، الشائخة... تأكل منه اكثـر مـن ان تطعمـه! فوجيء ان ما أفرحه في العمل... وفتح دروباً زاهية بالآمال والاشراقات... في

زواج ومواليد وافراح... قد خيب تلك الامال، وبدد من روحه وعداً بالراحة كانت السيارة (الموسكوفج) مألوفة في الشارع، كثيرة العطل... حتى لايـأمن شـرها زبون، ولايقترب منها راكب ستعجل الوقت ولاشاب يتبـاهى..أمـا العوائـل... وطالبات الجامعة..فقد تركوا تماماً مهمة الاشارة اليه بالوقوف... حتى لاتخذ لهم تلك السيارة البرتقالية اللون اللافتة للانظار والساقطة في سـجلات الـسيارات العمومي... وظل الخصوصي فيها سنوية منحوسة لايعرف متى سـجات ومتـى ينبغي تجديدها..!

لا يسأل شرطة المرور عنها، سؤالهم يتوجه الـى الـسيارات الفارهـة التـي تجاوزت كل الازمنة وانشغلت بالحاضر و المستقبل..

فقراء الناس هم زبائن (الموسكوفج) فهم يشبهونها في حـالات كثيـرة.. فـي حالات مرضيه ضغط الدم = ارتفاع الحرارة. التهاب المفاصل=الكابح والدبلات . ضربات القلب=تدفق البنزين..شحوب الوجه= لونها الباهت الذي احرقته الشمس وسنوات الخدمة الطويلة.

في الفجر.. تقلهم(الموسكوفج) الى اعمالهم في إعداد طعـام سـريع للجنـود والغرباء، او في نقلهم الى (العلاوي) لشراء الخضراوات ونقلها الـى الاسـواق الشعبية. يقول في نفسه: كما توجد ملابس(البالات) المستعملة للفقراء، والعدس الصباحي، والاحياء النتنه.. كذلك أعدت سيارته للناس الفقراء... وإلا هل يبقـى هؤلاء يسيرون على اقدامهم بعد ان يتعذر وجود الباصات العامـة فجـراً... أم ينتظرون سيارة (تاكسي) باذخة تقلهم الى عملهم؟(الموسكوفج) وحدها... فاتنة الفجر المتوجهة الى العمل.

كان يسعى جاهداً للوصول الى هذه القناعة مع ابيه... وابوه يلح على زواجه، وزواجه رجاء وأمنيه... والمستحيل كذلك...

اما الرجاء والامنية... فهو ما توفر لديه من المال.... قد يكفي لشراء سـرير وكعكة لصباح العروسين... اما المستحيل فهو ثقة أهل العروس بنتائج عملـه، بطبيعة هذا العمل بالوجاهة الاجتماعيه المفقودة فيه.

كان يعلم ان مثل مهنته غير مرغوب فيها ... يقولون ان السائق العمومي لـه علاقات ورغبات ومحطات ،ماله مهدور واوقاتـه ضـائعة والرذيلـة محفوفـة بالمهنة التي يسرق ارباحها الميكانيكي والكهربائي ومصلح الاطارات فمن يغامر بابنته ويحملها ويقودها الى سائق ضائع الهوى ؟

ابوه ... حاول ان يبدد هذه الافكارا والهواجس التي رسمها خياله ... أكد له :

- يا ولدي ... في كل مهنة ، في كل بيت ، في كـل شـارع ... هنـاك حـسن ورديء

- ابي اعرف ، اعرف هذا ولكن من له القدرة على رد الاشاعة؟!

- العارفون ، المنصفون ... يعرفون هذا ونحن من هذا الصنف.

ويسكت يصغي الى ابيه يستجيب الى نصائحه يعرف انه لايجره الا الى ما فيـه الخير والسؤدد والاطمئنان والراحة.

-ابني .... ما رأيك بأبنة قريبنا المرحوم السيد أحمد؟

يتأمل النداء، يرسم صورة العروس يجدها مناسبة فيها بـراءة ونقـاء وذكـاء ونفحات ورد ..

- ابي ... هي في الجامعة

- هذا حسن ... مالم تتمكن من انجازه ستكمله عنك زوجتك.

وتأمل الأمر احس بغبطة داخليه ادرك ان الطريق سالكة ويمكـن الـسير فيهـا والاستمرار الى ما لا نهاية .

- و ... لكن يا ابي الامر بيد العمومةً.. والاعمام اغنياء.

-نحن ايضاً اغنياء، اغنياء يا ولدي، لماذا تبخس حقنا نحن اغنياء بنفوسنا.

- هل تعتقد ان اعمامها يعترفون بهذا الغنى؟

- اذا لم يعترفوا بغنى نفوسنا ... ليس بمقدورنا ان نأخذ منهم ويأخذوا منا.

و... قرروا طرق الباب.. ذلك الباب الذين يعرفونه جيداً، يعرفون بـه الـسيد احمد وزوجته وكل فرد في اسرته.. فتحت لهم الباب.

كانت الام أول من وضع قدمه عند فتحة الباب، تلاها الأب بخطواته الوئيدة ثـم خطوته الخجولة..

جلسوا جميعاً، عائلتان اجتمعتا على المودة والوئام والغرابة..

نظرة خفية متسترة أطلقها نحو تلك الفتاة الخجلى.. التي حدقت اليـه بطريقـة سرية... كانما كانت تخشى ان تضبط وهي تحدق في عينيه.

- يسعدنا ان نتقدم بطلب يد افراح.. نريد افراحنا ان تكتمل بكم يا ام احمد...

قال الأب،خجلت الأم، دارت خجلها بكلمات هادئه، حاولت ان لا تكشف او تنم عن قلق ومفاجأة.

- افراح في الكلية.. والأمر كله بيد اعمامها، وهي صغيره على الزواج و..

هل كان ذلك هو الاعتذار الذي يحاول ان يجد الأسباب؟

سأل نفسه. وأحس بالاحباط.

أجاب والده:

- لها أن تواصل الدراسة... وعمامها يعرفوننا وهما في عمـر الـزواج يـا ام احمد.

بقيت صـامتة... وأقـداح الـشاي بـدأت تبـرد... نبهـتهم أم أحمـد الـى شربها...شربوها وفيهم آمال وعيون يكحلها الانتظار.

وحين ودعتهم أم أحمد عند الباب وعدتهم اخيراً..

وفي مساء آخر.. في سماء بدا اكثر عتمه... التقى الأب العمام:

- يشرفنا أن نكون على مد صلة الرحم بيننا ... ونزوج أفراح لأبننا.

- ماذا يعمل ابنك؟

- سائق عمومي.

- في سيارة (الموسكوفج)... هل تسمى هذه سيارة تستطيع ان تعيش عائلـة منها؟ نحن لا نزوج أبنتنا من (سائق تاكسي).

- كانوا ثلاثة أعمام، يدقون بأسئلتهم على رأسه وعلى رأسي ابويه ... أحـس بالاختناق بأن هؤلاء يوجهون اليهم تهماً ويشككون في وجودهم جميعاً.

- انه يعمل بمهنة شريفة.

- وهل نحن نعمل في مهن غير شريفة؟

كتم الثلاثة غيظهم، تلفتوا الى بعضهم ادركوا انهم قد اخطؤوا الاختيار.. تنبهوا الى انهم كانوا في حالة نوم عميق لم يستيقظوا منه الى الان، لاول مرة وفـي هذه اللحظة..

جروا ستة اقدام منكسرة ، تريد ان تهرب من المكان سريعاً ...

قال ابي اما كان علينا ان نتروى مهنتنا لا تناسب مهنتهم؟!

قال الأب:نحن لم نخطيء كنا نحسب انهم يمتهنون مهناً انسانية.

قالت الأم بعد صمت طويل وحزن عميق بل انهم يمتهنون ... مهنة الاذى!

عجب الاب: اليسوا تجاراً.

هذا في الظاهر ... اما مهنتهم الحقيقية فهي الاذى.

قال : ونحن لا نحتمل الأذى، لا آذانا ولا آذى سوانا...

وعند عمق الليل عندما غاب الليل في تلك الليلة ... رأى في المنام الواناً مـن الأذى في كتابة تتهم واخرى تغش وثالثة تقتل ورابعة تمارس التعذيب وخامسه تحرق وسادسة ... وعاشرة...

خيل اليه ان العالم كله مملوء بالأذى ، وان عليه التوجه لممارسة هذه المهنة، وإلا تم سحقه وتدميره وجعله رماداً او مصهوراً في ماء ناري.

استيقظ فجراً غسل وجهه وتوجه الى سيارته (الموسكوفج) حـاول ايقاظهـا لكنها ظلت لا تستجيب الى نداءاته وتوسلاته كأنما كانت جزءاً من ذلـك الحلـم المخيف ، من ذلك الأذى المرهون بعدد من الناس الذين اتخذوه مهنة .

ترى هل كانت سيارته جزءا من هذا الاذى؟

استيقظ الاب والام حاولا دفع السيارة ، علها تستجيب للنداءات الثلاثيـة لكنهـا كانت عنيدة مصره على الاذى .

ضحك في سره .. نحن أغنياء في نفوسنا فليجعلنا هذا الغنى نأكل ونشرب .

وضحك اكثر .. سأتزوج ها ، سأتزوج!

كان الاذى يبسط ظله على بيت فقير يضم ثلاث كائنات تبحث عن وجود لها عن سعادة مفقودة عن افراح مؤجلة عن سرير يبحث عن دفء ورقة وكلمات غزل

فكر ان يبحث عن مهنة اخرى جعل والده يفكر معه جعل أمه تشاركهما التفكير . كانت الخيبه قد اخذت مداها ، والبيت يتكتم على صرخات مختنقه ويلم اشـلاء ثلاثة من مخلوقات الله بدت حائرة امام محنة العمل والرجاء والتوق الى سعادة مؤجلة كانت مهنة السائق العمومي ، راسخة في الاذهـان اصـحابها يخـدمون الناس، ينقلونهم الى حيث يريدون الى اعمـالهم وجيبـاتهم والـى علاجهـم الطبي... ولكن من النادر جداً ان ينقلوا احداً الى الحدائق..

توجه بخطاب سعيد الى نفسه، وانقذ نفسه من التهم الموجهة الى مهنته، الـى رزقه الحلال ومسيرته الصادقه... وحين وصل الى هذا الفهم، استعاد نـشاطه، عمل هنا وهناك في السيارة وبدأ محركها يضج بالحركة، ضحك ملء صدره قال: لماذا لم نفكر بمهنة الاذى، قبل ان نكتوي بهذا الاذى لماذا عشنا تلك الغفلة...؟

تحركت (الموسكوفج) البرتقاليه، تقطع الشارع الطويل في فجر بدا أمامه بهيـاً محفوفاً بالآمال والكثير... الكثير من إشراقات نفسه وبهجة روحه.

المنـ ـ ـ ـ ـايا

المنايا الما تزورك زورها خطوة التسلم ذبايح سورهه
صقر والبيدة تعرف صقورها وبأثر جدمه تلوذ طيورهـا
عمت عينهه الماحمت ناطورهـ ـه

مظفر النواب

-نجمتان تكفي . ألق النجوم وسع السماء .. لايقاس بعدد النجوم .نجمة واحدة ..واحدة حسب ، تكفي لأخراق سواد الليل كله . هكذا كان الملازم أول (صـلاح) يخاطب نفسه ..مؤكداً أنه وضمن موقعه ، يمكن ان يحقق الكثيـر . أن يحـرك الأجواء الساكنة . أن يعيد لأشياء كثيرة قدراً من الحضور ..

من هنا راح يفكر ..لماذا يريدون من كل عسكري أن ينزع عنه ثوب الـسياسة المدني . ويرتدي ثوب الحزب الواحد الذي يعلن عن نفسه في اللباس العسكري ..وذلك عندما تطأ قدمه الاولى بوابة المعسكر ...

لم يكن يريد أن يصدق هذا الفهم ..ذلك أن فكراً ما . فكراً مختلفاً يجري فـي خلايا عقله ويؤكد قناعاته ويرسخ رؤاه .

صلاح ..لايعرف إتقان اللعبة . ينزع قلب قناعته ، ليرتدي ثوب قناعـة سـواه ولم يكن يلزم نفسه بفكرة تلغي سواها .كان يقول : لندع كـل الأزهـار تتفـتح ..مامن حديقة تتزين بنوع واحد من الزهور ..كذلك الوطن ، لايمكن ان يفكركل أبنائه بطريقة واحدة ..عقل الأنسان لايستنسخ. ..

وكتم أرادة عقله . خبأ أفكاره في مكان سري من رأسه ..وارتدى قناع الطاعة .. فليس بوسعه أن يفعل سوى مافعل . وجد نفسه ..متناقضاً، تسترياً .. لكـن المهم أن لايقدم على عمل يندم عليه ويحاصره بالعتاب ، ويخنقه بالأنسلاخ عن إرادته كلياً . كانت المهمة العسكرية ، هي السبيل الوحيد المفتوح أمام مستقبله .. وكل الطرق التي سيختارها لابد ان تمر بالعسكرية ..والعسكرية أحادية الفكر

..وفكره يتسع لأفكار عديدة ،لروافد مختلفة ، لآفاق متسعة . كان يبحـث عـن رؤى الكون الدائرة حوله ..وداخل الدائرة دوائر أخر ..وهو يتوجه للخروج من عالم الدوائر كلها ..ويعيش تحت الشمس بوضوح تام . وقدم نفسه على قماشة بيضاء ..خالية من الكلمات والشوائب والألوان . قال : لتكن الاستقامة مبدأي ، ولتكن الشجاعة سبيلي لتحقيق هذه الاستقامة وأفلح في مهمته ..تقدمت خطواته ..صار اللون الكاكي يملأ حواسه ..ونجمتـان علـى الكتفـين . للكتفـين إرادة وللأرادة دراية .. وهو يريد أن يكون على دراية من كل مايفعله ..حتى لايسقط في الغفلة ،ولايصمت في لحظة يراد منه أن يكون صائتاً . وصدرت الأوامر اليه بأخماد (الفتن) في (عين زالة) و(سنجار) . اما عين زالة ..فتعني عنده ثـروة الوطن النفطية ، أما سنجار فتعني عنده معتقدات طائفة اليزيدية الذين يمتلكـون الحق في ممارسة الطقوس الخاصة بهم ..إذن ..لماذا يحاصر ابناء وطنه الذين يريدون حماية تلك الثروة ، ولماذا يريد من أبناء سنجار أن يمتنعوا عن التعبير عن عاداتهم ؟

وجد نفسه في النقيض التستري الذي يختبيء عميقاً فـي داخلـه . حـاول ان يصالح ضده ، أن يصالح سواه ، أن يصالح آمريه ان يصالح خصوماً مفترضين ..سهر الليالي تأمل النجوم في سماء رحبة ..تنبه الى ان لكل نجمة بريقها .. و...نجمتان على كتفيه ،يريدان أن يملأ وجودهما المكان ..ضدان تزاحم إحداهما الأخرى! أمامه ..إختيار نجمته .ونجمته بعيدة لاتطالها يده ، ويده مرهونة في يد آمريه ..واتخذ قراره إلتم على بعضه ..وكتب الى آمريه :

-لن أنفذ . لن أطلق رصاصة على صدر أحد ..أنا واحد منهم . تسلموا برقيته بغرابة قالوا انه عسكري متمرد ..وكل تمرد يجب أن يسحق ..وإلاعمت الفوضى ..أ

رسلوا من يقطع عليه كل الطرق ..ويجيء به متهماً في جريمة قتل ألصقت به ..فمن الصعب ان يقال شيء عن تمرده ..التمرد بطولة ، وهم لايريدون لـه أن يكون بطلاً التمرد فوضى وجريمة ..وعليه صدر الحكم بأعدامه !عجب لما جرى ..عجب من زملاء له ، يعرفونه جيداً ..لايتقن الفوضـى ولاالجريمـة كلاهمـا

عدوان له ..ومعهما يختصم دائماً ..ومعهما على الضد دائماً ..لكن النتيجة كانت معاكسة تماماً ..وليس بمقدوره أن يفعل شيئاً لأثبات براءته . أودعوه معتقلاً ..

ضاق بالمعتقل . فكر بالهروب تنبه الى (كناس) ينظف إدارة المعتقـل .غـاب الكناس مرة . كان صلاح يترقب هذا الغياب ..وقد إسـتعدله بملابـس شـبيهة ..وخرج بقناع الكناس دون أن يدري به أحد لكن خصومه فتنوا بـه ..ودلـوا على مكانه ..فاودع معتقلاً آخر ..وهناك دبر له صديق طريقاً للهـروب مـن نافذة الحمام . هذه المرة لم تكن الفتنة دالة ..فتشوا عنه في كل مكان حتى كلّوا .

قالوا : -هناك سبيل وحيد نجعله يجر قدميـه الينـا ..كـانوا يعرفـون عفتـه واستقامته وحنانه وحرصه على شرفه وعلى قيمه إعتقلوا زوجتـه و(ربـاح) إبنته الوحيدة . سأل نفسه : هل يمكن أن أربح حريتي وأخـسر ربـاح روحـي وعفة زوجتي ؟ إختار روحه وعفته وسلم نفسه لسجانيه ..وعندما ترك رئيس العرفاء المحكوم بالاعدام صالح أحمد ملابسه وهو يتوجه للتنفيـذ ..؛ إرتـدى صلاح ملابسه وتقلد إسمه ، معتقداً أنه سيفلح في الهرب هذه المرة ..التي رأى فيها كل شيء يتوجه نحو الفوضى وينتقل المرء بسهولة من البراءة الى الاعدام وبالعكس . وتلقى امر نقله الى سجن رقم (1) ،بحفاوة وكأنما يتوجه نحو نزهة ..فقد آنت فرصة الهروب ..وفوجيء بمدير السجن قبالته ..حـدق فـي وجـه صلاح قال :

-ملازم أول صلاح الدين أحمد ..ألاتعرفني ؟

لم يتمكن صلاح من النفي ..فقد اكتشف أمره ، وهذا عدوه اللدود أمامه ..وقـد ساقته الاقدار حتى يضيق الخناق عليه . في السجن التقى بنخبة يعرفها ..وقـد وطد علاقته بها من قبل ..وجددها من بعد . وفي رحلة قطـار المـوت ، كـان صلاح يكتوي جسده في عربات الحديد المقفلة . قالوا أنه فقد وعيه .. وأنه مات .. لكن رفاقه وجدوه بينهم في سجن نقرة السلمان . وهناك بدأ يرسـم خارطـة خلاصه . تنبه الى قلعة السجن ، والى البئر القريب ..اشار الى المقـربين منـه وأصغى الى إرشاد اتهم .. تخفى ليلة كاملة داخل البئر ..كاد يموت إنجماداً كانت

يداه قد جفتا ..كان قد تحول الى قالب من الثلج دثره زملاؤه ..عاد الى التجربة ثانية .. ولم تفتقده حراسه عند التعداد .. فهناك من يجيب نعم معلناً عن وجوده . مضى يومان ، وثالث ، ورابع .. ولاأنباء عن صلاح ..وليس من أحـد يعلـن عن سر إختفائه ..قال حراسه : ربما هرب عبر صحراء السماوة ومـات مـن العطش واكلت أشلاءه وحوش الصحراء . كان القمر قد خبأ نفسه تلـك الليلـة التي غاب فيها صلاح ..ترك للصحراء أن يحتل صلاح مكانه ..؛ يضيء المكان ويقتحم الظلام الصحراوي . بوصلة صلاح تشير ، وأرغفة خبزه اليابس ، ودلال مائه ..كانت تكفي لرمال الصحراء تكفي للحياة ..وثمة سكين اكرمه بها زميـل ..وغيرها موجود في مطبخ السجن ..سكينه تكفي لمقاومة خـصم صـحراوي مجهول ، لحيوان جوعه الرمل وراح يفتش عن شيء يقـي جوعـه . صـلاح يمضي وحيداً ، مع جفاف الصحراء وظلامها وغرابتها واصوات الحيوانات فيها . لم يخف صلاح ..الموت الشريف ..نبيل ، لكن الخـلاص منـه اكثـر مـسرة ..والموت حق ..لكن البقاء حياً ..أعمق دلالة في حقيقته . أنهكه المشي .جـاع ..أكل . عطش ..شرب . شك في الدرب ..نظر بوصلته وظل يدور في المكـان دون ان يدري ..

البوصلة خانته . الماء جف من ظمأ صحراء تلهث باتجاهه .خبزة نفد ..وحدها سكينه بقيت لامعة ..كأنما تعلن عنه ..عن نفسها ..عن الشر الذي يكمن فيها . عاصفة رملية تصفع وجهه . عاصفة تضيعه وتجعله يتيه في مكان صـحراوي مجهول . لامن أحد يمر لامن شيء يدل . لامن مكان يستر وجـوده . سـيطلع الفجر ..وتعجل الشمس بالشروق والحرارة ..لهيب صحراوي ممتـد الـى مـا لانهاية ..صقور تحوم في السماء تقترب ، تبتعد ..تلقي بظلال وحشية فوقه .. صلاح يتعثر . حلقه يجف . يفقد جسمه كل السوائل ..ولأن الصحراء لاتـستقر على صورة ولاهدف ..فأن كائناً غريباً طارئاً عليها .. لن تحفظ أمنه وسلامته . كره الصحراء ..وتذكر تلك الجبال والصخور تحتضن وجوده وأسراره . كانـت تلك الجبال بعيدة .. بعيدة أمام بصيرته ، قريبة ... قريبة في مخيلتـه . ود لـو يبادل الجبال بالصحراء ..توسل كل ذرة رمل أن تنقـذه . شـم رائحتـه ثعلـب

صحراوي ..رائحته لاتبعث على الخوف . الثعالب لاتقصد إلا الخائفين ..وصلاح لايعرف الخوف ..لايعرفه منذ أن بدأ قراره الاول وفكره البكر ..وبحثه عن نجمة مضيئة في سماء معتمة وفضاء متسع . تنفس الفجر لوناً رمادياً ثمـة نباتـات شوكية بدأت تظهر هنا وهناك .. وصلاح يعاني من ظمأ ..والصحراء تعاني من ظمأ ..والظمأ يبحث عن الأرتواء ..والصقور تلقـي بنفـسها فوقـه ، تـضرب بأجنحتها القوية ..علّها تفجر ماء ..حاول صلاح أن يتمرد على تعبه وجفـاف حنجرته وأنفاسه المختنقة . لم يفلح . كانت اقدامه تغوص في الرمال ولايقـوى على جرها .. كان يمد يده يساعد قدمه حتى يتقدم ..والصقور تشكل دائرة حول هذا الكائن الغريب . كان يحس أن الدنيا تنسحب من أمامه وتتوارى أمام عينيه . سحب سكينه ، حاول أن يحفر لنفسه حفرة حتى يتخفى عن الأنظـار ..رسـم خطاً ، بذل جهداً في أن يعمق الخط . الخط تلاشى ..

غطته عاصفة رملية . جر خطاً آخر ..ولم يوفق في اكمال امتداده .

أحس أن يده متعبة ، كسلى ..لاتقوى على الحركة .

أدرك أنه يتلاشى ..في مايرى الصقور تحط ولايقوى على طردها ..

كانت كل النجوم قد توارت عن الأنظار .

كانت الشمس تستيقظ نشطة في كبد الصحراء ..تسخن العـالم الـصحراوي ، وترمي بالحر والرمل في وجهه المتعب . وجه يتلاشى ..وجـسد تتعطـل كـل اعضائه ..تقطعها صقور وحشية ..

ويزحف الجفاف ..يزحف ..يجيء كالمنايا تباعاً ..تباعاً تب ..وينطفيء النـور في عينيه ..تمر العواصف ..وتمضي الاوقات ثقيلة ، ولاخبر يأتي مـن صـلاح ..مع ان الأمر مرسوم والأمن مكفول والنجاح محفوظ ..كانت ايـام مـرة مـن الانتظار قد مرت ..حتى إذا جاء نبأ صلاح ..جاءت معه بقايا من وجه شاحب ، وابتسامة غامضة ..أخذت منه حيوانات الصحراء أدق ملامح ألقـه ..وجعلـت إبتسامته مطمئنة ، خفية ..شيء من ذراعه ، شيء من ساقه وأشياء كثيرة منه ظلت مزروعة في رؤوس زملائه وهم يبكون .. يبكون نجمة عبثت بها غيمـة ..غيمة عبث بها ليل طويل ..طويل .

2003\3\6

* الملازم أول : صلاح الدين أحمد - من الموصل

وقد سبق للقاص وأن كتب عنه قصة بعنوان :(الجثة والصقر) نشرت في جريدة (التآخي) العراقية ومجلة (جيش الشعب) السورية عام 1968 وجاءت ضـمن مجموعة قصص نشرها القاص بعنوان :(ضمير الماء) في بيروت \ دار العودة 1972

أحزان السيد (نون)

هذا الليل القاتم يلاحقه من جديد، كأنما يريد أن يمتحن فيـه ماضـيه المتـألق وعجزه الراهن ومستقبله المجهول..ليل من طراز آخر..لم يكن له خيار فيه، ولا رغبة في العيش تحت وطأته.. فيما كان ليل السنوات التي انطوت صفحاتها، ليلا مليئاً بالأفكار والرؤى والأحلام والآمال. كان السيد (نون) فخوراً بـذلك الليـل كانت قناديله تملأ مساحة المكان بألق الأصدقاء، الذين يلتقي صـدقهم ونـبلهم وتضحياتهم وقيمهم..كان الواحد منهم يشكل جمعاً من الرجال..رأس كل مـنهم حدائق من التجارب والآلام والمحن و.. الأشراقات كذلك..وصحوة الذاكرة وطيبة القلب. لم يكن يحس الوحدة، ولا غربة المكان، ولا الكراهية عند كل اختلاف في الرأي ولا القلق على كلمات سرية تجد نفسها في فضاءا ت مفتوحة، ولا كلمـة كذب ولا خديعة ولا خيانة.

كانت به ثقة لا حدود لأبعادها بالناس والأشياء ومحطات العمل والـسفر..كـان العالم في نزهة كانت النزهة تتباهى بكائنات قدت من الصدق..وكانت. به رغبـة ملحة أن يتسع هذا العالم لأفراح كثيرة، وسعادات غير مؤجلة وضحكات تـشرق أسنانها بالبياض. لكن ..لكن هذا الليل الذي راح يحيط به..ويزحف على نهـاره وضوء قلبه وعقله وإحساسه..يتسكع في المجهول ويتكئ مرتاحا فوق أنفاسه ، تساءل : من جعل همسات الليل تختنق ومن جعل النهار يحتبس كأنما يضيق به الحال ويريد أن يودع هويته ووجوده ويعلن عن موته ؟

كانت السيدة (نون) ترقبه ..وكانت الكائن الوحيد الذي يرتاح لرقابته الـصارمة وملاحظته بدقة ورقة ..كان كتاباً مفتوحا أمامها تعرف كل كلمة وكل نقطة، وكل صفحة مطوية أو مؤشرة فيه..وكان يعرف أن الذي فيها محاصر بالكتمان تارة، والقلق تارة أخرى وكانا يجلسان على مقعدين متقابلين في حديقة المنزل..كانت تدعوه مراراً للجلوس في الأرجوحة ..وكان يرفض دعوتها مراراً سألته مرة :

- لماذا لاتجلس هنا ..المكان مريح لظهرك الذي تشكو من آلامه..؟ توسلت إجابته قال :
- تعلمين ..أنت خير من يعلم، أنني لم أكن متأرجحاً طوال حيـاتي، وكنـت اكره السلاسل التي تحـيط بـي..الأرجوحـة لاتـستقر ، وأنـا مـستقر ..الأرجوحة معلقة بسلاسل، وليس بوسعي احتمال أن تكون السلاسل أداة راحة أو تسلية. تأملته بصمت راحت تباهي نفسها به.. .برجل ظل يكبـر في قلبها وروحها أن ينزع عنه ذلك الماضي الذي يجـري فـي أعماقـه ويقطر وعيه بالبقاء ومواجهة المحن...هل يتبرأ من دمه ؟
- كان فخوراً ببذور زرعها ، فأنبتت من البنات خمس ومن البنـين واحـدا راح يحمل أسمه ويشكل امتداداً له البنات تفتحن مثل أزهـار فـي ارض خصبة ..تقدم إليهن كل غني في عقله فقير في ماله، نبيـل فـي جـذره صادق في موقفه..ترك لهن الاختيار، أحاطهن بثقة المحبة، أمتحن فيهن عقولاً تهدي إلى النور..لم يترك لهن عقبة ، ولم يلزمهن بأمر ..توسـل الطيب إلى الطيب ورفضن وتوسل العقـل الـراجح والـروح الطيبـة ، والقراءات الهادفة إلى رجل يعرف امتياز كل واحدة منهن فمن لايعـرف حقيقة الأشياء ليس بمقدوره أن يحدد كم تـساوي ، ومـا هـي القيمـة الحقيقية التي تستحقها ..الحاضر يقول ..ما من احد..وهذا الزمان يريـد المال والجمال والأمجاد الآنية يرتهن كل شيء..حتى يحصد كـل شـيء وكأن كل شيء هو الأزل !
- ألتفت السيد (نون) إلى المرأة الساكنة، الساكنة قبالته..سألها :
- -مازلت جميلة ..
- ضحكت السيدة (نون) وقالت:
- -أسخر من شيخوختي ..وأمراضي صدقني سأكون سعيدة وجميلة دائمـاً بوجودك.لم يكن يسخر ..أحزنه أن تراه يسخر منها..فقد كانت بهية فـي كل الأوقات، امرأة فيها من التضحية والإخلاص والنقاء الشيء الكثيـر، أما يكفيه هذا..أما يكفيه أنها كانت تعد له ارغفة الخبز بدموع شابة لـم

تكن لتجف ..وتلحق به من جدار إلى منفى إلى مرض إلـى انكـسارات وخيبات وأحزان ثقيلة ؟ من تكون ..امرأة تزين مظهرها.. وتبـدو مثـل لوحة رسمها فنان ماهر أين يجد جمال روحها وجميل معروفها، وضـوء عقلها وصلابة موقفها ؟ سألها :

- -هل أنت نادمة على اختيار عجوز مثلي ، سحقته المحن وجلدته الأحزان وترك له من الدنيا خمس نخلات يفضحن حلاهن بالطيب والنباهة ، وطائر يحلق بأجنحته لاسواه ويرى تحليقه في سماء متـسعة يكفـي ؟ ودت أن تقبله، ود أن يضمها إلى صدره..كان صدره متعباً وأنفاسه تضيق وعلـى شفتيه جفاف ودخان وكلام قد من تعب وذكريات وأحزان..قال لنفسه :

-هل كان عليه أن يشطب على تاريخه ويصنع لنفسه رجلاً عصرياً يواكـب موقع الألوان هنا أو هناك..حتى يجعل من نخلاته الخمس ..زين الزوجـات لرجال من قش ومن ثم أحفاد من أكاذيب تحمل الزينة ؟ وطائر من ذهـب لا يعرف كيف يغني ؟

- توسلت إليه السيدة (نون) أن يحدثها بما يدور في باله استجاب لتوسلاتها أحسها توسلات موجعة وصادقة ونبيلة ، لا تريد أن تكشف عـن عالمـه الخفي وإسراره المذابة وإحزانه المخبأة لم تنتظر أن يستجيب لتوسلاتها قالت :

-الشمس قاربت على المغيب ، حان الوقت لتناولك الدواء ..أبتسم: وحـدق في عينين متعبتين احتفظتا ببقايا جمال آفل:

-هيا ندخل ..قبل أن يحل الظلام..

- خاطبته :

-سندخل سوية ، طريقنا واحد ..ومسارنا الاستقامة حتى لو كنـت لاارى ، وأنت عصي عليك المشي أمسك بيدها وراحا يخطوان بخطوات وئيدة ..فيما الليل يلاحقهما، ويريد أن يمسك بهما فينفلتا إلى قاب البيت.

الموناليزا... تكره الحروب

ما كان عليك أن تبتسم إلى الأبد يا دافنشي.. وما كان عليك أن تخادع نفسك، بأن ترسم جمرة روحك... الموناليزا بهذه الابتسامة الغامضة التي خادعت كل وجوه العالم بها، وجعلتهم في حيرة من أمرها..

إن لأبيك قسوة لا حدود لها...أي أختار أن يبعد أمك عنك، مع أن الأمومة شجرة توت تورث في قلب الأرض كل وجودها..

قال: إن الحرب قادمة، وعلينا أن نبقى شيئاً منا، حتى ينمو ويتكاثر... حتى لا ننقطع ولا يضيع أثرنا..

قلت: إن الحرب لا تورث قوتاً حلواً... الحرب تورث قيماً لاتنسى أوجاعه أبداً..

وضيعت أمك باليورناردو دافنشي...أمك في نيران الحروب والمنافي والغربة والمجهول... وصرت تبحث عنها في حلم وقصيدة وذرة رمل..

وبقي من أمك دموعها وابتسامتها السحرية التي أخذت منك لب عقلك وقلبك وإحساسك ووجودك كله..

وما كنت تعلم إن كانت حية تتنفس حسرتها في رؤيتك، أوشاخ العمر منها وأفلت حتى أصبحت في مجهول أزلي.

صرت تواجه إصرار والدك... بهجانه ومسراته وتجارته عند اشتغال الحروب..

صار العالم لا منطقياً أمامك.. وأنت اليساري اليد.. تكتب من اليمين إلى اليسار. وليس من أحد له القدرة على قراءتك مالم يقلب المعادلة..

ترى أكنت يساري الأفكار... تحارب الحروب، وتملأ سماء روحك بحمامات بيضاء.. كما لو أنك تتنفس كل أفراحك بالسلام..؟

لم يعد يشغلك طعام أو شراب ولا ظل ابتسامة، تجلس وحيداً تفكر في علوم وفنون وقراءات شتى... في محاولة للامساك بروحك التي فرت منك، وانسحبت،

مختارة أو مكرهة عن عالمك الأثير...ولم يبق من أمك سوى دمعة وابتسامة.
ارسم كل الحوارين ، وأندب نفسك بينهم.
هندس العالم كما ترى..؟أجمع له الأرقام وأجعل من علم الرياضيات واقعاً مرأ، وحقق ما شئت لنفائس عقلك من بصيرة في التشريح والطبيعيات والفيزيولوجيا.
لا شيء يعوضك عن غياب أمك.
دافنشي...أرسمها كما تراها في داخلك.. في عمق موغل في العمق... بثوب اسود، بيدين متقاطعين، بأصابع تسيل من عسل بحثها لك، وتوقها لرؤيتك..
أرسمها بشعر منسدل على كتفين كلتا من تعب وشغف وذكرى.
دافنشي...الموناليزا،أمك، أختك، حبيبتك،ابنتك، زوجتك، رفيقة دربك.. تنظرك وتراك.. تراها وتراك. تراك ولا تراها.. وأنت موجود فيها، وهي موجودة فيك.. وفيكما... شيء مشترك، لاعلاقة له بالحضور أو الغياب..
أنتما جذر نبت من نبع واحد...لكما وجه واحد، رئة واحدة، قلب واحد... وكلاً واحداً. عيناها، عيناك،استدارة وجهها، استدارة وجهك، يتمها... يتمك..
كاترينا... طيف أمك الحق... وموناليزا... هذا الطيف الحميم الذي أتسع حتى يحب كل نساء الأرض. كاترينا...كبرت، صارت بوسع الكون كله..
موناليزا... بدت كما لو أنها تعقد قرآن محبة بين كل النساء وكل الرجال..
أما سمعت يا دافنشي أن حارس أمك، حبيبتك الموناليزا، حارسها الأمين لسنوات خلت لا تنتقل إلى أماكن أخر... ومع ذلك تمكن أحد اللصوص من سرقتها بعد انشغاله هو في الانتباه إلى إنجيليو، الرسامة الهاوية التي راحت ترقب الموناليزا على مدى ثمان سنوات... تمكن فيها الحارس المتخفي ليون من عشق إنجيليو والزواج منها... ثم...ألم تعرف يا دافنشي أن نابليون ضم إلى إمبراطوريته الواسعة الأرجاء. إمبراطوريته بوسع المدى أسمها الموناليزا... التي أبتكرها عقلك ووجدانك..؟ خمسة قرون مرت على ذاكرتك وانسك ويقظتك وحلمك الأثير... صبحك ومساؤك... كل لحظاتك... مع الموناليزا، التي صبرت

على أدق نظراتك وعلى مدى ست سنوات.... صرت فيها شيخاً عجـوزاً بينمـا كانت في كامل صباها والق تفتحها وهي في الثلاثين.

ترى ... هل يمكن أن تمر السنوات الستون عليك، وكل نبضة في قلبك تصيح: موناليزا... موناليزا.... هل تشيخ أنت، وتحتفظ هي بشبابها. أكنت تذوب فيها وأنت تنظرها. أكنت تسلط عليها نظرات الأزل التي تجعلها تحتفظ بكامل بهائها.. بحيث يتخطاها الزمان ويبقى عطر شبابها لا يعرف التراكم والتجاوز...؟

لا عليك من أذى قومك عليك.. بحيث أهملوك... وجعلوك تودع ايطاليا...

وترسم نبض حبك في فرنسا... لا عليك، العالم كله وطنك، وطنك حيث شـئت، وطن أنت، وطن يمتلئ بحب الموناليزا: الذات في الام والحبيبة..

لا عليك يا دافنشي من يسخر من أسمك... يسأل بخبث أو براءة:

- دافن... شيء!؟

أو يشوه الموناليزا... بشاربين، بوجه نمر، بمفاتيح على قلبهـا، سـمكة، سجناً، اعلاناً، رجلاً، معالجتهـا بـالكومبيوتر، بابتـسامات شـتى، طـابع بريد...أوبريت... لا عليك مما قاله الشاعر التركي ناظم حكمت فيها:

((يا أحبة، سيئة هي الموناليزا/صدقوني/ لو لم تأمل في سماع أبناء/ مـن ديار بعيدة/ لسرقت مسدس حارس المتحف/ وأفرغته في صدرها المشمعي/ لتصبغ بلون الموت/ بسمتها اللعينة)).

صدق ما قاله فرويد بأن الموناليزا ذكرتك بإبتسامة والدتك... والدتك المنفية، التي رأيتها بعمق فكرك، لا بالمشاهدة العابرة. فكانت الابتسامة الغامضة التي تبوح بالكمال ، كما تبوح بالأسئلة، كما تبوح بالتأويل ظن كما تبوح بالحزن العميق.

ودع... ودع(العشاء السري) التاريخي المقدس الـذي رسـمته، وجعلـت عبقريتك تصيرك طرازاً من المختبر الإبداعي الحي الذي يذهل أستاذه بحيـث يحترم نفسه ويخلي الرسم لك أنت... فقد صرت أمامه أستاذاً وصار تلميـذك البار.

ودع... هذه الزوجة التي رأى زوجها أن يخلدها في صورة، وجعلها موديلاً أمام عناقيد بصيرتك... فكنت تسحرها، وكانت تسحرك على مـدى سـنوات ست من الدهشة..!

وحين اكتملت شجرتك البهية... تحولت إلى غابة، وصار القادمون يحجـون إليها بالتناوب ومن يريد يريد تقليدها، عليه أن ينتظر عقداً من الزمن، وليس بمقدوره أن يأخذ مدة تزيد على نصف عام...الآخرون ينتظرون. الآخـرون يبحثون عن أنفسهم في ابتسامة من أحببت إلى الأبد.. من أكتمل وجوده في روحك وعقلك إلى الأبد..

دافنشي... هل كان جيوكندو/زوج الموناليزا، يصدقك وأنت بأنجـاز لوحـة زوجته في مواعيد لا تفي بها أبداً، هل كان يعرف أن ملايين الناس سـوف يعشقونها من خلال عشقك أنت... أنت يا دافنشي؟.

هل تبين ذاك الزوج المغفل... أن الملك فرانسوا قد وقع في غرام صورتها... فاقتناها بأغلى ثمن... وظل يحدق فيها حد الجنون؟

الموناليزا وحدها، كانت تعرف أن نظراتك كانت تلامس بـشرتها الناعمـة، أصابعها الفضية، وصبح وجهها المضيء، بالعينين التي كنـت تـرى فيهـا صورتك...

ابتسمت عندما قلت لها مرة:

- مونا...أريد أن أرى وجهي فـي عينيـك، أن أنظـم شـاربي ورأسـي ولحيتي...

قالت:

- وهل أنا مرآتك...؟

- ما كنتُ لأقول لك لو لم تكوني مرآة عقلي وروحـي وقلبـي وحواسـي كلها..

كانت قد سمعت مثل هذه الكلمات لأول مرة... ولأول مرة أدركت كـم كنـتَ تحبها. ولأول مرة عرفت كم هي كبيرة في عينيك، وكم هي صغيرة في عيني زوجها الرمل...

كذلك... كانت تعرف أنها تتمتع بجمال عادي، لكنك أنت... أنت من جملهـا في الغيب، في الحلم والواقع وملأ المدى بوجودها السحري..

جمال كامن فيك... من أمك الغائبة، ومن حبيبتك الحاضرة، ومن شيخوختك الآفلة، ومن مخيلتك التي لا تحاصر بالألوان والخطوط والذاكرة، وخـصومه ميخائيل انجيلو، ومقارنتك باوديب في منظور فرويد، وتخليك عـن مهمـات حاكم ميلانو: لودوفيكو المورو...أن يبقى عليك مهندساً حربياً، فأذا بك تقدم له((قيثارة من الفضة على هيئة جمجمة جواد)) وإذا بالقيثارة تعزف أشجى الألحان... ثم جعلت تدرس تعبيرات الصم والبكم في الملاجـئ... وصـرت تبحث عن سبل تشدهم إلى الفرح وأنت الذي تبتكر القلاع الحربية... وأنـت الذي تشتري بكل ما عندك من مال... الطيور، لتطلق سراحها وتجعلها تحلق في سماء متسعة... وأنت الذي وزعت عمرك في البحث العلمي، فـي قلـب الألوان، وفي التجوال كذلك، وفي التأمل العميق كذلك...

أنت السابح الماهر في بحيرة العينـين والـوجنتين والـشفتين والرمـشين والأنف و... و... رأيت ما رأيت... رأيت الموناليزا حزينة، تبتسم كمـا لـو أنها تريد أن تبكي، تبكي كما لو أنهـا تريـد أن تعطيـك ابتـسامة الـوداع الأخير...

من هنا ؟استغنت بالمغنين والمهرجين حتى يروحوا عن روحك، روحهـا... روح الموناليزا وأنت تستعيد وجودها على القماشة..

حسدت القماشة التي تحط عليها. حسدت ألوانك وفرشاتك والباليـث الـذي تضع فوقه أصباغك. حسدت إصبعاً يخترق زاوية الباليث..

وعندما أنجزت ما أنجزت، أدركت أنك تعتزم البقاء إلى الأبـد، أو المـوت حالاً... وما كنت الذي يطيق على أمر..

الموناليزا... عادت إلى أحضان زوجها... الضابط الخشن الطبـاع، الآمـر الناهي.... وروحك التي نظرتها في لوحة المونـاليزا... فـي قبـو، تحـت الحراسة المشدودة، ثم في قفص ذهبي أكراماً للجمال..

موناليزا... لم تعد لك، أخذها الأقدار منك، أخذتها التقاليد تارة، والحـروب تارة، والأمنيات المستحيلة تارة، والواقع تارة، والأحلام تارة... البكاء تارة، الابتسامة تارة..

هل كان بمقدورك أمر... سوى أن تودعها...؟

سالت الوداع في تلك اللحظة واللحظات اللاحقة:

- هل... هل بوسع الليل... بمداه، بطوله...أن يطفئ شـموع وجهـك يـا موناليزا...
- دافنشي... شد على يدين خـاليتين... علّهمـا تعيـدان إليـك أصـابع الموناليزا.
- دافنشي... قاتل كل الحروب التي أخذت منك الموناليزا... أشـتر بمالـك وعقلك وروحك ووجودك كله... كل الحمامات البيضاء، أطلقها، أطلقهـا في سماء تتسع للتآخي والسلام... وحتمـاً... حتمـاً... سـتعود إليـك الموناليزا مع أول فجر لا تسمع فيه كلمة (حرب)..

- أعتمد القاص في مرجعيته على العدد 3/ المجلد 1967/5 مـن مجلـة: (تراث الانسانية) المصرية بشكل أساس وعلى شذرات من كتب ومجلات تحدثت عن حياة دافنشي ولوحته (الموناليزا).

بغداد في: 2003/3/24

ألم

ما الذي يمكن للمرء أن يفعله بآلامه التي تحاصره من كل جهة وليس بوسعه الخروج من قلب هذه الدائرة العصية على الاختراق؟

بقيت لأمد طويل أسأل نفسي، وأداور في السؤال، أبعده ويجيء... أحاول نسيانه، ويلح ذكره.. أشفق على نفسي من السؤال الحاد، فإذا به يذبحني.. يقطع عنقي من الوريد إلى الوريد.

ابحث عن سبيل للخلاص... فيضيق المدى.

ابتكر أساليب للخروج من مأزق الأسئلة فإذا بها تستعيد وجودها على نحو شرس حتى لأحس إنني عرضة للافتراس من قبل قوى مرئية ولا مرئية في كل لحظة.

كنت أخشى الندم، فإذا بي اسقط في محوره.

ابعد أشباح الخوف في رأسي وروحي وإحساسي ، فإذا الخوف يقبض على أنفاسي، ويجعلني في حالة مريرة... ويضيق الوجود حتى ليتحول إلى ما يشبه الأصفاد الاستيل اللامعة الملساء التي ما أن تحركها حتى تضغط، تضغط... حتى لتجدها تحاول قطع رسغك!

أراه... واخجل من رؤيتي... أراه... يكبر في كياني كله واصغر في نفسي، حتى لأحس بأنني أتلاشى، أتحول إلى إنسان قميء، حشرة، بينما يشمخ هو مثل جبل، مثل نخلة تعلو مرفوعة الرأس في الأفق تباهي نفسها بحمل من الرطب...

لم يحدق في وجهي مرة، لم يحاصرني سؤال، أي سؤال... في ما كنت أحاصر نفسي بالأسئلة، واكتشف ضالتي... أمامي.

وجدتهم يعذبونه، لم احتمل منظره، لم أكن لأرضى ما رضيه لنفسه... كل هذا العذاب... لم احتمل صبره على توسلات زوجته وأبنته... وهم يتوسلان أن يعترف، أن ينقذ نفسه من موت، وينقذهما من هذه الفضاضة، وهذه الأساليب العصية على صفحة البياض أن تتلوث في وجودهما النسوي... الأنقى من النقاء... فإذا بهما يلوثان... كما لو إنهما يبصقان عليهما...

ترى كطيف تجيء اللذة من جسد عصي باك يحتـبس فيـه الألـم والـصراخ والجراح... الم يعرف هؤلاء... معنى أن تكون الشهوة عصية، لا تستجيب...؟ أمامي في كامل بصيرتي، بأم عيني... اللتين حاولت غلقهما إلى الأبد... فإذا بهم يفتتحون نوافذ عيني... حتى أمعن في النظر، حتى امتحن صـبري واحتمـالي ومواجهتي... وانتظر دوري في العملية ذاتها!

علي أن أبصر جيداً، أن أتحول كلاً، عيوناً... عيوناً تقر بصيرة، وتقتل بصراً. تؤكد استعداداً، وتنفي نظرة قدت من رغبة مسحوقة حتى الموت.

ولم يذكر أحداً... ولم يهتم أحداً... لم يقل انه معهم... قال لهم:

هل يمكن لإنسان أن يكون مع وحوش اقتضوا عفة أبنته وزوجته...

هل بوسع الضحية أن تصفق لمن طعن فيها أعظم مما عندها...؟

أمتحن السؤال شيئاً ما في دواخلها... لم يكن بمقدوري تحديد هذا الذي في تلك الدواخل... فلم أكن أحس بأن لمثل هؤلاء قدر من إحساس ، وقدر مهما أوتـي من ضالة... أن يكون على هذا القدر من جفاف الضمير والوجدان والنقمة.

سألت الكائن الذي في:

هل يمكن ... أن يتنفس، يأكل ويشرب ويبادل زوجته الحب، وهو على ما عليه من هذا القرف، وهذه الغلطة، وهذا الاستعداد الكلي للنقمة.؟

هل يمكن أن يكون لأحدهم طفلاً يلعب كرة مع أبناء الحي، ولطفلته (قرديلة) في شعرها وبين أصابعها أقلاماً ملونة ، ولزوجته مغرز تحوك به قميـصاً شـتويا لزوج يمتلئ جسده جمراً...؟

الكائن المنسي الذي هو أنا... نسيت من أكون أمام هذا المشهد الدامي.

الذي أوجزت لهم فيه المسألة كلها، وأعفيتهم من الأسئلة الملحة... بما كان وما لم يكن، بما اعرف وبما لا اعرف... فقد تساوت عندي البراءة والاعتـراف... حتى لايكون معي ما كان مع زميلي.

والآن.. الآن، أراه، أراه ولا أريد أن أتجاهله، ويراني ويريد أن يتجـاهلني... يتجاهلني من قرف ومن الشيء المخبأ الذي في ومن الشيء الذي فيه عني.

من منا يهرب من الآخر؟

كنت أريد الهروب من تعذيبي، من ألم سيلحق بي، ويقترف جريمة في سـلالة نقائي ومن أجل ذلك رميت...إذ رميت... زجاج سواي، مع أنني أعلم جيـداً أن شفافية روحي كانت تكسر كل شيء فيّ؟.

لكن ألمي صار أكثر فضاعة، أكثر قرفاً أمام نفسي... فقد تحولـت فـي نظـر خصومي إلى إنسان ضعيف، جبان، مهزوم... واشٍ على زملائي، أخاصم نقائي، واذبح ضميري، واكتشف عودتي أمام ذاتي، وأمام خصومي.

وزاد ألمي... كبر صار عبئاً فوق كاهلي ... فقد تحول أبني إلى لص، وابنتـي إلى مرآة تباهي نفسها بجمال مفرغ من المحتوى وزوجتي تعاني من فراغ ذهني كلي، أما اللص... فقد راح يلون أساليب عمله في محاولة تمويهية تزيـد مـن ألمي... وكان يعرف منطقة ضعفي، حناني الآثم الذي لم يضع للخطأ حداً، وظل يسامح، يسامح، حتى أصبح يسكت عن سرقته من قبل أبنه.

وباتت اللحى زياً شبابياً دائم التغيير، كمثل الثياب والعلاقات مع النساء سـهل، مثل تدخين سيجارة، وتغييرها بسيجارة أخرى ودعوة الأصدقاء إلـى العلاقـات النسوية الحميمية، مثل دعوتهم إلى مائدة طعام شهية.

وأما الابنة... فقد نشأت تتألم، تشتكي مرضاً وهمياً، وتتفق على قناني العطور وأصباغ التجميل، مما يعز على شراء قدح من شراب الرمان الـذي اشـتهيته، ولفة الكباب التي تزكم انفي... كم بخلت على نفسي، وأغدق عليها حتى أراهـا تبتسم، كانت ابتسامتها تخدعني، وحنانها كاذب، وسلوكها يثير ترفي.

وأما زوجتي... فلم تكن أكثر من آلة متوترة سـاخنة صـائتة، تبـدأ نهارهـا بمكسرات حبات الشمس الرخيصة، وتختم المساء بحبات لاحقة، الأمـر الـذي تصير فيه المادة الدهنيه في حبات الشمس، مادة شفافة تحجب عن الدماغ مهمة التفكير في أي شيء...

وعندما اسكن في خلوتي الإلزامية ، أو اجلس في مقهى الحي وحيداً، أو ابحث عن حاجات بيتيه في سوق شعبي، أجد نفسي مدعاة ازدراء من ناحية، وحـذر من ناحية ثانية، ازدراء لشخصي الضعيف الذي لم يحـتفظ بأسـرار ومواقـف

أصحابه، حتى يحتفظ بالبقاء لنفسه، وقد ساهمت مساهمة فعالـة فـي تـصفية زملائي فرادى وجماعات...

وحذر مني، كوني بت الإنسان الذي لايمكن الوثوق به... وانه مصدر شك دائم، ازدراء وحذر.... كلاهما مؤشران خفيان يثقلان علي، وينـوء رأسـي بهمـوم معتقة صارت تأخذ مني روحي وعقلي وإحساسي.

ومعي كانت الدنيا... تبدو صغيرة وفي حالة تضاؤل تام...

فقد حاولت إنقاذ نفسي من حصار عفة مهدودة، ومبـادئ مذابـة، ومواقـف متغيرة، وعدم القدرة على الإساءة والتعذيب... لذلك فـضلت الانـسحاب مـن الحياة، واختيار تل السلامة.

ثم تبينت فجأة أن كل حساباتي كانت خاطئة... ذلك أنني في الوقت الذي خسرت فيها عائلتي وأصدقائي... خسرت العالم كله دفعة واحدة..

وبت احسد ذاك الرجل الذي أراه يتجاهلني ، الأمر الذي يضطرني إلـى تجاهلـه كذلك لا رغبة مني، ولكن خشية أن يمقتني... ويكره الرجل الذي كان يعرفه من قبل ولم يعد يعرفه الآن...

كذلك، كنت اخشى مخاطبته، حتى لا اذكره بما كان ، وإنني اعـرف بالـسر... بالصورة العنيدة التي واجه بها خصوم أفكاره ومبادئه ومواقفه، وكيف ضـحى بأكثر والعمق حياته الخاصة وعائلته الحميمة إلى قلبه ودمه وحواسه ووجدانـه وعقله... بحيث فضل عفة ذهنه على عفة جسده وابنته وزوجته.

كانت الصور تختلط أمام بصيرتي... وكنت ابحث عن نفسي في حالتين:

أما أن أتستر على زملائي واحتفظ بموقفي ورجوليتي، على أن ادفع مقابل ذلك عفة رأسي وسلامة جسدي،أو افعل العكس احتفظ برأسي وجسدي وعـائلتي... ولا شأن بما سوف يقال عني... خائن، واشٍ، خال من الضمير... وإنني دفعـت الأبرياء إلى حبل المشنقة مع أن صمتي كان يمكن أن يحول دون قتلهم...!

وكنت اخترت الضفة الآمنة... وبتُ اشهد موتي في كل لحظة..

رجل هامشي، منخور،أبن ضال... لاشأن له بالقيم التي زرعتها فيه طفلاً، فـإذا به يخرج عن الموقع الذي رسمته له، وبات لصاً لا يخجل من أفعاله ويعد ذلـك

جسارة وشطارة على المغفلين... والبنت تفضل الزينة علـى رغيـف الخبـز، وزوجته شاغلها أن تكون مستلقية في أي مكان مدعية المرض... تكرز حبـات الشمس وتثرثر إلى ما لا نهاية..

ألمي... يأكل مني إنسانا كنته...

ألمي... يأخذ مني عالماً كنت أجد فيه متسعاً للخير والنبل والشرف والخطـوات الحميدة، فإذا كل شيء ينهار أمامي... وإذا بي احسد نقيـضي، وأعـادل بـين خسائري وخسائره... أحس أن ما ادفعه كل لحظة، اكبر بكثير من كل الخـسائر التي دفعها رجل أبي، نقي، صادق مع نفسه وأصحابه ومواقفه.

كان ألمي... يفترس، يأخذ مني وجودي وأنفاسي... يقتلني حتـى المـوت... أموت وأتلاشى ذاك حسن... الموت أفضل، أفضل من عالم كلي ينهار أمامي... التوسل موتي أن يجيء ... يجيء... يجـ...

كل هذا العالم

وضعت كل ثروتي التي جمعتها طوال عمري الذي تدق أجراسه لتبلغ الـستين، داخل حقيبة سوداء صغيرة، ابتعتها بثمن زهيد.... حتى لا أنقص مـن ثروتـي شيئاً.

وفي أوقات مختلفة: صباحية، مسائية... وما بينهما، كنت التقي ثروتي وأحس بشجن عميق، وفرحة غامرة و.... حزن ثقيل يخيم على أنفاسي ويبـسط ثقلـه فوق راسي... فأشكو من صداع مزمن.

كان زائر الحزن هذا يتقدمني، يقتل علي أفراحي ونشوة روحي، حتى لأحس أن في عيني العمى الذي يجعل كل الأشياء حولي عديمة الأهميـة، وغيـر جـديرة بالبقاء... كانت ثروتي محفوظة في أغوار عميقة من نفـسي وروحـي وقلبـي وفكري حتى لا أرى إنني أسير بين يديها... وليـديها طعـم الليمـون ورائحـة الليمون و.... يحزني أن يكون وجهي بلون الليمون..!

ثروتي... معي، تتجول معي في كل مكان، تحط مثل كتاب ؟أثير فوق منضدتي، وتكتبني بحبر أخضر وحروف من بهاء، وتحلق فوق راسي ، مثل حمامة تعرف جيداً هذا المكان الآمن الذي هو راسي وتأتمن فيروز أن تغني لي.... (سـلملي عليه) لكن راسي فيه صداع وحمامتي تفهم أوجاعه...

ولأوجاعه شيء من عذاب روحي، واختناق أنفاسي.

ثروتي في مكان آمن، لا يعرف سره سواي.... وسواي لا يرى... ولن الجميع لا يرون... فأن الأمر يحزنني أن أرى ثروة روحي برأس متصدع ووجه ليموني وعيون كامدة... وروح تبصرها بوسع الأرض والسماء.

ومما يزيد في ثقل حزني، إنني أتحول إلى سجان وجلاد آثم، بحيـث يـصبح الأسير الذي بين يديها والذي هو أنا وليس من أحد سواي، إلى أسر لهذه الثروة التي تلون روحي وتشرح لي صدري وتضيء قناديل العافية في رأسي..

أنظارها.. تنظرني.... المسها فتخجل... باللخجل العذارى من لمسة الـشيخوخة وهي تستيقظ من سنواتها العجاف على لمسات العذارى... باللعـذارى... مـن أعذار وهن يستجبن، وهن يؤ يرفضن... وهن يستجبن، في آن معاً..

ثروتي... هي العذراء الحيدة التي تكلمني بلغة الصمت... وأنا خير من يـتقن أبجدية الصمت... وهو يضج بأشجار الكلمات، بثمارها، بلأليء ما تمنحـه مـن دفق وحرارة وإرادة ووعي وهمس ولمس وعتب أحياناً، وحزن أحياناً... وفرح دائم عندما تكون معاً داخل محفظتي الصغيرة الزهيدة السوداء..

أقول... اذكر ما قلت:

- حقيبتي ليست صغيرة كبيرة، كبيرة وسعها الكون... أليست موجودة فـي أحضانها... وأحضانها إلى جانبي ... وجانبي... وجانبي يحلقـان مـن الفرح؟

وحقيبتي ليست زهيدة، حقيبتي أثمن من تحديد ثمن لها...أكبـر مـن كـل الأرقام.

وليس بوسع قارون اقتناءها.

وحقيبتي ليست سوداء كما يقدر البعض أن يراهـا... قلبهـا أبـيض مـن البياض... البياض الذي فيها أعذب من قطرات الندى، انقى من حليـب كـل الأمهات...

لقد شربت من حليب أمي ولم ارتو.... هل بوسـع العـذراء أن تـسد لـي عطشي الدائم إلى طفولة عاشت من ظمأ، وجفت من شباب، وكـسرت مـن شيخوخة؟

لقد كبرت الأشياء معي، تلونت... كما لم تكن قد تلونت من قبل..

لقد صرت بها صاحب ثروة طائلة من جواهر المـشاعر، وفـضة النقـاء، والذهب المسحور بالعلاقات الحميمة التي يكتنزها قلب عاشق وعقل يرى.

لكن... ما يبكي هذا القلب لكن هذه.

لكن..... ما يبكي هذا القلب لكن هذه.

لكن ما يثقل الرأس بثقل الصداع... لكن هذه.

لكن... ما يبكي هذا العالم الذي يضعني في دائرة الحيرة... لكن هذه.

فمن أخترع لكن هذه، من وضعها في دربي، من جعلها تحول دون أفراحنـا الأبدية، وتواصلنا الدائم...؟

أباهي نفسي بوجودها معي، بسحر عالم منتقى... هي فيه مثل شمعة تبـدد سواد الأشياء حولي... ولا حول لي.

ترى هل تباهي نفسها؟ مرة كتبت لي تقول:

((لما التقينا، لقينا العمر ولى وعبر).

ورأيت ما رأيت... لقاء (علي)و (علي) يبصر، وبصيرته لا تخطي... وهـو يخاطبني أحبب من شئت فأنت فاقدة) وأنا لا أحب من أشاء... وأنا لا افقـد من أشاء.

من شاء له أن يكون، شاء له الزمان والمكان أن يظل... وما يظل معـي، لا ظل يزيله... لا قسوة من برد... ولا لفحة من حر.

لكن بعض مني يقول من فرط المحبة:

-لاتحبس ثروتك حد الأنانية... ثروتك العذراء، تريد... كما تريد. الأنثى تريد والأمومة تريد، واللاتي من الأيام العجاف تريد.

وليس بوسع هذا الثري بالمودة أن يحقق العذراء ما تريد... ومـا تريـده أنت.. فلا راد للعمر.. ولا عمر للعمر... وهو يتخطى هذا الحب... سريعاً... سريعاً... سريعاً، سريعاً... وسريعاً قاتل الله السرعة وهي تأخذ منا أقـدس وأعذب وأجم واغني وأعمق أدل أبهج وأعظم اللحظات.

ثروة الروح تختزن محبة في كل قطرة دم، في كل قطرة عـرق، فـي كـل نسمة، في كل خلية... فكيف يمكن للعمر أن يـسرق هـذا الكنـز العـذري ألحميمي الذي فيها وفي..؟

من...من يا ترى يعرف ما اعرف، ماالذي فيها متى ما الذي في منهـا ... ماذا فعل الذي فينا من أفراح وآمال وبهجـات ملفوفـة بـالخوف والحـذر والسر؟.

شيخ على الباب يتوسل نظرة شابة.

الباب يشيخ من الطرق... يئن... أما سمعت يا عذراء ذل شـيخوخة تقـف عند الباب تبحث عن طلعتك تتخفي وتحتجب وتجند شيخوختي التي تسحرها نظرة منك، نسمة عطر منك... أنت، أنت حسب.

اعرف أن العطر الباريسي لم يكشفك من قبل ولا من بعد...وحدي المكتشف الأول... فليضعوا اسمي فوق اختراعي... براءة الاختراع منك لي... ولهـا وحدها أنا مدين بالبقاء، ولا بقاء لي سواها وليس لسواها مـن وجـود ألا وجودي... وسواي ملعون... ملعون إلى الأبد... فأنا الأبد.

لن أكون أنانيا بهذا الإفراط، العذراء وشمتك بالأزلية... ثروتك باقية غيـر منقوصة... ألوانها زاهية، مغلفة... تخبي عطر الورق الـصقيل والظـرف الأبيض... مثل حمامة... والحمامة لاتخون البيت الذي آمنت محبته.

إذن.. دعها تحلق في سماوات لست فيها.. دعها تكون حيـث لا تكـون... فلتزين نفسها. العالم زينة زائفة، العالم عفن...أصـباغه تـسيل مـن بـر المطر...

قلت لها...امتحنت الذي فيها... خجلت مراراً أن تخضعها لهذا الامتحـان... مثلها لا يمتحن مثلها أجوبة دائمة تجيب عن أسئلة كثيرة لا تبقي ولا تذر من هذا العلم الصدئ قلت كم لم اقل من قبل.. دهشت خاطبني صمتها المالـح... ضج الصمت دق على رأسي دقات عنيفة.. صار الصداع كلي... يقـاتلني، يعاتبني، يحبس على أنفاسي... وهي تخاف على أنفاسي، وأنفاسي قدت من أنفاسها... وأنفاسها تريد ولا تريد... وأنا أريد... ولا راد لأرادتني... سوى هذا اللقاء الفتي... الذي يتجذر والذي يرفض أن يشيخ.

وأتساءل في عزلتي ووحشة روحي... وأنا انبت أفراح عمري من بـسمتها الموناليزية:

- كيف يمكن لي العيش ...دونها... كيف يمكنها العيش... دوني.
- دون وجودنا معاً، لا وجود للوجود أصلاً... لا أصل للأصل أصلاً.
- فهل ستخطي الأزمنة مسارها... وهل تضيع النجوم في وسع الـسماء، وهل للوسع مكان في عالم يضيق... يضيق حد الاختناق.

- ليس بوسع الشيخ أن يعود إلى الصبا، ذاك الصبي زائف، وأنا لن أزيف صدقي معها... ومعها يكون كل شيء، ولا شيء... الأشياء كلها تلـتحم حتى تتساوى أشجاري المورقة وأزهار بوحي... مع هذا العمـر الـذي يتآكل مثل رغيف يفر قبل أن يؤكل، يعز على محبيه أن يتلاشى...
- هذا الرغيف أنا... هذه الثروة الأثيرة المخزونـة فـي قلبـي وعقلـي وحواسي أنت..
- الرغيف يتآكل... عيشي أنت ، أنت يا شجرة الـروح... فـلا روح دون روحك... وليس من احد يمكنه أن يأخذ من زاد عمري... وأوقاتي التي لا تنسي معك... سواك.
- أنا باق... لك، من أجلك... ولكن... ولكن، التمس العذر لأزهاري أن هي ذبلت فذاك من طبع الشيخوخة.. ويكفيني منك أنني لا أشيخ في ذاكرتك ووجدانك... ولن يأخذك مني كل هذا العالم... فأنت أنت من يمـنح هـذا العالم بقاءه.
- أصدق حدسي: أنا باق... وأنت الأزل... وبعدك لا بعد... لأن البعد...أنا وأنت حسب.

أنقـــــاض

أعتاد أن يستيقظ مبكرا مع أنه ينام متأخرا .. وفي تلك الليلة لم ينم أبدا .. كانت أصوات الإذاعات تملأ عليه سمعه وحواسه كلها .. وفي كـل حركـة لمؤشـر المذياع كان يجد أسم بلاده وأخبارها .. تأخذ مساحة الأوقات كلها .

كان الصباح عنده يعني أغنية لفيروز .. تعيد إليه صورة من يحب وعطر زهرة في حديقة المنزل , تذكره برائحة الأصدقاء الذين كان يميزهم .. حتى إذا خـرج إلى الشارع , وجد ما لا يسره حيث يبدأ المشهد الأول بالنفايات والأنقاض التي تملأ (الجزرة الوسطية) في حي الصحة الذي يفتقر إلى بقعة أو نسمة صـحية يمكن للمرء أن يطمئن إلى عافيتها !

كان نتن الأشياء يستقبله مع كل صباح .. حتى إذا مشى المسافة التي اعتادها , وصولا إلى منطقة تتوقف فيها السيارات التي تقله إلى عمله , وجد نفسه فـي موقع الزحمة بحثا عن سيارة ما , عن مكان في السيارة , عـن متـنفس بـين الواقفين والجالسين ..

وعندما يصل إلى الكلية , يستقبل وجوها يعرفها .. أساتذة يرتدون أكثر من قناع , طلبة يتملقون أساتذتهم , عمال تنظيف .. يهملون حتـى تنظيـف أنفـسهم , حراس يسرقون ما يحرسونه .. ولا أحد يعنيه الأمر !

أنقاض من البشر .. أنقاض من الأشياء تتراكم .. وأنقاض من نفسه بدأ يتهـدم وينهار ويتلاشى..

كان يعتذر من طلبته عندما يدعونه إلى سياراتهم لإيصاله ذهابا وإيابا .. يرفض هداياهم , ونظرات الفتنة في عيون طالباته .

كانت به رغبة ملحة للاحتفاظ بالأستاذ الجامعي الذي انتمي إليه عقـلا وروحـا وصارت به رغبة أخرى للخروج من جلده . إلا انه صد بقوة مثل هذا التحـول الطارئ على حياته ومكونات نفسه , والرجل الذي بناه وعمقه واخلـص إليـه

وحدد موقفه .. حتى وجد نفسه في موقع الاحترام والاطمئنان والراحة النفـسية لمن يريد أن يتنفس ما يعتمل في صدره ويخرج عن الكتمان الذي يحاصره ..
حدثه زميل له :

- اليوم الزموني بالمشاركة في تنفيذ الإعدام .. إعدام صديق حميم لي لم يكن بمقدوري ان أرفض .

فوجئ بهذا السر .. سأل زميله :

- هل ستشارك بإعدامي كذلك عندما تؤمر ؟ هل يمكن لمهنة الأستاذ الجـامعي أن تتحول إلى مهنة الجلاد .. أترضى ؟
- رضيت .. من غير أن أرضى .. فبات من حيث لم أكن قـابلا .. اسـتبدلت موتي بموت من نوع آخر ..
- كيف لمثلك أن يرضى ..؟
- كنت أحمل هبة (صديق الرئيس) ومن يحملها وفي موقـع المـسؤولية , وعلى صداقة وثقى بالضحية , فلا بد من القبول .. ليس باستطاعتي الرفض .

كان يريد أن يسأله .. أن كان راغبا في صداقة الرئيس .. أن كانت الـصداقة : هوية ومكافأة شهرية . أن كان مثل هذه الصداقة مشروعا , أو له ما يماثله في أي بلد , في أي زمان .. لكنه أشفق على زميله .. وحاول أن يخفف عنه عبء المشاركة في إعدام صديق .. جريمته الوحيدة , أنه يختلف في الرأي مع صديقه الرئيس .. الرئيس دائما على حق , والرئيس له رأيه الصحيح دائما .. ودائمـا عليه أن يقول نعم .. لم يجد كلمة مناسبة يمكن أن تسعفه في مساعدة زميله .. بل كان على الضد من هذه المساعدة أصلا .. فقد أحس بالاشمئزاز لأول مـرة من (صداقة) يرتهن فيها وجوده كله .. وراح الشك ينتابه وهو أمام زميل قاتل .. وقد يكتب تقريرا ضده ويلقيه في السجن .. في وقت ينتقل فيه هذا الزميـل إلى موقع وظيفي رفيع المستوى .
بقى صامتا , حائرا بصمته , خائفا من صمته حذرا من أنقاض هذه الروح الميتة التي تجلس أمامه خائبة , حذرة , مهانة , ذليلة .. تصارع نفسها . سأله :

- ماذا بوسعي أن أقول لك .. أخطأت .لا تكرر الخطأ .. هل يكفي هذا .. هـل أنت مقتنع بهذا الحل .. حل لا يقنعني أنا القاتل .. لقد ساهمت بالقتل ثـلاث مرات :

قتلت بريئا , قتلت صديقا , قتلت رأيا .. أليس كذلك .. كيف يمكن إصلاح مثـل هذا الخطأ .. هناك أخطاء فادحة لا يمكن إصلاحها .

وراح يحدق في عيني زميله , لم تكن به رغبة للمساهمة في مـضاعفة آلامـه وقلقه وندمه والعتاب الملح لضميره .. غير انه لم يفلح في تغيير ذلـك علـى الرغم من كل محاولاته التي جاءت في نهاية الأمر خائبة .. مشمئزة من زمالة لا حول له في إبعادها , وثقة لا قدرة له على ردها .. لكن قدرا من الكراهية بدأ ينمو في صدره .. تنبه إلى زميله إلى نظرة الكراهية تلك .. ولـم يحتملهـا .. فودعه بعنق منكسر على غير المعهود .. على غير ما يريده .

في صباح يوم أخر .. المشاهد الأولى من أنقاض الزمان والمكـان تكـررت .. حتى اعتادها . حيى عميد الكلية .. قابل العميد تحيته بحفاوة , أقفل باب الغرفة وتوجه للجلوس إلى جانبه :

- دكتور .. تعال خلصني .
- ومتى كنت في موقع يصلح لإنقاذ الآخرين ؟
- دكتور .. أنت صديقي الحميم .. بمن أثق لأقول له ما جرى ؟
- خير .. خير أن شاء الله .

تبادلا النظرات . قال العميد

- تصور .. يريدون قتل الطلبة في الجامعة , بعد أن استعدوا لقتـل عوائلنـا جميعا .. عندما وضعوا الأسلحة والدبابات والنـاقلات وحفـروا المواضـع العسكرية في كل شارع .. لقد أبلغوني بأنهم سيضعون أسلحة في المختبرات , وسيخبئون أخرى في الساحة .. سيحفرون الأرض ويضعون أسلحة تدمير .

فوجئ بحديث العميد , ووجد نفسه في حيرة من أمره , أختنق صوته حاول أن يبوح بكلمة .. توسل كلمته حتى سمعها تنطق :

- دكتور .. الرئيس يريد من شعب تعداده (26) مليونا أن يضحي من أجله .. هذه نتيجة من كان يهتف .. بالروح بالدم .. والآن لبى الرئيس ذلك النـداء وقبل بتلك الدعوة حتى أصبحت واقعا .

- ألا ينبغي للفرد أن يضحي من أجل الجماعة ؟

ضحك .. كانت ضحكة بكائية تغتصب ملامحها .

قال :

- هذه دروس نظرية , نرسمها في ذاكرة الطلبة والواقع يزيلها بسهولة .

- ما الذي يمكن فعله ؟!

ضحك ثانية , ضحكة مرة :

- نحن معطلون عن الفعل والتفكير , الرئيس وحده من يملك هذا الحق ألـيس كذلك ؟

وجد العميد نفسه يحاصر زميله بالأسئلة , ويضيف إليه هما جديدا .. حاول أن يغير لهجته خوفا , أو حذرا , أو احتمالا لأمرا ما :

- كان لابد من مواجهة العدوان .. نحن لا نرضى بالاحتلال .

تأمل في وجه العميد سأله :

- دكتور .. في الجامعة , في كل قراءاتنا , تعلمنا أن نبحث عن الأسباب , حتى نتبين النتائج.

- ما حصل كان خطأ ..

-هكذا .. بسهولة , خطأ , هذا خطأ يؤدي إلى كارثة ..

- دكتور .. لقد اعتدنا الكوارث .. هذه حرب ثالثة . الحروب كتبت علينا .

أراد أن يسأله من كتبها .. عقل غائب , لا يترك لعقول آخرين أن تحضر .. كان يصفي حساباته مع كل من يفكر , مع كل من يختلف معه في الرأي ..

كان يعرف أن العميد .. يعرف جيدا , الحقيقة كلها طمأنه :

- هل بوسعك ترفض ؟

- الجامعة .. البلاد بكامله سيتحول إلى أنقاض .. هل تسلم بهذا القدر ..؟

سكتا معا . لم يكن بمقدور هما سوى السكوت .. كان السكوت فـي اعماقهمـا جمرا .. جمرا يستحيل عليه الرماد .

في أنقاض يوم أخر .. طرق بابه , قريب له .. رحب به حدثه بسرعة :

- دكتور .. أنقذني , ماذا افعل .. يريدون نقل الأسلحة في سيارتي .. قالوا لي .. لا عليك من القتلى والجرحى .. قالوا لي .. يجب أن نخادع العدو .
- في سيارة الإسعاف .؟!
- نعم .. نعم دكتور
- هل أنت متأكد من هذا .. هناك إشاعات كثيرة عن كسر السدود , وحرق آبار النفط , وزرع الألغام تحت الجسور وفي الساحات والحدائق العامة .. هنـاك أطفال يشدون القنابل إلى أجسادهم ليقوموا بأعمال فدائية آخرون سيتحولون إلى دروع بشرية ..
- دكتور .. الأسلحة تملأ سيارتي الآن .. هل صدقت الآن .؟!

مرة أخرى وجد نفسه حائرا , يغلي بالأفكار والرؤى والأحزان .. لم يعد يـدري أن كان بوسعه أن يبكي , أن يحترق .. شيء يجنن وليس بمقدوره إيقاف هـذا الجنون . كان يسعف احدهما الآخر , حتى يقوي احدهما على مساعدة الآخر .. كلاهما انتابه نوع غريب من فاجعة لا تحتمل , من هم ثقيل لا قدرة لهما علـى أزاحته سأله :

- أليس بوسعك أن تهرب بسيارة الإسعاف .
- إلى أين أذهب بها .. وكل الناس قد تحولوا إلى عيون رصد .. هل أسـلمها إلى العدو ..؟

تأمل بصمت راجع ذاكرته , أتخذ رأيا حاسما . قال :

- لا تقم بجريمة حرب الأفضل أن لا تسلمها , حاول أن تتخفى , أن تهرب .
- دكتور هذا ليس حلا سيأتي سائق أخر ويتسلمها وينفذ ما يؤمر به .

أدرك انه على خطأ . أدرك أن السائق كان يفكر بعقل سـليم . أدرك الإنـسان الذي بدأ يواجه أنقاضه . أدرك أنه بات يفتقد ذاكرة أسسها على تفكـر بـشكل

منطقي ورؤية عميقة ورأي سديد .. وبات الآن , كل شيء يبدو غائما , عصيا على الفهم . قال :

- سلمها إلى الخصم ..
- حتى يقتلوننا بها ..! حتى نثبت بأننا قتلة متوحشون ..! حتى نقر بالجريمة قبل تنفيذها ؟

أدهشه كلام السائق .. خجل من نفسه .. اعتذر , ادعى انه مرتبط بموعد .. قال :

- دبر أمرك

وعندما اشتبكت الأسلحة .. صدأ الكلام .. ولم تعد هناك لغة يمكن أن يبوح بها , بات يسمع ويرى :

حارس المستشفى يفجر نفسه .. ويقتل معـه الأطبـاء والمرضـى .. المكتبـة الوطنية تحرق كتبها , المتحف الوطني تسرق أثاره الأسواق المركزية تسرق كل المواد الغذائية وسواها ثم تحرق.

الهاربون من القصف .. الهاربون إلى خارج المدينة شربوا من المياه النتنـة . وعادوا مرضى وقد وجدوا بيوتهم أنقاضا تعاني من الهـدم والـسرقة وعفـن الموت ..

الجوالون في الأسواق الشعبية يبيعون مسروقاتهم .

البعض وجد مناسبة أثيرة لبيع الخضروات بمبالغ طائلة .. البعض اشترى مـن خزين اليوم الأبيض المعد لليوم الأسود .. إما البقية فاكتفوا بالتمني .

أما الأستاذ الجامعي .. فقد وجد نفسه أنقاضا بين عائلة موجعة خائفة , ونقـود تلاشت .. وصداع ثقيل يدق بقوة في رأس مفرغ من كل فهم .. بـين شـبابيك تكسر زجاجها وزوايا بناء انهارت .. وقلوب قست فضاعت ولم يعد أمامه سوى المذياع سبيلا إلى رؤية العالم .. كيف يتحول إلى أنقاض ..

ازدحمت الأفكار في رأسه .. تحدث إلى عدد من جيرانه الذين اجتمعـوا هنـا وهناك كلا يبحث عن أنقاضه .. يفتش عن نفسه , كان يريد أن يرى الأشياء في

عيون سواه كل يترقب من لا يجيء .. وكلا يتأمل وطنا تحول إلى أنقاض فيمـا المذياع يعلن هذا الصباح 2003/4/15 عن انتهاء العمليات العسكرية ...!

الموت بين الأشواك والأزهار

لم يكن وقت الظهيرة في ذلك اليوم بهيجاً كما جرت أوقات الظهيرة في آذار، بل كانت السماء غاضبة، عاصفة ترابية، تركت ملامـح بلـون برتقـالي خـانق.. مصحوب بزخات مطر... في وقت تطلق فيه صفارات الإنذار.. ترافقها أصـوات رصاص من أماكن مختلفة.

لم أكن اعرف سبيلاً لأنقاد حياتي من الربو الذي يخنق أنفاسي أو المطر الـذي جعل ملابسي رطبة وقد تحول التراب فوقها إلى أوحال كنت أشبه بناقلة عسكرية تتخفى من رؤية العدو- أو أجد قبواً يقيني ما يحدث..أو أصل سريعا إلى بيتـي لمعرفة ما أعدت له عائلتي من سبل قد تقيها قدرا من شرارة الحرب.

و.... فجأة سمعت صوتاً مدوياً حولني إلى أذن مستمعة تبحث عن خلاصها من فاجعة طالته، أو هي على تماس مباشر معه، وفي أفضل الأحوال... قريبة منه.

دوي صوت صاروخ يرتطم بالأرض، يخترقها... وينشر الرعب فـي المكـان... ويتحول المكان إلى نيران وأصوات صرخات وسقوط مبان وزجاج..

وقبل أن أتبين نفسي، أو يتبينني احد، دوى صوت صاروخ آخـر فـي الجانـب المقابل للشارع... أعقبته أصـوات متداخلـة، مختلطـة بـالنيران و الأمطـار والعواصف الترابية، لم أكن اعرف إلى أين اتجه، وهنـاك كثـرة مـن النـاس يركضون في كل الاتجاهات، يصطدمون بي أو اصطدم بهم... لا اعرف أن كنـت قد تسببت في آذاهم، أو كانوا سبباً في إيذائي...

لكن مشهداً مثيراً جعلني أنسى من أكون، وأين اتجه، ومـا هـي سـبل إنقـاذ نفسي... فقد كان المشهد يثير الرعب والدهشة والصدمة... والصرخة المرافقة للمشهد كانت غريبة، موجعة، خائفة... على نحو يمتص معه كل الأسى المحيط به..

كنت أراه... شيخا، بثوب متهرئ... ووجه أكله الرعب وقد تحـول كـلا إلـى صرخة.. صرخة تنطلق من غور سحيق... ويدان تحتضنان بعـضهما تمـسكان موقع البطن..

-أنقذوني... أمعائي تسقط... أمعائي امسكوها.

-نسيت كل ما تبقى منه، ورحـت اركـض إليـه... أسـاعده علـى الإمـساك بأحشائه... لم يكن هناك ما يشير إلى أن الرجل قد فقد أمعائه..لكنه يمسك أمعاء تقطر دماً وقطرات من المطر وبقع من الأوحال... أمسكت بأمعائـه، دفعتهـا ، فوجئت بأنها تنفصل عنه... والرجل واقف... ينظرها.. كما لـو انـه يتأملهـا دموعاً...

-أمسكت الأمعاء بكف وبالكف الثانية، تلمست بطنه..قفز، انتابه خوف وألم...لم اكن اعرف أن كنت فرحاً أم حزيناً وأنا اطمئن الرجل قائلاً:

-أمعاؤك بخير..واطمئن..

-دهش من كلامي:

-أحشائي بين يديك... كيف اطمئن؟ أمسكت بيده، سحبها، ألححت...قلت:

-المس...هذه بطنك، أحشاؤك ما زالت موجودة.

-ود لو يصدقني.. وطاب لي ودي عنـدما صـدقني... وراح يـساعدني علـى الإمساك بالأمعاء التي كانت تنبض سريعاً، حارة دامية، موحلة، ماطرة مـن دم وماء....

-ركضنا معاً ، نبحث عن صاحبها... لهذه الأمعاء صاحب، ليس من المعقول أن السماء أمطرت بين أيدينا أمعاء لا تعود لأحد...

-توجهنا إلى سيارة تحترق، جثة تحترق.. تهرب من النيران وتهمـد... وقـد طالتها الأوحال والمطر والسماء البرتقالية الزاحفة إلى لون مماثل للنيران..

-قلبنا السيارة....كان هناك جمع من الناس يساعدنا وجمع آخر يرقبنا ويخشى أن يتقدم حذراً من صاروخ آخر قد يلقى في الزمان والمكان...

-اختلطت صرخاتنا، بأصوات سيارات الإسعاف والإطفاء والنجـدة... ونحيـب النساء...صرخات متشابكة، تخاصم بعضها، صرخات صـدئه موجعـة، حـذرة خائفة...

-و... توقفت نظراتي، أدركت أنها قد تيبست وليس بوسعها أن تـرى.. تـرى قلباً، قلباً لأنسان، ينبض... هذه الأوردة والشرايين تنبض، هـذا الـشغاف يتمزق...هذا الدم الساخن يعلن البخار عن حرارته في هذه الظهيـرة الاذاريـة الموحشة.

-نسيت الأحشاء في يدي.. احتضنتها فوق صدري بيد، كما لو كنـت احتـضن مولوداً يفتح عينيه للنور تواً، أو كيس فاكهة يلذ لي أن يفـرح بهـا أبنـائي... أمسكت بالقلب، جعلت أغطيه بقميصي، كما لو كنت اخبي كنزاً، ورحت اركـض باتجاهات شتى لا اعلمها، واصرخ بطريقة لا افهمها... صار الناس يركـضون حولي...صرت اسمعهم يقولون:

-جن الرجل..هذا الرجل أصيب بالجنون.

-هل كان هذا الرجل المجنون أنا.. هل كان هذا الشيء الذي احتضنه قلبـي ام قلب سواي هل كانت هذه الأحشاء تعود لي أم لغيري... وهذه الدماء... هل كنت أنزفها... كم فقدت منها... وأنا الذي أخاف قطرة دم دجاجـة.. تهـرب منـي، مستفيدة من الرجل الذي يحنو على حياتها... على حياة غصن يقطع وينزف من حليب البراءة.

-ووجدت نفسي محاطاً بأياد كثيرة، ووجوه حائرة... بعضها خـشن قـد مـن غضب، بعضها يذوب من رقته، بعضها يختنق من خوف ودهشة... شاحب مثل ليمونة...بعضها وجوه لم أتبينها... وقد ضيعت ملامحها بـين الـدم والوحـل والمطر..

-اختلطت في وجهي كل الوجوه... ورحت أحدق في أشياء كثيرة.. تبصرني ولا أبصرها.. هذه النيران والدخان... فأين الرماد...

-هذا الرماد هذه القطع الفحمية، هذه الأشياء الحمراء، البرتقالية، الـسوداء... هذه السيارات ، الأرقام، واجهات المحلات، وجه رجل ملقى وفي فمه لقمه..

السواد... السواد. سواد العباءات النسوية، الوجوه، سواد الأعلام الحـسينية.. ذلك أربعينية الحسين لما تحل بعد... ولا بعد لبعد.

-أين أصل الأشياء الدائرة حولي كلها... هل قطعت، اقتلعت من الجذر... حتـى الجذر حين يقتلع له أثر..فأين اثري، أين الإنسان الذي في، من يدلني علي، من علي يؤشر، يومي من أكون، من أين كنت...؟

-أين الأمعاء التي في يدي، في يد رجل طمأنته، وفي قلب لا يطمـأنني.. أيـن الجنون الذي في أين الفعل الذي في...

-أمعائي موجودة... أين افتقدت أمعاء الرجل، ماذا سأقول عندما يسألني عنها، لقد ائتمنها لدي. هل أخون أمانة أحد...؟

-أين ضيعت قلبا نابضا كان يملأ علي كفي.. كفاي خائنان. كفاي شريران، لابد من قطعهما، حتى يكونا عبرة لبقية أعضائي..؟

-صرخت بكيت من صراخي، بكى مني بكائي... تفطرت السماء مـن دمـوعي، كانت دموعي موحلة... وحلي مقدس، منه خلقـت، إليـه أعـود.. آذار ينبـت أزهاره، يفوح عطره...منه..منه هذا السواد الحسيني منه هذه(الحواسـم) منـه هذه (الدهشة) منه هذا (الإرهاب) منه هذا (الجهاد)...

-كان يضحك مني، كل يأخذ مني، كل يقطف مني أزهار حيـاتي.. كـل يـدوس بغلاظة على هذا الإنسان الذي بين يدي أحشاء وقلباً...دماً، مطراً، وحلاً، عاصفة ترابية... أذاري الدم... حسيني المحتوى.. أفل، كما لو لم أكون... كما لو أنني جبلت من جنون هذا الرجل الذي في... هذا الإنسان الذي تصهره عاصفة آذارية شاحبة... تدور، تدور، تركض العمر كله.. ثم تطحن سريعاً بين (الحواسم) و (الدهشة)...تموت... تموت بين الأشواك والأزهار... تموت بين أشـواك قاسـية وأزهار صناعية زائفة..

لا احد هنا لا احد هناك

لا احد. لم يعد هناك احد .. كانت وحدها .. في البيـت والمدرسـة والمـدن المنسية .

لا أحد يسأل عن فتاة قدت من حرير .. واستوت إلى مجمع آلام وعقاقير .. لـم يكن كل هذا الجسد الحريري , والفتنة التي تليق بالأفراح ؛ سوى قطعة ذهبية .. يحتفظ بها الأهل للأيام الصعبة والمحن المجنونة .

اختاروا لها زوجا .. يعرفون أدق ما فيه .. كذبه وحماقاته ولياليه وغربته عـن كل ما من شأنه أن يكون رجلا يحتفظ بامرأة تصون لـه سـمعته وتحـرص أن تخبئ أسوأ ما هو عليه قالوا لها :

-زواجك من هذا الرجل يعني إنقاذ عمك من موت محقق .

قبلت .. قلت أنها ستجعل من هذا الشرط سبيلا إلى حياة عمها , وبناء الحياة مع رجل تصنعه على وفق وعيها وأرادتها وفتنتها .. غامرت بالموافقة .. ولم يكن أمامها من سبيل سوى الدخول في قلب العاصفة .

خرج العم من دائرة موت كانت تحيط به , في مسألة لا علاقة له بشأنها وإنمـا ألصقت به .. وكانت تعرف جيدا أن المسيح وضع في موقع واحد مع يهـوذا .. حتى تتساوى البراءة والجريمة .. وحتى تخيم عتمة واحدة على مـوت يخـون أرادته .

أفرحها أن ترى رجلا نبيلا بكامل عافيته يشم هواء عالم رحب .. فلا عوض عن عم عزيز .. فهذا اقل ما ينبغي أن تقدمه لجذرها ومحبتها وبراءة الشمس فـي عيني عمها .

كما أفرحها أن الرجل قد بذل المستحيل , وتوسل كل ما يمتلكـه مـن خبـرات كلامية وعلاقات حميمة جسورة ومبادرات ضاجة , ومسارات مغايرة حتى ينقـذ عمها .. وحتى يحصل عليها مكافأة على حسن صنيعه .

أقنعت نفسها .. أن الرجل يريدها ,مفتون بها , وعاشق لوجوده معها .

قبلت كل الشروط , ما دام الأمر يتعلق بحياة عم عزيز على قلبها .
لم تكن التضحية بالنسبة إليها عسيرة .فالرجل يهواها , ويلاحق ظلها .. والأهل يرفضون وهي لا شأن لها بالرفض أو القبول .. لم يكن لها وجود أصلا لم تكن تملك طاقة على نطق كلمة بهذا الشأن , فالأمر لا يعنيها لا من قريـب ولا مـن بعيد !.
لكنهم الآن يتوسلونها القبول وانه ليس لابنة طيبة مثلها أن تـرفض .. بـراءة عمها , وان كانت ترى أن جريمة حقيقية ترتكب بحقها , وتلين لها وتـستجيب بكل ما تحمله من نتائج .
تزوجته , وقبلت برجل مر جسده على عشرات النساء وتعفن فمه مـن الخمـر والسجائر والكذب , وله من زحمة العمل .. بحيث لم يكن يأخـذ صـفة لمهنـة معينة يمارسها سوى اجتهاده في خديعة بيع وشراء الأجهزة الكهربائية .. حتى صار علامة تجارية موشومة به وموصولة بعالمه .
فرحت الضحية بأطيب الليالي وأشهى الطعام والشراب والـسكن .. فرحـت أن تكون فرحة عمها مرهونة بها .. ثم .. بدأت أزمة المحن والخـوف والتـردي والمهانة والذل .. حتى وجدت نفسها كائنا منسيا بين أربعة جدران .. لا يهم أن يموت ويعفن وينسى إلى الأبد .
وفشل كل ما رسمته من أحلام وأمال ورغبات مخلصة وملحة أن تجد خلاصـها في رجل تكون له عقلا وقلبا ووجودا .. ثم ..
حاولت أن تبحث عن بدائل في الأبناء .. قالت أنهما من نعم المحبة , ومن الـق الليالي السعيدة والأفراح التي لم تنطفئ بعد .. فلها في وجودها آمال كبيـرة ' حاولت أن تصوغها في ود عميق وعناية وانتباه حميم .!
لكنها .. حصدت خيبات متلاحقة .. وجدت فيها نفسها تشارك ابنتها عسر الحياة , ومن ثم الانفصال التام عن زوج سيء الطباع .. وتفاعل الألم بالألم .
وجدت .. أن الألم يشترط عليها أن تبقى , وتمتحن أرادتها في البقاء وان تصل إلى قناعة كلية مع ابنتها .. ذلك أن الحياة ليست نزهة دائمة .
ثم ..

تعذر على الألم أن يأخذها إلى الأبد بعد موت زوجها .. فسواء كان أم لم يكن .. شيء واحد , وكان طريقها أن تحيا وتواجه المحن وحيدة .

كانت تعمل في خياطة الملابس والتطريز وإعداد أرغفة الخبز للجيران كما تعـد المعجنات للناس السعداء , وقد تعد الطعام للمترفين الذين يريـدون أن تحـتفظ نساؤهم بأياد ناعمة ..

كانت أصابعها تعمل بلا كلل . تساعدها ابنتها المطلقة أحيانا ؛ فقد كانت تحرص ألا تتعبها حتى لا تجد نفسها مع أمها مجرد كائن ثقيل .. رمى به الدهر فـوق كاهلها .ز فيما كان الولدان يكبران , ويواجهان مسؤوليات مشتركة . كان اكبـر هما يرسم حياته بالجندية الإلزامية , وثانيهما في رحلة الدراسة الكسولة التـي تحتاج إلى ذهن صاف وطراز يعلم المدرس كيف يعلم .كانا يعملان في مهن شتى , حتى يخففا ولو بجزء يسير من ثقل الحياة على أمهما . كانت في الأم رغبـة ملحة في أن تراهما عريسين مكتملين وان تناغي أطفالهما .

أقنعت احدهما بأمنيتها .. قالت له أن ابنة الأخ خير من يحسن إليه واليها .

استجاب الابن لتوسلات أمه .ز وذهبا إلى الخال .. يدقان علـى بابـه ويعلنـان رغبتهما بناء حياة زوجية سعيدة .

هرب الخال من الطلب , اتكأ على الدراسة .. قالا أنهما سينتظرانها . هرب إلى عمل الشاب , قال الشاب انه لا يخجل من ممارسة أي عمل ويواصـل دراسـته الجامعية .. هرب إلى المسكن .. قال انه متواضع , وابنته اعتادت السكن فـي مكان واسع .. هرب إلى أنها وحيدته التي تساعد أمها .. قالا أنهما سيتركان لها المجيء لمساعدة أمها .. متى شاءت .

هرب إلى العمر .. قال أنها مازالت صغيرة .. قالا أنهما سيدعانها تكبر .. ولـم يفلحا في أقناع الخال .. حتى وصلا إلى مرحلة الاعتذار الخجـول .. وراحـت تندب أيامها المرة .. قالت حتى أخي .. لم يكن عونا لي في المحنة .

ومع الزمن اللاحق راح الأخ يهرب من بيته متوجها إليها .. فهي الأخت الطيبة التي تحنو عليه وتقف إلى جانبه في محنته . وقبلت .لم تقل له شيئا عن هروبه

منها .. عن رفضه الدفين في قلبها في اقتران ابنته بابنها .. حاولت نسيان مـا كان , فالأخ قد جاء إليها , قص
ها , دون سواها .. رحبت به واحتضنت فيه محبتها .
ثم ..
تخلت عن بيت يحمل في فضائه الأوجاع والأفراح النادرة .. حتى تعـين بثمنـه ابنها الأول على الدراسة والعمل , والثاني على الجندية والعمل كذلك ..
وحصلت على موافقة والدها بالسكن في أحدى بيوته لقاء أجور عدها مناسبة .. وعدتها زوجة أبيها أجورا زهيدة .. وان عليها التفكير بزيادتها في الشهر الأتي .
وافقت أن تكون كما يريدان .. وظلت تلبي هذه الإرادة شهرا بعد أخر .. في مـا راحت الأيام تمضي قاتمة مرهقة بالأمنيات التي ماتت إلى الأبد والقلق الذي يريد أن يرتاح على كف حنون , وقلب رؤوف , وجهود تساعد ما هـدم مـن هـذا الجسد الذي ابتلى بالانكسارات المتلاحقة .
ودارت ذلها بالود الذي ظلت تحمله لعمها ولأبيها ولأخيهـا ولزوجـة أبيهـا .. وقالت أن العم مدين لها بحياته .. فهل يمكن أن يتنكر هو الأخر لها ؟؟
لم تكن تصدق رفضه طلبها في اقتراض مبلغ مادي متواضع .. اعتـذر وعلـل الأسباب بظروف مالية قاهرة يمر بها .. فهمت جيـدا , أنهـا الوحيـدة التـي باستطاعتها الاتكاء على حالها .. فلا احد هنا , ولا احد هناك .. ليس من شيء هنا أو هناك .
ثم ..
طلبوا مساعدتها من جديد .. عجبت , هل هي مؤهلة في هذا العمر وفي هـذا الثقل من الاوجاع والفقر .. إلى تقديم مساعدة لأحد , مع أنها هي التـي كانـت بحاجة لأحد !.. قالوا لها أن زوجة أبيها مريضة , ومرضها ثقيل وطويل الأمد , وتحتاج إلى من يرافقها ويكون إلى جانبها .. وليس من احد سواها , يملـك صفة الحنان والرأفة .

لم يكن بمقدورها أن ترفض أو تحتج لأي سبب مهما كان منطقيا .. كانت تعرف أنها خلقت للتضحيات وليس من احد يمكن لن يقدم لها .. أقـل مـساعدة , لا تضحية .. فالتضحية ملك خاص بها وحدها .

تقدمت إلى عملها بسرعة , وراحت تنظف ما علق بالمريضة من بقايا .. تعفف منها الجميع .. وراحت تقدم للمريضة السوائل بكف رحـوم .كانـت المريـضة تتحدث بصعوبة , تستل الكلمة , كأنما تستقيها من بئر عميقة .. سألتها :

- هل زدت الإيجار ؟

فوجئت بالسؤال .. وحاولت أن تصدقه , وتنكرت له .. أبعدته , فقد خيل لهـا انه لا يمكن أن يسوء الحال بالمرء أن يسأل مثل ذاك السؤال وهـو مـشرف على الموت وفي أحضان تراب يلتم على المريضة المسجاة شيئا فشيئا .

-هيه.. هل زدت الإيجار ؟

حاولت أن تبعد عن أذنيها السؤال .. مثلما أوقفت أصـابع خـشنة كـادت أن تضغط بقوة على أنفاس امرأة تغرق بالموت شيئا فشيئا .

حدقت بأصابعها .. هل هي أصابعها حقا , هل هي ذات الأصابع الحريرية التي تجمع الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة والإبهام ؟

ظل الإبهام بعجب لما أجراه الزمن من حفر وخشونة في شعرية هذه الأصـابع التي ضاع أصلها , وعافتها الذكرى .. وضيعتها الأيام .

هزت رأسها .. مجيبة على السؤال حاولت المريضة أن تعقب , أن تعرف مـا بعد الإيماءة . ولماذا لا تنطق هذه المرأة التي شاخت ومازالت تحمل ملامـح امرأة جميلة .

توسلت كل عضو في جسدها أن يسأل .. فلم تفلح .حاولت أن تومىء وتـشير بالنظرة والحركة لكن أيا من أجزاء جسدها , لم تستجب لنـداءاتها الداخليـة المتصارعة .

أحسست بالرأفة عليها , تمنت عليها أن تريح نفسها من هـذا الإلحـاح وان تقول لها . سأزيد , سأرفع الإيجار كما تشائين .. وعلى وفق كل ما ترغبين .. فقط ارتاحي , لا وقت للمساومة , الوقت للراحة , الانفعال يضر بـصحتك

المتدهورة .. أنت تعجلين موتك . احتارت .. كيف تجعلها تفهم هذه التوسلات جميعا , وان تقول لها .. حياتي فداء لانسانة تحتاج إلى من يقف عند رأسـها وهي في رحلة الوداع الأخير .

نادت بصوت آس وموجع :

-هيه .. أمنا تموت , هيا كونوا إلى جانبها .. اجتمعوا كي تودعكم .. أنهـا تناديكم .. أنا اسمع صوتها , قلبها يتوسل رؤيتكم واحـدا واحـدا .. واحـدة واحدة .

حاولت المريضة أن تعتصر بقية حرف , بقية نظرة .. همسة , لمسة , لكنها وجدت نفسها تغيب شيئا فشيئا , وراح وجهها يأخذ لونا شـاحبا , لمـسته , وجدته يبرد قليلا قليلا .. نادت:

-هيه .. انتم يا من هنا , أمنا تموت تعالوا , ساعدوني , أنا أخاف من الموت .. لا تتركوني حتى مع الموت وحيدة .

لا أحد يجيب .. لا أحد هنا , لا أحد هناك .. فقط , فقط جسد بارد يستلقي .. جسد منطفئ .

التوريق وبلع الريق

قف خطيبا بين الناس وقل:

- ما دام هناك عيد للشجرة، وعيد للمعلم، وعيد للمحافظة، وعيد للشرطة، وعيد للمسرح، وعيد للعمال وعيد للطفل، وعيد للمرأة... وعيد... وعيد، فلماذا لا يكون هناك عيد للمعدة، والمعدة بيت الداء كما تعلمون أيها السادة؟
- سؤالك سيثير الضحك بالتأكيد، مقترحك سينبه إلى مسألة لم ينتبه إليها احد من قبل.
- لا يهم كن واثقاً من نفسك. كن مصراً على إثارة هذا المقترح في أي تجمع وأي اجتماع وفي أية جلسة.
- تقدم... لا تتخاف عن مشروعك في الدعوة إلى تخصيص يوم للمعدة.. سيقول البعض ساخراً:
- ولماذا المعدة بالذات، وليس بالطعام وحده يحيا الإنسان؟!..
- سيقول آخر مقللاً من مقترحك:
- إذن سيكون هناك عيد للرأس وللإطراف وللعيون وحتى للأظافر!..
- لا تخش شيئاً من الضحكات .تأكد أن كل واحد من هؤلاء الذين يسخرون من مقترحك، يمنون أنفسهم بطعام شهي بهذه المناسبة السعيدة... ألا تسمعهم يومياً يتحدثون عن البطاقة التموينية وأسعار المواد الغذائية... حتى وصل الحد ببعضهم إلى تقديم مقترح يتم بموجبه أطلاق رصاصة الرحمة على كل عجوز مريض لا يجد الغذاء والدواء، حتى تصبح هناك وفرة في توزيع الحصة،وأثنى آخر على المقترح مضيفاً إليه ضرورة تشجيع المواطنين على السفر والعيش في البلدان الأخرى، وهو أمر يحتاج إلى قدر من التضحية والشعور بالمسؤولية والتفاني لخير الجماعة!..

- ودعا آخر إلى حذف الإعلانات التلفزيونية المتعلقة بالمطـاعم، وحـذف مشاهد الطعام من كل فيلم أو مسلسل عربي...ألا أن احد الجالسين فـي اجتماع المدراء ، ندد بهذا المقترح، مشيراً إلى أن هذا المقترح من شأنه أن يجعل شاشة التلفزيون تعاني من فـراغ هائـل باعتبـار أن جميـع المسلسلات والأفلام العربية تؤكد هذه الظاهرة المتعلقة بالكرم العربي..
- وعلق متحدث آخر...
- بالعكس الإعلانات التلفزيونية المتعلقة بالمطاعم ظاهرة حضارية ؟، تؤكد أننا لا نعاني من جوع أو عطش... وبذلك نكيل صـفعة لأعـدائنا الـذين يقولون أن الحصار قد ترك أثره العميق في الناس.
- واجتهد خامس:
- هذه الإعلانات تحفز المعدة على الحركة والشهية. كما تجعـل المـواطن يسعى في مناكب الأرض بحثاً عن عمل يدر عليه الرزق الحلال، ويمـلأ طبقه اليومي بالبروتينات...
- قال سادس:
- الأهم من ذلك كله أن هذه الإعلانات وغيرها تجعل الناس يفكرون بقـوت يومهم والحفاظ على أمنهم وسلامتهم بأنفسهم، بـدلاً مـن العمـل فـي السياسة، وقانا الله من شرورها.

وأنت أين تضع مقترحك في اجتماع مدراء دائرتك، فكر جيداً، فكر لها مدير، يمكنه الاستغناء عن المدير.

كن واقعياً، أكد ذلك، امتحن هذا الواقع: قل مات فلان، والفاتحة على روحه الطاهرة ستتم في المكان... صفة حدده لهم، ستجدهم هناك يملأون المكـان حزناً وورعاً، حتى إذا اقبل المساء تسابقوا إلى مائدة الطعام، والكل ينـسى قراءة الفاتحة على روح المرحوم!.

تاجر بكل شيء، التجارة شطارة.. هذا الاجتماع يتيح لك أن تتحـدث مـلء فمك.

أنت وزملاؤك تخططون للمستقبل... وهو فضل تتقدمون به للآخرين لقـاء مبلغ زهيد لا يتجاوز الألف دينار عن كل اجتماع!.

تعلم أن تكون مغفلاً.. الغفلة مطلوبة في هذا الزمان... المهم أن تفكر جيداً في مسألة واحدة تتعلق بكيفية الحصول على مـنح ومكافـآت... أن تـضع ظاهرة (التوريق) نصب عينيك، فلا شيء ، غيرها يـستحق أن يأخـذ منـك لحظة تفكير .

تعلم من سؤالك انه لاينبغي أن تسقط في الحفرة نفسها التي سبق أن سقط فيها سواك... تذكر جيداً ان6 ×6=32 وليس 36...

ألا ترى الحال الذي لحق بك عندما قلت بإصرار... الرقم الصحيح 36، فبقيت موظفاً صغيراً يستحق الصدقة.. فيما أصر زميل لك على الـرقم 32 فأصـبح مديرك.. وبقي مغفلاً ،مهملاً لواجباته... ليتقدم عنك بمسافات طويلة لا يمكـن لك بلوغها ألا بالغفلة المستمرة. والانشغال كلياً في كيفية إرضـاء رؤسـائك، وموافقتهم الدائمة على أن 6×6=32 لا غير.

لا احد يعنيك، لأنك لا تعني أحداً.. مع ذلك فكر بأن كل شيء يعنيـك مـادام مفيداً لك، صل إلى قناعة كلية تقول أن الكلب أكثر وفاء من الإنسان... الـم تقل لك هذا زوجة صديق لك مات في الغربة، حتى إذا عادت بجثته لم يبكـه أحداً سوى كلبه الوفي الأمين!.

من هو جدير بوفائك و إخلاصك ومعرفتك؟.

الكل يريد أن يحتفل بمعدته... أولادك يبدأون نهارهم بطلب مـشترك واحـد يقول:

- ورق..

وتلحق بهم أمهم:

- ورق...

و تجد نفسك في السوق (تورق)، وفي الشارع، والدائرة، وكل مكان مطلوب منك أن تعد أوراقك النقدية.لا تجعل نفسك تمل من هذا العـد. لقـد حولـوا

الموازين وآلة الخراطة للقيام بهذه المهمة بدلاً عنك... كم يفكر البعض مـن أجل راحتك.

اقتصد لثلاثة أشهر ونصف. لاتعمد إلى صرف فلس واحد. لأن الفلس نسيت شكله وكذا الدينار والخمسة دنانير وفئة الخمسة والعشرين ديناراً لاعليك من جمع رواتبك كاملة... حتى تشتري وجبه كاملة من الألبان المحليـة بمبلـغ ثمانية عشر ألف ديناراً أحسب كم شهراً تتقاضى فيه ثلاثة آلاف دينار لتجمع فيه ثمن الألبان، كن صائماً آنت وأولادك وزوجتك طوال هذه الفترة الزمنيـة التي لاتتجاوز نصف عام لتتمكن في نهاية الأمر من شراء حصة كاملة مـن الألبان الوطنية المتعفنة والتي ترمي بها في نهاية الأمر في سلة المهملات!

كن صائماً عود نفسك وأسرتك على فضيلة الصيام... حتى لا يتعفن الطعـام في المعدة، حتى تستريح المعدة بعد جهد العمل الذي يقتـضيه طعـام دسـم تسمع به ولا تراه ألا في شاشة التلفزيون.

اقطع الشك باليقين.. ثق بنفسك ثقة مطلقة، اخلق عدواً لك حتى تثبت انـك قوي.. وقوي جداً، عش العظمه كاملة، أوهم نفسك بها... لاتقل إن مثل هذه المظاهر تدل على الإصابة بمرض (البارانويا).. اتخذ من المـصابين بهـذا المرض قدوة حسنة... وستجد نفسك يوماً ما تهتف مـع الجنـرال مـيلان استريد((يسقط الذكاء...يعيش الموت))..

لا تقل انه جنرال فاشي اتخذ من عشق الموتى فلسفة سـميت فيمـا بعـد (نيكروفيليا) على حد زعم: اريك فروم.. احلم بعالم مدمر، كما كـان يتمنـى هتلر. احتفل بموت الآخرين.. ادع الآخرين إلى هذا الحفل... هكذا ينبغي لك إن تتصرف في أيام المحن..

لاتشغل ذهنك بالحكمة التي تقول ((إن السعادة تكمن فـي شـيء نعملـه، وشيء نطمح إلى تحقيقه)).

ذلك ماض قرأته أو عشته أو مررت به في مسيرة حياتك... مـاض وكـل ماض أسدل الستار عليه... لك في أراذل الناس الذين تحولوا إلى أناس عظام خلال فترة زمنيه قصيرة... قدوة حسنة... اختر من الماضـي مـا يحقـق

طموحك، ما يغنيك، الغنى سيد الحياة... ولا شيء سواه، فيه يمكنك شـراء ضمائر وأحذية وزوجات... و به يمكنك إن تجعل الليل نهاراً والنهار ليلاً.. وشروق الشمس غرباً، وغيابها شرقاً، الجبال سهولاً، والسهول جبالاً، المرأة رجلاً، والرجل امرأة، السيد عبدا والعبد سيدا...

تأمل قول بول فاليري اعمل بتعاليمه التي تقول((إن السياسة هي فن صرف الناس عن الاهتمام بما يهمهم))ومن ثم إضافته التي جاء فيها((السياسة فن إرغام الناس على تقرير مالا يفهمونه أبدا ولم يسمعوا به البته..))

نعم.. نفذ ما قاله هنري جيتور((تخلصوا من الجنس البشري)) كن وفيـاً لمن يماثلك ابحث لمارسل شوفاليري عن عمل يليق بمكانته...

نادر في زمن ينشد السلام، وهو رجل في الستين من عمره، وقد كان الجلاء الفرنسي الأشهر الذي لم تشفع له خدماته الطويلة من إحالته على التقاعـد بعد إلغاء أحكام الإعدام من القانون الفرنسي..

شوفاليري الآن عاطل عن العمل، وهو لا يريد إن يتقاعد مبكراً اتـصل بـه استفد من تجربته الطويلة، خفف من أحزانه التي تسببت فيها فرنسا بأبعاده عن المقصلة التي قضى معها أجمل سنوات شبابه..

شوفاليري... خبرة رفيعة المستوى... وأنت خير من يدل علـى الخبـرات الفنية النادرة.

تظاهر وبإلحاح وحماسة إلى تخصيص يوم للمعدة واظهر تقـواك وحزنـك على ما فات وأدع إلى الإصلاح... إلى بلع الريق بدلاً من التوريق... اتخـذ من المسألة شعارا يقول((التوريق وبلع الريق)).

اسحب ما شئت من الأوراق النقدية، واجعل الناس يفكرون ببلـع الريـق... فعيد المعدة قرين ذاك الشعر الفذ الذي ستربح منه سمعة حسنة.. بعد إن طال الحديث وانتشر أكثر مما تتصور..

لا تخنق الأنفاس استبدل الأشياء بين حين وآخر، العب كل الأوراق التي تعزز مكانتك، اكسب الوقت أخلق الأزمات.. اجعل الناس ينشغلون بشيء ما.. هكذا تقول تعليمات ميكافيلي.

أنت مجموعة رجال في رجل واحد.. أنت صغير وكبيـر معـاً، أنـت قاتـل ومقتول، أنت سيد وعبد، أنت حرف أو نقطه لها وجود في كل الكلمات وكـل السطور وكل الصفحات... أنت من يجعل من الجوع مـشكله ومـن الـشبع مشكله... أنت من يدعو إلى الحرب بسيفك، أنت مـن يقتـل المـرأة التـي يعشقها، أنت من يغفر في حالة العقاب، ويعاقب في حالة المغفرة، أنت مـن يهندس هذا العالم ويهدمه.. أنت من يحمل حمامة سلام تقطر دماً..

أنت من أنت.. انك تدعو إلى عيد للمعدة، ولابـد إن يـستجيبوا، لابـد إن ينفذوا، فما دمت قد شئت، فكل إيماءة منك قانون.

قف خطيباً بين الناس وقل:

-أنا... إنا كل هذا العالم... إنا ولا احد سواي..

الأمهـــات

تلفت بين الجدران وفي حديقة المنزل .. وتنقلت بين كتاب ودفتر هواتف ..
وجدت زوجتك وأولادك ينامون من رهبة وقلق وتعب وترقب .
بحثت عن إنسان تتحدث إليه .
الهواتف معطلة أو تحت الرقابة المشددة , وكل كلمة .. يمكن أن تثير الكثير من الأسئلة والكثير من التأويلات .
ليس من أحد تتوجه إليه .
الحميميون من أصدقائك : ماتوا , أو سافروا , وفي أفضل أحوالهم .ز يعـانون من المرض وليس بوسعك أن تثقل إلى هموم أمراضهم هما جديدا .. وما تعرفه يعرفونه كذلك .. وستسمع ما تعرف , فما الحاجة إلى الثرثرة ؟
دع الموت يستبق الحياة .دعه يمر بهدوء , يفلت من أصابعك , يعطـل رأسـك ويوقف نبض قلبك .. ويثقل أنفاسك . أستبق الموت .. إلـى المـوت . أسـتبق الحياة إلى الموت .. فليس هناك من قلق على شيء تفقده . لأنك لا تملكه أصلا .. فلم الخوف , خوف من ماذا , على ماذا ..؟ غن .. مع المذياع في آخر الليل : يا ليل .. يا عين , وفي أخبار الصباح الساخنة كذلك.. غن ..يا ليل .. يا عين , فقد طوروا لك " زهرة المار كريت "تلك القنبلة المدويـة التـي ضـربوا بهـا أفغانستان في العام الماضي .. وما دمت قد دخلت عصرا جديدا وعاما مزدهرا .. وآذار يفتح لك وروده .. والربيع في كامل بهجته , فلا بد أن يعدو لـك طـرازا جديدا من القنابل , يناسب الزمان والمكان ..
تنبه إلى النشرة الإخبارية جيدا .. النشرة تقول أن " أم القنابل " قنبلة تليق بـك .. ف"أم المعارك " التي ابتكرها .. مؤمن ومنصور بالله .. لابد أن تكون لـه أم تختلف عن كل الأمهات مثلما كانت له قادسية تحمل أسمه (المجيد) .

أما أمهاتنا فقد اعددن في هذا الصباح .. العاشر من عاشوراء , يومـا خالـدا للحزن المقدس .. حزن بدأ بالحسين الشهيد .. ولم ينته حتى هـذه اللحظـة .. ولن ينتهي على مدى أعوام آتية ..

و.. يا ليل .. يا عين . يقول صوت ذاب من الرقة , وكل شيء خشن حولك حتى نسائم الصباح الآذاري .

و.. آذار , آذار , آذار .. هل كنت على موعد معه عام 91 , وموعدا آخر عام 2003 ؟

مواعيد أحزان الأمهات لا تنتهي أبدا فما أن تعتادها الأمهات .. حتى تتجدد فـي دم الحسين , وما أن تبحث عن النسيان حتى تتجدد .. ذلك أن (أم المعـارك) لابد أن ترث أما جديدة أطلق عليها (أم القنابل) ذلك أن لكل أم داء ودواء , ومع كل حزن يتجدد حزنها .. مع كل غائب , مع كل عائد , مع كل ذرة تراب .. لها دمعة , ولها ثوب أسود لا تتخلى عنه أو لا يتخلى عنها أبدا .

ثق .. ثق .. كل الرايات سوداء .. بدءا بالحسين الذي حملوه من مكـة برايـة خضراء .. واستقبلوه براية بيضاء .. ومن فـرط المحبـة .. أزهـرت الرايـة البيضاء , وردة حمراء .. حمراء , ثق .. ثق .. ثق .. دم البراءة والنقـاء .. يزهر دائما , فكل الزهور العطرية مروية من دم الحياة , ومثله يبـوح بـالعطر والعشق .

لا عليك .ز تذكر حركة النوارس فوق جسر الشهداء في الـصباح البغـدادي . النوارس تأتمنك على حياتها , تحط في يديك , تلتقط طعامها .. ثـم تحلـق .. وتستريح فوق سطح دجلة .. ودجلة يرحل بها إلى البعيد .. وأنـت القريـب , القريب الذي تحط حزنك , فوق حزنك , فوق حزنك .. حتى تتحول إلى جبل من الأحزان .

لا عليك .. ليأخذوا شهوات : الحكم والطعام والأنثى .

لا شأن لك بالسلطة .. فما أنت إلا خرف .. دع الآخرين يفكرون نيابـة عنـك ويصنعون لك حربا أثر حرب .. أثر حرب . ويجددون لك أمك .. ذلك أنه لـيس من المعقول أن تعيش طول عمرك بأم واحدة .. وأنت في هذا العصر المشحون

بالمتغيرات في كل لحظة .. دعهم يغيرون خارطة الكون , كما يشاءون .. ذلك أنه ليس من المنطقي أن تبقى الشمس تشرق من لشرق وتغرب عند الغـرب .ز الشرق والغرب , ضعهما في أكف صناع الأمهات ..

لا تعارض عندما ينزعون عنك أظافرك يديك وقدميك .. فتحت الأظـافر تتجمـع أقذار , وبما أنهم قادرون على اقتلاع كل الأقذار الثقيلة والخفيفة , فلا بأس أن تترك لهم هذه المهمة .. بل لك أن تشكرهم حتى لو سلخوا لك جلـدك .. فمـا ضرك وقد أخذوا منك عقلك وقلبك ودمك ..؟

كذلك .. لا شأن لك بالطعام , لك أن تصوم , الصوم عافية , والكفاف بر أكتـف بالجلوس تحت نخلة تساقط رطبا .. ثم أحفر بأصابع حرثك .. حتى يتفجر ينبوع ماء ..

لب النداء , احفر بئرا وموضعا حربيا في حديقة منزلك .. أن كنت تملك ..

ولا تشغل بالك في أمور عابرة .. فقد سهلوا لك السبيل في التوجه إلى خيمـة عند الحدود .. ومنظمات الإغاثة الدولية في خدمتك ليلا ونهارا .. تسهر علـى راحتك , وتزودك بالماء والغذاء والدواء .. على حسابها الخاص .. فكم كـرام هؤلاء الناس , وهم الذين لا يرهقون أعصابهم في إيقاف الحـروب .. ذلـك أن شعارهم (كل نار تصبح رمادا) شعار ثبتت صحته وحكمة المؤمنين به .

ايضا .. لا عليك من الأنثى , فأنت عن , وأنثاك عاقر . أنت أصلا , وامرأتك لم تلحق بالقطار السريع .. والشيخوخة مزروعة منذ ولدت ويوم تبعث ميتـا .. لا عليك .. لا تدع الأنثى تنوح عليك , اعشكك وأموت فيك , تكسر الخاطر بـدوني ينكسر كلبي عليك ..)) .

لك أنت .. أنت نداء حميم :

((عيناك ليال صيفية / عيناك قصائد وردية ..))

صيفك لا هب .. أنت محاط بأمهات الحروب .

ورودك .. جفت , أحرقتها أمهاتك .

ما شأنك .. بالنسائم اللطاف , والورود النشوى ؟

مهمتك في هذه لحياة . أن تحارب ,ثم تحارب .. ثم تحارب , وإذا تـسنى لـك شرف الموت جوعا أو مرضا أو قتلا .ز فلك أن ترشح أبناءك وأحفادك . لمثـل هذا الشرف .. فلا أشرف من أن تموت في حروب الأمهات .. وحسبك أن أمـك التقليدية التي زرعت فيها نطفة عن رغبة أو ليلة قدرية .. ستبكيك كل العمر .. تذكرك في اليوم الحسيني الدامي .. وفي كل مأتم لها دمعة .

أما الأمهات الجديدات , فهن الأكثر قدرة على مواجهـة الـصعاب بـأقراص : الكرامة , والأيمان , والمبادئ , وقدسية السيوف التي لا تستقر في غمـدها .. ذلك أن الاحتفاظ بها داخل الغمد سيعرضها للصدأ , وأنت لا ترضى لسيفك الذي قد من الغضب والجنون والرجولة الأبدية أن يصدأ .

عود نفسك على الاستجابة .. الطاعة , ثم الطاعة .

عود نفسك على العودة إلى بيت الطاعة , وألا كنت خائفا , ومجرمـا , ولـزم عقابك , وقطع لسانك والتمثيل بك .. فأنت تبيع وطنك وعرضك ونفـسك بمـال بخس .. مع أنه يوجد دائما من تولى هذه المهمة عن وعي وإصرار نيابة عنك وقد بوركت له خطواته ومهماته وابتكاره حروب العزة والكرامة وبيع الأوطـان والأعراض والنفوس .. بكراس قدت من الذهب الخالص .

مهمتك .. أن تبارك كل خطوة .. ذلك أن طريق الزهور .. يبدأ بحروب داميـة , تسقى بدماء شبيبة لم تضحك لا من قبل ولا من بعد .. فالضحك خفة , ولـيس من طبعك أن تكون بخفة ريشة تلعب بها الرياح !

أصغ إلى كل الإذاعات . ولا تصدقها . فمن خيبات العدو أن يكذب .. ومن نشوة النصر المؤزر أن يعزز انتصاراته بالصدق دائما وأبدا .. وما دمت تبحـث عـن الصدق , فليس أمامك سوى الإصغاء إلى إذاعة وحيدة وما يرافقها من أصداء .

صدق .. صدق حزن يزيد .. وهو يمسك برأس الحسين .. محمولا على طبـق من ذهب صدق .. يزيد , كان يريد كل شيء من الحسين بدءا من ظفر في أحـد قدميه , إلى أعلى شعرة في رأسه .

كذلك صار من حنان الأمهات على أبنائهن . أن يبتكرن لهن (المعارك) الدائمة (وقنابل) تقتل .. قتلا هادئا بالجمل لا بالمفرد .. الذي قد يكـون مكلفـا فـسعر الجملة دائما أقل كلفة , وأسرع وصولا إلى المقابر الجماعية .

أمهات قدت قلوبهن من وجع وحزن وآبار من دموع جفت .. لماذا يتركن بهـذه الخيبات كلها . لك أن تفكر هذه المرة .. هذه المرة حـسب .. أن تكـون بـارا بدموع أمك , بحزنها الحسيني الشهيد , بقلبها النابض ..

فكر أن تكون لك أنت .. أنت حربك التي تدفن كل الحـروب .. حتـى يـصبح بمقدورك عندئذ أن : تتخلى عن الحروب إلى الأبد .. وان تسقي الزهور دائما .. فكر .. لا تدعهم يصفون لك أمهات معارك وأمهات قنابـل .. أمـك وأمهـات زملائك يترقبونكم عند الأبواب .. وانتم تنثرون الأزهار فوق رؤوسـهن التـي شاخت من ألم وانتظار وبكاء وماتت . ماتت اسقها اكسر الحياة . دعها تزهر , كما لم تزهر من قبل . دعها تبقى مزهرة والى الأبد .

و.. يا ليل .. ياعين .. أصغ إليها .. ستكون هذه المرة في قاب النشوة .. وفي كامل البهاء والنشوة .. غن .

السيف والوردة

في طفولته المبكرة , يذكر أن معلم التاريخ قال مرة :

ـ لا تصدقوا كل ما تقرأون .. كتب التاريخ , كتبها المنتصرون .

وبدأ يفهم أن سلطة القوي على الضعيف , لا تقول الحقيقة .. بل وتتنكر لها , تلغيها وتجيء ببدائل كاذبة .. ثم ترسم لها وجها مشرقا .. تتناقله الأجيال ويذكر انه سأل معلمه :

ـ أستاذ .. هل المنتصرون على حق ؟

ـ ليس دائما .. لغة السيف أقوى من لغة الكلمة .

وأدرك أن السيف القاطع , والكلمة تواصل .. وبين القطع والتواصل مسافات طويلة من الرهبة والأمان , من القسوة والمحبة , من الشوكة والزهرة ..

وعندما كبر صار يدرك أن السيف , المال , الموقع الوظيفي أو الديني أو السياسي أو العشائري , و .. الجمال كذلك .. سلطات تقوى على بسط نفوذها وإرادتها , واستبدال الباطل بالحق وبالعكس .

سأل نفسه :

وما هو موقع القيم والحكم والمبادئ والفضيلة التي كنا نتعلمها ونتلقى دروسها طول العمر .. وكيف نوفق بين القناعة الصميمية , والقناعة الإلزامية ؟

ـ كبرت الأسئلة في رأسه .. اتسعت مساحة التأمل والجدل , وليس من احد يضع حدا لحيرته .. قال :

ـ أريد أن أعرف كل شيء .. سلبياته وإيجابياته , معه وضده , أسرار تألقه وأسباب انهياره .. الصراع بين الأشياء سيفضي إلى الحقيقة .. حقيقة أدركها جيدا حقيقة أدركها بنفسي ..

وراح يقلب صفحات كتب قديمة , وكتب حديثة .. ويصغي إلى واقعة .. إلى الضحايا والى خصومهم .. إلى أشد الناس أيمانا , إلى أشد الناس بعدا عن الأيمان بشيء ما وتوقف عند شخصية أيمانية وتاريخية تدعى (الصادق) .

عرف أن الصادق .. هو موسى بن جعفر , وقرأ السلام عليه .
عرف أن الصادق قضى (16) عاما في سجن إنفرادي في العصر الذهبي لهارون الرشيد .. عرف أن الرشيد تذكره بعد كل هذه الأعوام فأرسل في طلبه .. وفـي نفسه أن يعفو عنه .
ـ ألا تطلب العفو يا جعفر ؟
قال الرشيد وهو في مقعده الوافر البهاء .. أجاب جعفر وهو يـئن مـن وجـع وشيخوخة مبكرة , وقناعة بما كان يعتقد , ويختلف فيه عن الرشيد :
ـ لن ينقضي عني يوم من بلاء, حتى ينقضي عنك يوم من الرخاء.
وسحرته العبارة .. وراح يبحث عن صدق الصادق .. متخليا عن كل مـا قـرأه عن الأزمنة الزاهية والليالي الملاح للرشيد وعصره الذهبي المذاب ..
وتنبه إلى ما خلفه معاوية .. في كتب التاريخ الأحادي .
قرأ أن (النزال بن عامر) أراد قتله ولم يفلح .. عندئذ أنتقم معاوية لنفسه بأن :
نزع لسان النزال .. وقطع يداه ورجلاه .. فمات .
سأل نفسه :
ـ هل سأل معاوية نفسه .. لماذا أراد النزال بن عامر قتله .. ثـم, أن النـزال نفسه كان سيمثل بجسد معاوية لو أنه تمكن من ذلك؟
وتوقف عند شخصية مضيئة في قلبه وذاكرته .. شخصية : عمرو بن العـاص وعجب لما قيل عنه من نبل وما قيل عن فعلته .. واحتار في أمره .. سأل نفسه ثانية :
ـ هل يمكن لعمرو بن العاص أن يقتل : محمد بن أبي بكر الـصديق , مقطعـا جسده وهو حي , مدخلا هذه القطع في جوف دابة بعد حشوها من دبرها .. حتى يبر بقسم كان قطعه .. أمام جيش من المسلمين بلغ تعداده ستة آلاف رجل وقد شاهدوا بأنفسهم تنفيذ هذا القسم !؟
وقرأ عن المنصور .. كيف قطع أطراف أبن المقفع قطعة .. قطعة وجعل يشويها بالنار أمامه ويلزمه بأكلها ..

ثم ألم تتحول غلظة المنصور القائلة :" إذا مد عدوك إليك يده فأقطعه أن أمكنك , وألا فقبلها " . إلى حكمة مشهود لها بالكمال ؟

وصلاح الدين بكل .. ما تفخر عنه كتب التاريخ , لم يحتمل رأيا للسهروردي .. فقتله شر قتلة .

ويذكر أن عامان مزهران من حكم عمر بن عبد العزيز , مـلأت الـدنيا عـدلا ونزاهة وبرا ..

وكانت حكمة النبي محمد (ص) تقول بإعطاء " المؤلفة قلوبهم "/ وهم الكفار أو الذين كان يعلم جيدا أنهم يؤمنون برسالته مطلقا .. ومع ذلك شملهم بالزكـاة .. فهم بشر , وخالقهم الله الذي يؤمن محمد (ص) بوحدانيته .

والإمام علي .. ألم يرفض القتل والتمثيل بعبد الرحمن بن ملجم الذي طعنه حتى الموت ؟

صور .. صور, وأحداث دامية , ووقائع مضيئة , وأزمنة صدئة , تقابلها أزمنة مشرقة .. رجال جبلوا على الشر , رجال ابتكروا سبلا شتى لفعل الخير ..

فأين يقف أمام هذا الكم الهائل من منطق الأشياء وضدها .. أين يمكن أن يجـد لنفسه مستقرا , وهل بوسعه الوقوف عند اختيار يقر بصوابه ؟! أختار أن يقرأ عمودا في صحيفة يومية .. تنبه إلى أن عيونا كثيرة ترصده وهو يقتني جريدته اليومية الأثيرة , وهو يجلس في مقهى معين , وهو يتناول شايه , وهو يـصعد سيارة , وهو ينزل سيارة .. وهو يأكل لفة فلافل , وهو يضحك , وهو يتحدث إلى آخر , وهو يمشي على رصيف , وهو يبعد عن عينيه ذبابة..

وبات يحس بمن يراقبه وهو ينام ,وهو يستيقظ , وهو يعمل في البناء , وهـو يدرس في المساء..

أدرك أن قرأته العمود الصحفي تثير الانتباه .. وألا لماذا هذا العمود دون سواه , ولماذا هذه الصحيفة المنتقاة دون سواها ..؟

هل كانت الجريدة تصدر علنا حتى تكون فخا , يمكـن بواسـطته مراقبـة مـن يشتريها هل كان اختياره أن يقرأ ذاك العمود الصحفي بعينه في المقهـى حـال جلوسه .. يعني انه يؤمن أيمانا مطلقا بما يقوله كاتبه ..؟

لا يعرف من يكون (أبو سعيد) هذا الذي يقرأ سطوره كل صباح .. لكنه يعرف انه يصل إلى قناعة , إلى حقيقة , إلى إمساكه بقلب المشكلة , ومناقشتها بشكل هادئ ومفهوم وممتع.

لم يفعل (أبو سعيد) أكثر من هذا .

لم يفعل هو أكثر من قراءته .. العمود الصحفي هذا ..

وهذا .. هذا يؤدي إلى المعرفة , والمعرفة تؤدي إلى الضد , وكل ضد .. عدو , وكل عدو ينبغي أن يقاد إلى النار !

غابت جريدته ذات صباح .. وغابت في الصباحات اللاحقة .. لا جريدة بين يديه , ولا عموده الذي اصطفى قراءته .. غابت صباحات ارتياحه وشايه ومقهاه .. ومع ذلك ظلت العيون ترصده .

كان يخاف من الرصد .. الرصد مهنة كل الصيادين , وهو لا يريـد أن يكـون فريسة جاهزة للصيد ..

ضيع نفسه في حي أخر .. ومكانه في المقهى فارغ .. وشايه بـارد , وأيامـه مسكونة بالقلق والحذر والترقب .. عاد إلى كتب قديمة وحديثة .. يقرأ أعماقها , يبحث عنها في مكتبة عامة ولدى نفر محدود من الأصدقاء ..

أيام عمل قليلة , وبطالة تنوء بالجوع , والطرق مسدودة .. وسبل الخلاص من ثقل أيام شباط شديدة الوطأة عليه .. حد الاختناق .. والموت محفوف بـالبراءة .. موت سهل .. ونهايات سريعة , وشك دائم وأجواء يشوبها التوتر ..

ويأتيه النبأ مهموسا .. (أبو سعيد) مات .. مات (أبو سعيد) .

ـ كيف ..؟

ـ نشروا له رجله لآلة حادة .. الآلة الحادة صدئة .. أمهله الصدأ أياما .. فقد رصف الحروف في المطبعة .. وحروفه خالية من الصدأ .. وكتب حـدائق مـن الكلمات التي لا تصدأ...

قال شاهد عيان .. أنه رأى آخر معلق من يد واحدة .. مثل ذبيحة . لـم يكـن الشاهد يعرفه لكنه وجد اليد الثانية مقطوعة .

أحس بطعم الوجع , بألم الأطراف وهي تقطع .. وهي تبحث عن أصلها , هـل تنبت الجذور أطرافا أخرى .. كما أغصان الأشجار ؟

استعاد الصور والوقائع التي قرأها .. تساءل :

ـ لماذا لم يخلق الإله كل عباده : بعقل واحد , بقلب واحـد , بـشكل واحـد . بإحساس واحد , بدم واحد .. حتى .. حتى يعيشوا في بلد آمن .

وجاءت أسئلة لاحقة :

ـ البلد الآمن .. لغته واحدة , قوميته واحدة , ثرواته واحدة , انهره وبحـاره وجباله وسهوله وحدائقه وعادات وطراز أهله واحدة , دينه واحد .. ليل واحد , لنهار واحد .

قال عن إصرار ونباهة وقناعة :

ـ الإله .. لا يستنسخ البشر .. الإله .. ألقى البذرة , وجعلها تنبت على وفـق الأرض والجو .. على وفق ما تراه .. وما تفكر به , وما تستدل عليه , وتعيـه وتسير على هداه .. وخلص إلى نتيجة مفادها :

ـ (أبو سعيد) كتب بحبر من دم . و(ابن المقفع) أرسله كتابه (رسالة الصحابة) إلى سياف لا يتقن القراءة .. و(عمر بن عبد العزيز) أحتكم إلى النقاء الذي فيه . و(محمد النبي) ما كان بهذه القدسية لو لم يعرف فن محبـة النـاس .. و(علي) لم يكن عليه السلام بكل هذا الخشوع .. لو لـم يـرأف بخـصومه .. الخصم إنسان , والإنسان من بذر الإله .. يقول:

ـ تشيخ أزمنة .. تجيء أزمنة وتمتد الطفولة لتأخذ مساحتها .. بهية صـدئة , دامعة ضاحكة . متفقة , مختلفة ..

ويبقى معلم التاريخ .. ومضة في الذاكرة .. تشع من خلالهـا حقـائق , تـدفن حقائق .. و ..تتجاسر الأزمنة على البقاء .. على الرغم من كل شيء .

ويستسلم للنوم .. يلقي على الوسادة رأسا ضاجا بالرؤى والأفكار والأحلام .

طلاء فاسد

استيقظت على طرقات الباب الخارجي .. فزعا ..
ففي مثل هذا الوقت المتأخر من الليل الشتائي لا يمكن لأحد أن يدق بابي الا لأمر جلل .
واستيقظت زوجتي وأطفالي في تلك الساعة .. والخوف ينتابهم والشحوب على وجوههم والبرد يتسلل إلى أجسادهم ..
سألت عن الطارق .. وأنا في وضع قلق ..
فتحت الباب وجدت ثلاثة رجال ينتصبون أمامي والرعب ينتابهم ..
ـ خير .. خير أن شاء الله
قال احدهم :
ـ أي خير .. مدير عام المستشفى يطلب حضورك حالا .
ـ وماذا يريد مني ؟.. أنا لست طبيبا ولا ممرضا ولا علاقة لي بوزارة الصحة !
ـ الأمر أهم من هذا ؟
ـ مهما يكن الأمر .. مدير المستشفى لا سلطة له علي ..
ـ ولكنه يمكن أن يتصل بمدير الشرطة لاعتقالك وإحضارك فورا .
وانتابني الخوف .. فأنا لا أعرف من هم هؤلاء الذين جاءوا لأخذي في هذا الليل العميق .
ـ ومن أنتم ..؟
ـ لا تخشى شيئا .. نحن موظفون خفراء في المستشفى .
واعترض احد الثلاثة :
ـ بل أنا الطبيب الخافر في المستشفى .
ـ وما هي علاقتي بكم وبصحة المدينة .. أنا مجرد رسام .
ـ نحن لا نحتاج إلى أطباء , بل إلى رسام ..
ـ وفي هذا الليل ..
ـ في هذا الليل تماما يجب أن يبدأ العمل, ليكمل عند الصباح .

.. بقيت حائرا, وزوجتي تسألني .. ماذا في الأمر .. وأطفـالي يحيطـون بـي ويرتجفون .. والخوف ينتابهم .

قلت :

- وما رأيكم لو رفضت المجئ معكم ؟

- ستكون العاقبة وخيمة عليك وعلى المدير العام .

- أذن هو يريدني لمساعدته ..

-.. ومكافأتك ايضا ..

- وأنا لا أريد المكافأة .. أريد أن أنام .

- بل ستأتي ..

خاطبني احدهم بطريقة خاسمة تنم عن تهديد .

- الأمر إلزامي أذن ؟

- إلزامي ويجب أن ينفذ .

ولكنكم لا تمتلكون صفة قانونية لإكراهي على المجيء معكم !

- أردنا اختصار الطريق .

- ماذا تعني باختصار الطريق ..؟

- كان بامكاننا الاتصال بمدير الشرطة لاستدعائك بالحضور فورا غير أننـا لـم نكن نريد إزعاجك .. فأنت فنان مرهف الحس .

وطمأنتني العبارة الأخيرة بعض الشيء .. وأن كنت في حال ذهول طويلة الأمـد .. ويشاركني فيها أطفالي وزوجتي وبسرعة وجدتني ارتدي ملابـسي والتحـق بالثلاثة .. وفيما كنت أقرأ الخوف والدهشة والبرد في عيون من أودعهم كانـت سيارة الإسعاف تحملني وتسرع مطلقة صوت الإنذار ..

وصلت مستشفى المدينة .. وعلى بابها كان المدير العام يسرع لفتح باب سيارة الإسعاف بنفسه .

كان في حالة قلق وتوتر .. وقبل أن أسأل , خاطبني قائلا :

- الصورة .. الصورة لقد تشوهت بعد أن سقطت عليها أمطار بالأمس وعليـك إصلاحها فورا..

ـ ولماذا .. فورا الصباح رباح كما يقولون ..!

ـ أي صباح .. في الصباح سيزورنا وزير الصحة وعندما سيرى الـصورة .. سيخرب بيوتنا ..!

عند هذا الجواب اطمأن قلبي .. وأحسست بأن الدماء التي احتقنت فوق وجهي قد عادت إلى انسيابها .

ـ قلت وأين الطلاء وأدوات الرسم والسلم ..

ـ كل شيء جاهز .. كل شيء جاهز .. ما عليك سوى أن تبدأ فورا ..

ـ الساعة الثالثة يا دكتور .. والرسم يحتاج إلى ضوء ..

ـ قلت لك كل شيء جاهز .. كل شيء .

وأشعل ضوء قوي وامتد السلم الخشبي وامتدت يدي إلى الألوان .. وامتد الحزن إلى كياني .. امتد غضبي إلى داخلي , وأحسست بان أصابعي تجـف وتـرفض الحركة .

مزجت الألوان ..

الألوان ترفض الانسجام مع بعضها .. كان الكل يرقبني .. ويسعى لمساعدتي من اجل أنجاز العمل في أقرب وقت ..

كان الليل ينام .. ساكنا ألا من صوت حشرات وصوت ضـفادع آت مـن بركـة مائية قريبة ..

والبرد يغمرني بينما صاحب الصورة يبتسم كأنما يسخر مني ..

لا وجود للكلام .. حركات عاجلة حسب ..

وفجأة مزق سكون الليل صوت نحيب ..

ـ ماذا ..؟

ـ دكتور المريض الراقد على سرير 19 في حالة خطرة فقد أعطيت له أدويـة فاسدة ..؟

ـ عالج الأمور بنفسك .

خاطب مدير المستشفى الطبيب الخافر وانصرف متوجها نحوي .. والتفت إلـى المدير ..

ـ دكتور للأسف هذه الأصباغ غير صالحة للرسم ..

ـ لماذا ..

ـ أنها فاسدة ..

ـ أنا أعرف بان الأدوية يمكن لها أن تفسد .. لا الأصباغ . الطلاء لا يفسد ..

ـ بل يفسد يا دكتور ..وأنا لا أستطيع العمل بألوان فاسدة .

ـ.. أذن استخدمها لطلاء الصورة .. طلاء بلون واحد فقط .

ـ دكتور .. هذا طلاء فاسد ..

ـ عالج الأمور بنفسك ..

ـ دكتور أنا لست الطبيب الخافر .

ـ أعرف .. أعرف .. مهمتك في هذه اللحظة أهم منه بكثير ..

حدقت في وجه المدير ـ الدكتور كانت بي رغبة ملحة لأن أصفعه .. رأيت في عينيه رعب الموت .. فأشفقت عليه سألني بحيرة :

ـ وماذا نفعل الآن ؟

ـ نحن بحاجة إلى طلاء سليم ..

وكنت أريد أن أقول له نحن بحاجة إلى دواء سليم .

ـ ومن أين نأتي بمثل هذا الطلاء ؟

.. وفي هذه اللحظة وصل الطبيب الخافر .. قال :

ـ لقد مات المريض في سرير 19 لإعطائه دواء فاسدا .

انصرف المدير عنه وكأنه لم يسمع شيئا .. خاطبني ..

ـ الآن .. ماذا نفعل ؟

قلت بحزم :

ـ لابد من إزاحة الصورة .. فقد ألحت عليها الأمطار .. وحدقت في السماء ..

كانت الغيوم تتجمع .. والمطر على موعد ..

كانت كل الوجوه تترقب المطر .

للشاي مذاق الموت

مبتسما دخل الوزير إلى غرفتنا.. مبتسماً على غير عادته التي ألفناها، فاستبشرنا خيراً ورحنا نعلق آمالنا في وجهه ونبارك الابتسامة، كنا نعرفه غاضباً متوترا، عصبي المزاج، ولم نره بهذا الهدوء ولا هذه الابتسامة الرقيقة النابتة فوق شفتيه.

اعتدنا ألا ننظر في عينيه

اعتدنا أن نسمع وننفذ فقط.

اعتدنا أن نقول (نعم) دائما.. ولم يتجرأ أي واحد منا على النطق بكلمة (لا) التي حذفناها منذ سنوات من قاموس الكلمات. اعتدنا أن نراه بملابسه الزيتونية، وعصاه في يمينه، وسلاحه اليقظ في وسطه و في حالة استعداد تام.. وحوله جمع من السلاح البشري الذي يوجه نظرات اتهام إلى كل منا.

اعتدنا أن نخاف دائما.. حتى بات الاطمئنان في حياتنا حالة نادرة لم نكن نطمئن إليها، ولا نقر بوجودها، كأن الليل يتسلل إلى كل نهار يمر بنا، كأن الخوف يسهر معنا، كأنما يهددنا بالموت إن لم نخف.

اعتدنا ومن يعتاد على شيء يطمئن إليه.. إلا نحن.. نحن الذين نخاف من خوفنا.. نخاف ألا نخاف.. نخاف إن لم نخف.

لذلك.. كانت الابتسامة التي أحسسنا بها ولم نجرؤ على رفع وجوهنا لمشاهدتها، حالة نادرة..، حالة استثنائية.. حتى أن البعض منا فكر أن يزيد من ابتسامته ليصل إلى فعل الضحك، وذلك انسجاما وتكريما لابتسامة السيد الوزير التي تجاوزت بكثير من البراعة والأناقة الابتسامة المتألقة التي عرفت عن (الموناليزا) ، إلا أن الجميع كان حذرا من هذا الطراز، من المودة الزائفة.. واكتفى الكل بابتسامة فيها قدر واضح من التكلف.. وبدت كأداء ممثل فاشل طلب منه المخرج أن يبتسم فابتسم كمن ينتحب، أو يغصب فرحا لا يجيء أبداً.

ابتسمنا.. كان لابد أن نبتسم وجدنا الابتسامة على وجوه جافـة مدججـة بالسلاح، تجاوزنا كل خوفنا و ابتسمنا.

ابتسمنا خوفاً وطاعة واحتراما إلزاميا للسيد الوزير ومن معه.

نحن ملزمون أن نبتسم.. فالسيد الوزير نفسه يبتسم.. فهل بمقدور أحـد أن يكون ولا يبتسم؟

البعض ضحك من خوفه، وكتم ضحكة ألمه وحزنه وخوفه وكان حذراً في زرع ابتسامة بحجم المستوى المطلوب.

البعض منا دارى البكاء الشاق والمحنة الصارمة بابتسامة.

البعض قدم ابتسامة بلهاء.. لا تصدق كل ما كان يجري.

ابتسم السيد الوزير.. وابتسمنا معه، عندما سمعناه يسأل واحدا منا:

- أكيد أنك لم تشرب شاي الصباح

لم يكن هناك جواب.. ومضى الوزير في حديثه:

- الوزير يأتي قبل المهندس في المصنع

وظل الصمت ضاجاً

- انطق

صرخ السيد الوزير، وتحولت ابتسامته إلى جمرة غضب.

- سيادة الوزير.. خمس.. خمس دقائق انتظرت الشاي.. ثـم ركضت إلى سيارة الخط فإذا هي قد ذهبت على مرأى من عيني.

عاد السيد الوزير إلى ابتسامته.

- لم تشرب الشاي إذن.. حسنا.. أعدوا له إبريقا من الـشاي في الحال.

وراح السيد الوزير يراجع مجموعة من الأوراق الموضوعة على منضدة قريبة منه.. لم يقل شيئا، وإنما اختار عـدة أوراق ووضـعها جانبـا، فخـشي البعض.. وسر البعض.. وما بين الخوف والمسرة، كانت تلوح في الأفق مكافآت وعقوبات لا يعرف احد منا ايهما سينال.

جاء إبريق الشاي ساخنا.. بخاره يعلو ويترك دفئا في المكان القريب

- ها.. الشاي جاهز
- نعم.. نعم يا سيدي
- هل هو ساخن.. ساخن جدا
- ساخن يا سيدي.. ساخن جدا..
- إذن.. هيا دع المهندس يشرب إبريق الشاي كلـه.. هيـا.. اسكبه في فمه.

أصبنا بالوجوم والبلاهة والرعب.. رعب حقيقي لم نألف مثيلا لـه مـن قبل.. فتحنا كل عيوننا إلى منتهاها.. ولا نريد أن نصدق ما ترى.

كلنا كنا نسأل السؤال نفسه وداخل صدورنا.. نقتل السؤال عندما يصل حد الشفتين.

ضج الصمت.. صار مدويا.. صار كتلة من نار ورهبة.

- هيا نفذ.. أعطه الشاي..

وتقدم أربعة إلى المهندس يمسكون به ويفتحون فمه، فيما تقدم خمـسة من حامل إبريق الشاي وهم يوجهون أسلحتهم إلى رأسه.. صاح به أحدهم:

- هيا.. نفذ أمر سيادة الوزير.

حدقنا في المهندس، كان وجهه قد جف تماما، تيبس.. لم تعد تجري فـي تقاطيعه قطرة دم، كان صوته قد إحتبس تماما من هول ما يرى.. كأنه لا صدق ما يجري، كأن الصوت لا يسعفه، كأن الاحتجاج لا قبل له عليه، كأن المـستحيل قد سبقه إلى الموت توسل وجوهنا على عجل، توسل وجه السيد الوزير.. كانت وجوهنا تبدو جبانة وتافهة وملعونة أمامه، كان وجه الـسيد الـوزير يبتـسم.. وعلينا أن نبتسم معه..

- هيا..

وجه الوزير أمره الصارم إلى حامل الإبريق.. دفعه احد الحراس بفوهـة البندقية. كانت يداه ترتجفان.. ووجهه مشنوق من زرقته..

كان فم المهندس مفتوحاً بكامله.. لم يعد هناك احتمال لفتحة أكبر.. ومع ذلك كان الحارس يبذل جهده للمزيد.

تقدم حامل إبريق الشاي.. هذا الإبريق يتوجه إلى فم المهندس، يميل إليه .. ثم .. ينسكب في الفم.. هكذا يندفع دفعة واحدة، ويملأ الفم. ويسيح على الوجه.. الشاي اللاهب في العينين، في الأذنين، في الأنف، على الشاربين على الذقن.. على الرقبة.. على الرأس كله.. والموت يعجل هكذا يعجل.. لا مجال للسيد الوزير للانتظار أكثر من ذلك. المشهد يثير ابتسام السيد الوزير.. المشهد لابد أن يثير ابتساماتنا كذلك.. لا أجمل من ابتسامة السيد الوزير.. ونبتسم.. فيما يظل فم المهندس مفتوحاً.. وجثته مهملة على الأرض الباردة.. والوزير يبتسم.

والحراس يبتسمون، ونحن نبتسم، وشاي الصباح يصبغ الأرض ومن ثم يجعلنا نحس بمذاقه.. للموت مذاق الشاي في أفواهنا.. للشاي المؤجل في ذلك الصباح الشاحب.. مذاق نحس به قبل أن نلمس القدح.. قبل أن نفكر في حمله للفم.. صارت الأفواه ترفضه.. صار الشاي مقترناً بالحرقة بالموت.. بأننا نمسك أقداحاً تقتلنا. هل نمسك بأقداحٍ تقتلنا.. هل نشرب نخب شاي الموت؟

للموت طعم الشاي.. للشاي طعم الموت.. لأول مرة نحس بالموت.. يجيء في قدح الشاي، لأول مرة ندرك أن الموت موجود، يلاحقنا في جلسات الشاي، في مذاق الشاي.

قررنا جميعا أن نعزف عن شرب الشاي.. قررنا ألا نموت.. قررنا ألا نذكر كلمة (الشاي) على أفواهنا.. لأننا بلا أفواه أصلا.. افتقدنا أفواهنا منذ ذلك الصباح..

ومنذئذ ونحن نعيش بلا أفواه.. ونبتسم كلما زارنا السيد الوزير.

بغداد. شباط 1998

موت وسعة المدى

لم يكن خائفاً، كما لم يكن نادماً على ما فعل.. ولكنه في حالة قلـق دائـم، ومشروع موت دائم، وعذره أن في أعماقه تكمن حقيقة بيضاء ترفض أن تظـل في دور الكمون والسكوت والتخفي والسبات والكتمان إلى الأبد.

شريطان على الكتف.. لا يعنيان شيئاً، ولا يفكـر أن يجعـل مـن الرتـب العسكرية اللاحقة مهما ارتقت مكانتها وتألقت نجومها وتيجانها أن تعني شـيئاً عنده. المظهر لا يشغله.. ولا يباهي نفسه بملابس عسكرية يصدر أوامره مـن خلالها. كان يرى أن المظهر يفترض له أن يكون في موقع موازٍ لما هـو فـي الداخل. وإلا ما معنى أن يكون إنساناً محترماً بين أهله وأصدقائه ومحبيه؛ فـي ما يجد نفسه في حالة ذل وقهر وانكسار أمام من يرفع على كتفه شريطاً ثالثاً.. وفي موقع السيادة أمام من يرفع فوق كتفه شريطاً واحداً.

كانت كلمة (سيدي) التي يخاطب بها كل عسكري يرقى في رتبتـه عنـه.. شاغلة سلبية في حياته.. حتى لتمتحن فيه إنسانيته.. يتساءل:

- إذا كانت المسألة تتعلق بسيادة الوطن والحفاظ على أمنه واستقلاله.. فلماذا تكون هناك حالات من التقاطع التي تظهر جلية بـين (الـسيد) و(العبـد).. وكلاهما يقفان أمام الرب سوية، وفي الواجب الوطني يقفان في خندق واحد وتوجه واحد وهدف واحد..؟

كان يسعده الجلوس مع رفاقه مصغياً ومتأملاً ومتسائلاً في آن معاً، ومـع شخصيات ترقى في وعيها وشهاداتها ومراتبها الإجتماعية والـسياسية عنـه.. لكنه يظل في موقع مطمئن إلى أن يجلس باسترخاء وارتياح تام وثقـة عاليـة، وهو يتحدث كما لو أنه في حوار مع نفسه.. ومسؤولية ذاته.

هذا التباين في العلاقات ومتغيرات الأحاديث في موقعين مختلفـين.. بـين السيد والعبد، والسيد والسيد.. وسيادة النفس على النفس.. سيادة انتباه وحرص واطمئنان؛ وجعلت نائب العريف حسن.. يحسن مواجهتها بشيء مـن الحـذر.. وأشياء كثيرة من الوعي والحزم في البحث عن بدائل.

بدأ العمل بكلمة همس: - أرجوكم.. لا يخاطبني أحد بكلمة (سيدي).. لا أريد أن أمارس سيادة على أحد، ولا يسعدني أبداً التعامل مع عبيد يـسيرون تحـت إمرتي.

- هذا قانون العسكرية.. سيدي.

خاطبه أحد الجنود الذين التحقوا بالجندية حديثاً.. وتساءل آخر:

- سيدي.. وأنت كيف تخاطب الضباط دون كلمة سيدي؟

صمت قليلاً. وحدق في وجوه الجنود.. وهم من الشبيبة التي كانـت مثـل فراشات تتنقل بين الدفاتر والحدائق وأفلام السهرة.. فإذا بهم ينتقلون الآن بـين البندقية والموضع ونظام الإستعداد الحازم وصمون العسكر.. قال:

- تعالوا نتفق.. نحن أصدقاء ما دمنا معاً، وأمام الضباط، هناك فوارق: جنـدي ونائب عريف و.. كل هذا في المعسكر.. وفي الخارج نحن.. نحن أصدقاء.

- نعم.. نعم.. سيدي.

ضحك وضحكت الشبيبة التي أضاءت شواربها الفتية..

وصار مدى المحبة يكبر، والثقة تكبر و.. الإطمئنان لا وسـع لـه، وقـد حرص نائب العريف حسن على استثمار هذه المحبة والثقة والإطمئنان في تعزيز ما كان يشغل ذهنه، ويعجل في تنفيذ هذا الإنشغال الذي بدأ يتفاعل ويزدهر بين رفاقه وهذه الرؤوس التي تستقبل كلماته.. كما لو كانت صادرة من الآلهة.

كانت الكلمات التي يتحدث بها هادئة تارة، منفعلة، مشدودة تارة أخـرى.. وكانوا يحسون بألفة معها، مثلما يحس هو بألفة متبادلة معهم ومع أصـحابه..

ممن يرتقون عليه بمعارفهم وتجاربهم ومرارات أزمنتهم وهـم يبحثـون عـن حدائق من الأمن والعدالة والرفاهية..

إلا أنه قد يجد نفسه أحياناً في حيرة من طروحاتهم، وكبرت الحيرة لتصبح شكاً فتساؤلاً فتجاوزاً فتمرداً..

من هنا.. أخذ يتنبه إلى حقيقة وحيدة وهي أن يـصنع شـيئاً.. وصـناعة الحكمة يفترض أن تكون قائمة على وعي تام، وإخلاص عميق، وفدائية لا حدود لها.

واجه حالة من الإرتياب وهو يعلن عن أفكاره. إتهموه بالعجالة، والإندفاع غير المسؤول.. وتحول الأمر إلى خوف منه وله وعليه.. هذا الخوف المريب.. واجهه نائب العريف حسن.. بحرص أكبر، بتفهم واسـتيعاب ودرايـة.. وحـزم كذلك. وتحدث إلى نخبة إصطفاها من زملائه ومن الجنود الـذين كـانوا تحـت أمرتهم.. يدربهم على ما تفعله الأسلحة من شؤون وشجون. قال:

- هذه البندقية.. يمكن أن تزيل ظلماً، أو تديم ظلماً.. والفرق واضح بين الإزالة والإدامة.. كما أن لكل شيء ثمنه.. إزاحة الظلم تعني التضحية.. تعني اختبار التحدي.. تعني الموت. تنقل في الوجوه.. واحداً، واحـداً.. وجـدها أبيـة، صارمة، مشدودة.

وأكمل حديثه:

- و.. الدفاع عن الظلم، حمايته، والتستر عليه، مهمة مـن شـأنها أن تـضع صاحبها في موضع الرفاهية والغنى وتأخذ صدارة الموقع.

كانت الوجوه هذه المرة قد تحولت إلى بؤر ترى.. عيون سحرية ترسم كل الإحتمالات. ترسم راية بيضاء مثل حمامة وسعها سماء مفتوحة، مثلما ترسـم كفناً أبيض شد من العنق ومن القدمين.. ترسم قطـرة دم، مثلمـا ترسـم وردة

عشق حمراء.. حمراء. ترسم (الحاء) حباً و(الحاء) حرباً.. وما بين الحب والحرب مسافة الإختيار.

كان حسن قد اختار في قرارة نفسه أن يكون كما شاء أن يكون، لا كما يشاءون له أن يكون..

لم يكن يريد أن ينتظر أكثر.. الإنتظار إن طال، رسخ الغياب، وأدام الضد.. وابقى على الجراح حتى تختزن مزيداً من الأذى. والإنتظار إن طال، تكاسل وتمطى وراح يؤجل بعضه البعض الآخر.. حتى يتلاشى.

قالوا له: إنتظر. المسألة مرهونة بقوى مساندة، ورغبة في تغير تدريجي.

قال: من يقف إلى جانبك.. يبحث عن حصته من البيدر، ومن ينتظر أن يتحول الظلم إلى عدالة، كم من ينتظر القمامة أن تتحول إلى أزهار يملأ عطرها الزمان والمكان.

تنبهوا إليه وهو يمتلك إصراره وقناعته ودرايته وصلابة إرادته واندفاعه الحار الذي لا يخشى من عواقبه.. سألهم.. سأل جمعاً من رفاقه:

- هل تنتظرون إعدامهم.. إعدام هذه النخبة الخيرة التي بنت نفسها على الزهد والحق والتطلع إلى مستقبل سعيد..؟

ما الذي يحول دون إعدامهم.. من يضمن سلامتهم، وهم في قبضة الظلم.. محاصرون في السجن رقم (1).. السجن الواحد، سيتحول إلى أرقام لا نهاية لها.. مثلما لا نهاية للظلم. كل نار تحتاج إلى وقود.. كل وقود يصبح رماداً.. الرماد يتلاشى.

- نحن لا نريد أن نعطي المزيد من التضحيات.

- نحن نضحي بغابة من أشرف وأنبل وأخلص الرجال.

وجد الصمت.. يترك ضلالاً حائرة على الوجوه.. واصطفى وجوهاً تبـارك، وأخرى تتحدى، وثالثة حائرة بين الإرتباك والمباركة، بين الخوف والتحدي، بين أن تكون أو تتلاشى.. وتكون في قوائم الموت المنتظر.. سألهم:

- هل سنبقى في حالة انتظار لخارطة يرسم وجه انتصارها.. الآخـرون..، أم ننتظر حتى يذوب جبل الملح.. لنداوي ونطهر جراحاتنا..؟

تنبهوا إلا أن نائب العريف حسن.. كان يتحدث بطلاقة، بكلمـات مملـوءة بالثقة والحجة والثبات والنباهة..

لم تكن لغة فلاح تحاصر مساحة أرضه الصغيرة، ظمأ الصحراء، وامتدادات الهور.. وتقاليد.. المقدسات الدينية، وحلاوة النخيل، وجمع الرجال ومـساحات من الوجد والأمية وشغف البحث عن أفق ما..

تنبهوا إلى هذا الفلاح/ العسكري.. بات يفكر بطريقة تسحرهم، تشحن فيهم إرادة الأسئلة والرغبة الملحة في اتخاذ قرار أكثر صلابة، حد الحسم.

كانت بهم رغبة إلى الحسم. كانت فيهم رغبة أن يكونوا مثله، في خندقـه، في قراره المستقر. أصغى إليهم.. لم تكن لإصغائه جدوى.

بحث عن جدوى الإصغاء إليه في: جنـدي ممـرض، عريـف مـسيحي، إسكافي، عامل بناء، كردي، عامل كهرباء، عاطل، خادم وزيـر سـابق، نائـب عريف من جذر وطني، بائع شاي، من جنود جاءوا من: السليمانية، الموصـل، ديالى، الناصرية، بغداد..

كان حسن.. فرحاً بهذه التعددية، وهذا الإختلاف القوي والطائفي والفكري والمدائني كذلك.. إختلاف متفق، واتفاق مختلف.. لا يذوب الكل في الواحد، ولا يصهر الواحد.. الجماعة. إجتمعوا. وضعوا في البدء كلمة (الموت) أو (الحيـاة) وليس من وساطة لكلمة بينهما. تقدموا في قلب الفجر. كان تموز يقطر نـسائم

ناعمة ويحلو النوم تحت سماء بغداد.. لا وقت أعذب من هذا الوقت في أوقـات تموز البغدادية..

كان حسن قد سلم ما بذمته من سلاح إلى مسؤوليه ولـم يعـد بذمتـه أي سلاح. فكر أن يقتل حارس بوابة المعسكر ويأخذ منه سلاحه. فكر أن الحـارس بريء.. فلماذا يقتل براءة ويندم..

تقدم بهدوء، وجد الحارس يقاوم كابوس النوم الذي أثقل على جفنيه.. رأى بندقية الكلاشنكوف نائمة على كتفه. وقد تخلت عن مهمتهـا.. وأخلـدت إلـى النسمة الفجرية..

فجأة.. أخفى حسن (بيريته) ومد سبابته في ظهر الحارس، وهتف به:

- سلم سلاحك.

لم يكن بمقدور الحارس أن يلتفت، كما لم يكن بوسع البندقية أن ترفض أو تعلن عن مهمتها. كان قرارها أن تستجيب إلى السلام على غير عهدها.

أمسك حسن البندقية، وأمرها أن تستيقظ، فقد أذنت لحظة الوضـوء، وآن وقت الخشوع المقدس..

تنبه بقية الحراس. كانت يقظتهم متأخرة.. فقد أمسك الجمـع بالمهمـة.. وانتقل آخرون لأداء مهمات أخر..

كانت المهمة الأولى التي رسمت رؤوسهم خطتها تعتمد على التوجه إلـى السجن رقم (1) وكسر قضبانه والإنفلات من وطأة جدرانه..

عمت معسكر الرشيد الفوضى. ثمة أسلاك للهاتف تقطع، وأخرى تغيب عن البال وعن العين.. وتمتد مثل حبال الموت..

كان الوقت يسرع، وكان حسن سريع يسرع، وكان الصبح يتخفـى بلـون رمـادي ويكـشف عـن شـيء مـن الـرؤى المعلومـة والمجهولـة معـاً. إستيقظ الصبح على أصوات رصاص ينطلق من هنا وهناك.. وثمة صـدام حـاد

أمام قضبان السجان.. من حسن سريع وصحبه، من السجناء في الـداخل، مـن حراس السجن، ومن الآتين الذين وجهوا دباباتهم.. وراحوا يطلقون، يسحقون.. يزيحون كل شيء أمامهم. كان حسن يتحرك بعدة اتجاهات.. لا يعرف إن كانـت الحرارة التي اشتعلت في جسده من فعل رصاصات اخترقت جسده، أم من فعـل الإرادة التي راحت تقتحم وتتقدم.. حتى وجدت نفسها في طوق مـن الأسـلحة والعيون القاسية.

سألوه.. من يكون، ما هي رتبته.. لم يصدقوا ما يرون،، لم يـصدقوا مـا يؤكد الذي يرونه. ما يرونه ليس بوسعهم الإقتناع به.

- أنت.. النائب العريف، الهزيل الجسد.. يتجاسر على التمرد.. على رؤسائه.. على كل أسلحتهم.. أنت.. تريد أن تكون رئيساً.. من معـك، مـن اسـتثمر جهلك.

أسئلة متلاحقة، لا تنتظر أجوبة.. ولا قناعات ولا رغبة أن تصدق ما حدث.

تركهم حسن سريع يسألون، يعجبون، يدهشون، يضربون.. يمارسون عليه نقمة وحشية لا حدود لها.. ولا تأذن حتى لسماع صوته.

تركوه لحظات.. تمكن من خلالها أن يجمع كل الأجوبة عن كـل الأسـئلة، قال:

- أنا المسؤول عن كل شيء ولست نادماً.

منحوه.. ما يمنحه الأغنياء للفقراء، رسموا له فردوساً، أعطوه بنكاً.. قالوا له: ضع المبلغ الذي تريد.. فكر يا حسن، لا تسرع إلى موتك هذه المرة.. نحـن من يمنحك الحياة كلها.. ولوحوا له بالمشنقة.. لاحت له شريطاً من حرير أبيض كما الملائكة.. وحقول مخضرة تملأ وجوده.. وعندما جـروه إليهـا، ووضـعوا الحبل في عنقه.. رأى ما لم يره أحد.. كانت هناك أسراب من حمامات بـيض..

بيض تحلق، وتعلو في سماء رحبة، بينما كانت غابات من النخيل تمتد وتطـول الأفق وإلى اللامنتهي.

2003/3/5

رئة الأرض

فوجئ بوجود القصر في المكان الذي إعتاد الجلوس فيه محـدقاً فـي النهـر والاشجار سأل نفسه إن كان قد توهم ، فربما كان للاعوام الخمسة التي إبتعـد فيها 00 قد اوقعته في النسيان الذي بات يعاني منه 00 ولكي يتأكد من معرفتـه بتفاصيل المكان ، سأل اول قادم التقاه :

- أليست هذه غابة السعادات ؟

أجابه الرجل بثقة :

- نعم هي غابة السعادات
- وأين أشجارها 00 اين النهر الذي يمر من وسطها ؟

ابتسم الرجل ، وانصرف على عجل 0

راح يحدق بكل شيء يحيط به 00

هذه أسوار عالية ، لايعرف ماهو الشيء الذي خلفها 00 هذه شوارع منسقة 00 هذه علامات تشير الى منع الوقوف منعاً باتاً 00 هذه كاميرات منصوبة فوق كل عمود كهرباء ، هؤلاء 00 مدنيون وعسكريون يعلنون عن اسلحتهم الجاهزة للاستخدام الفوري 0

خشي الألتفات ن أمره عسكري بالعبور الى الجانب الآخر من الطريق 0

في الجانب الثاني للشارع ، إستطاع رؤية القصر وابعاده 00 رصده مـدني سأله :

- ماذا تفعل هنا ؟
- أتنزه
- من قال لك أن هذا مكان نزهة 00 اعطني هويتك 0

حدق المدني بالصورة المثبتة في الهوية ، وحدق في وجهه 0 سأله ثانية :

- هذه الصورة لاتشبهك 0

- إنها صورتي 0
- من يقول ؟
- أنا 00
- من أنت حتى تقول 00 من يثبت صحة قولك !

إلتحق مدني اخر وثلاثة من العسكريين 00 قال احدهم :

- خذوه

اكد آخر :

- منذ نصف ساعة وأنا أرصده يدور في هذا المكان 00 ماذا تفعل هنا ؟

اجاب المدني :

- يقول انه يتنزه !

اثنى على هذه الاجابة :

- نعم 00 إنني اتنزه 00 أليست هذه غابة السعادات ؟

سأله اخر :

- هل ترى انها غابة 00 هل انت عاقل أم مجنون ؟

قبل ان يجيب ، كان عسكري اخر يفتش بدقة كـل ملابـسه ، ويـصل الـى الاماكن الحساسة في جسمه 00 كانت اللمسات عنيفة وقاسية أشبه بألخناجر الطاعنة في جسده 00 تقدم منه ضابط 00 حدق في جسمه وفي هويته :

- اتركوه ، يبدو انه مخبول 0

وتوجه اليه :

- سنتركك هذه المرة 00 وإياك ان تمر من هنا مرة ثانية 00 هل سمعت ؟
- نعم 00 اشكرك 00 نعم لن امر من هنا 00 هذه ليست غابـة الـسعادات إنني في وهم 0 اعذروني 0

دفع به الضابط الى زملائه ، دفعه هؤلاء ، سقط ، امسكوه كمن يمسك سـلة مهملات 00 إنصرف بسرعة لانريد ان نرى وجهك في هذا المكان مرة اخرى هل سمعت ؟ قالها الضابط بخشونة 0

إنصرف على عجل 00 كانت اقدامه واطرافه ترتجف ، حاول السيطرة علـى توازنه حاول ان يركض ، حاول ان يصرخ 00 إلاأن كل محاولاته كانت خائبة كانت كل الانظار تتوجه اليه وهو يبتعد 0 المدنيون والعسكريون إنتابهم قلق من ناحية وسخرية من نحية اخرى 00 إلا ان الضابط طمأنهم قائلاً

- يبدو أنه من اهل الكهف 00 لايعرف بما يجري 00 لايعرف بكل التغييرات التيجرت على هذا المكان 00 لايعرف ان الاشجار قطعت والنهر قد تغيـر مجراه 0

هزّ المدنيون العسكريون رؤوسهم معلنين عن موافقتهم لكـل ماقالـه 000 مضى الرجل غير مهتدٍ الى طريق 0

كان المطر خفيفاً فوق رأسه بحيث لم يحس بالقطرات 00 حتـى اذا زادت ، زاد شعوره بالراحة ، فقد وجد نفسه كمن يغتسل من إثم ، او يتخلص مـن شيء علق به 00 كان يريد ان يدرك ، وان يعي جيداً انه ابتعد عـن ذلـك المكان وعن تلك الاسئلة الصارمة وعن تلك الغابة السحرية التي لم تعـد إلا ذكرى من ذكرياته الكثيرة التي ينوء بها رأسه المشبع بـالمطر 0 تـسربت المياه الى قدميه 00 تسلل البرد اليه من أعلى ومن اسفل 00 لكنه ظل يمشي دون ان يفكر بالبحث عن مكان يأويه من إنهمار المطر الغزير 00 حتى إذا تعب من المشي ، توقف عند سقيفة قائمة على مفترق طرق ، وجلس هنـاك 00 اخرج علبة سكائره وعابة كبريتية ، فوجدهما قد تبللا 00 رماهما بعيداً عنه 00 احس بالجوع والعطش والتعب 0 حدق فيما حولـه ، وجـد عـدة اضوية هنا وهناك ، اراد ان ينهض بتجاه البحث عن شيء ياكلـه غيـر ان العتمة كانت قد تسربت سريعاً ، حدق في ساعته اليدوية ، كانت الخامـسة مساءً ، وحركة السيارات مدوية ، وهي تحيط به 00 ومع ذلك اخذته الغفوة 00 وراح يحلم بأشياء كثيرة ، ثم نسيها عندما أيقظه صوتٌ خشن :

- هيه ، هذا ليس مكاناً تلقي فيه فضلاتك 0

أجاب مرتبكاً وفي عينيه ينام النوم :

- عفواً00 عفواً ، إنني متعب وقد نمت 0

- من قال لك ان هذا المكان قد صار فندقاً 00 إذهب من هنا 0

- كان يجر همومه وأحلامه وجوعه وعطشه وإرهاقه دفعةً واحدة 00

كان المطر قد توقف ، والظلمة قد ثقلت ، والبرد في قدميه يسري الى جسمه 0 توقف عند بائع متجول ، تناول منه رغيفين مـن الخبـز ، لايعـرف مـا بداخلهما شرب قدحين من الشاي الأسود ، وعدة اقداح من الماء 0

أحس بقدر من الراحة والأطمئنان 00 ورغبة متزايدة فـي النـوم 0كـان الزمن لايعنيه 00 لم تكن ساعته سوى شيء من الأشياء التي لم تعد تعنيـه ابداً 00 فقد تساوت كل الأمور عنده 00 وجد نفسه معطلاً عن التفكير وعن الحياة 00 فلا صلاح لما لايمكن اصلاحه كل شيء تبدد ، حتى الشجرة التـي كان يتكىء على جذعها قطعت 00 حتى النهر الذي كان يجد متعـة ً فـي النظر الى امواجه ، الى غسل يديه ورأسه في مائه 00 حتى الهواء الـذي كان يتنفسه في ذلك المكان 00 صار مضاعاً 0

هناك في ذلك المكان كان يحلو له أن يجلس ويتذكرلوحده 00 ووحده مع الطبيعة وجد مناخاً من الألفة ، إستسلم الى هذه الألفة ، لم يشغل نفسه بأحد لم يعد هناك احد جدير بتفكيره 0

هناك عند النهر ، وتحت شجرة التوت وقبيل المساء 00 يمكن له ان يتأمل ويلتقي ولده ويتحدث اليه يقبله ويخاصمه لأنه يرفض الأقدام على مشروع زواج يتمناه له 00

هناك 00 في ذات المكان نفسه ، يستطيع ان يستعيد كل شيء ، ضحكة ابنه ، ملابسه ، خطواته ، شاربه الذي بدأ ينبت 00 ومن ثم موته ، موته ، موته ،ياللموت كم هو معتم 00 يسأل :

- أما كان لرئة الأرض ان تتنفس 00 اما كان على التراب ان يحنو علـى شبابه ، اما كان لقطرات دمه ان تنبت شقائق النعمان 00؟

وظل يمشي في طرق معلومة ومجهولة ، وقطرات المطر تتساقط وتتوقف ، والليل يبسط عتمته كما يشاء ، دون ان يخجل من الأنوار التـي تحـاول ان تبدد تلك العتمة 00 التي يراها قاسية 00 قاسية في جـسد الأرض التـي

تحتوي ابنه هذا الأبن الذي افتدى والده 00 وذهب بدلاً عنه عندما استدعوه للتطوع الألزامي في تنظيمات الجيش الشعبي 0 لم يكن يريد لوالده ان يموت في حرب ليس له خيار في اشعالها 00 مات بدلاً عنه 00 وبدلاً عنـه يجـد نفسه يتنفس الان ، ورئة الأرض توقفت ، سكن الهواء فيها الى الأبد 0

كان الندم يأكل فيه ، يقاتله ، يحاصره ، يخنق عليه انفاسه 00 أمـا كـان عليه ان يذهب هو 00 هو وألايدع شباب ابنه يهدر هكذا 00أما كان 00؟

ظل يعاقب نفسه يلومها ، يقتل الانسان الذي فيها ، يحاصر الرجل الخائف ، المتردد ، الكسول الذي كانه 0 حين رفض التطوع 00 قالوا له : إنه تطـوع إلزامي ، وإذا رفض عليه ان يوقع بالرفض ، وعليه تقع تبعات هذا الرفض !

قال أنه مريض ، وحمل تقاريره الطبية وادويته المتعددة اليهم 00 رفـضوا كل تلك التقارير ، قالوا انه حصل عليها بعلاقاته الخاصة مع الأطباء ، وربما كان قد قدم اليهم الهدايا 00

وفي إحساسه العميق ، كان يعرف ان رفضه هذا لم يكـن سـببه المـرض، ولاخوفه من الموت 00 إنما هو إدراكه التام ان الحرب 00 ليست حربه هو ، إنه أُتخذ لكي يكون وقود تلك الحرب ! ولئلا تكـون الاسـئلة صـارمة ، والعواقب وخيمة ، أعلن ابنه الوحيد عن تطوعه بـديلاً ، وهـو الأسـتاذ الجامعي الذي اعفي من قبل لتفرغه لمهماته التدريسية ، إلا ان الموضوع ما دام قد تحول الى بديل والى رغبة في التطوع ، فلابد ان يكـون الأنـسان – الرقم ، بديلاً لرقم آخر 0

ومضى الأبن الى الحرب ، تتبعه حسرات مكتومة من ابيه ، وحزن عميق من أمه واخواته الست 0

ومضت ايام وليال قاسية ، ظل فيها الجميع مؤرقـاً 00 وحبلـت قلـوبهم واحتبس البكاء في مآقيهم 00 كأنما استبقوا المـوت او اسـتعدوا لـه ، او انتظروا مجيئه 00 حال وداع ابنهم البار بأبيه 0

دق الموت على الباب الحديدي 00 دقة ً واحدة 00 هـذا يكفـي 00 البـاب الحديدي يذوب امام الموت ، ثم يحس بالبرودة ، يجف تماماً ، يفنى 0

إستقبل الموت بهدوء كأنما يعرف قدومه منذ امد ، وتحولت كـل الوجـوه الميتة الى امام الجثة الى شيء غريب لاعلاقة له بالحيـاة 00 كانـت كـل الوجوه قتيلة ، مندفعة الىالموت 00 الى الجثة كأمر طبيعي ، كانما يشكلها جسد الموت 00 الموت الواحد ، والحزن الواحد0

خمس سنوات أبتعد فيها عن حركة الحياة ، والتم علـى روحـه يقاتلهـا ، يحبس وجودها عن الضوء 00 كأنما ينتقم لذاك الأبن الذي أفتداه 00 وعليه ان يوجه العقوبات الى نفسه ، يمنع عنها الغذاء والدواء والهواء 00 لكـن خمس سنوات 00 وكل السنوات اللاحقة ، لن تكون بـديلاً عـن خـسارته الفادحة بفقدان ابنه 00 هكذا كان يؤكد لنفسه 00

أمامه التفكير بأمر ما 0 أن يعرف ويفكر في فعل شيء 0 ان يرى النـاس ، ان يلتقي الجرحى امثاله ، ان يستعد للثأر من اولئك الذين قتلوا الحياة فـي الناس ، وجعلوهم وقوداً في النار أشعلوها بأنفسهم 0 عليه ان يتأمـل هـذا العالم المنخور بالحزن واللعنة والخـوف والكـذب 00و 0و000 عليـه ان يتوقف عند الامواج ، حتى يعرف اسرارها 0عليه ان ينظر الى الشجر كيـف يلقي ثماره 0 عليه ان يكشف حقيقة هذه الأرض وكيف تتنفس برئـةٍ ميتـة معتمة ؟

كان طريقه يمتد ، وقطرات المطر تجعله يقظاً ، والبرد فـي قدميـه يحفـزه للمشي حتى يشعر بالدفء والحركة معاً 0نهرٌ يغيرُ مجراه ، شجرٌ يقطع من جذوره 00غابة السعادات لم تعد موجودة ، لم تعد هناك سعادات أبداً 00 ابداً 0

وهو يندفع متسائلاً عن ذاك القصر البديل عن الغابة والنهـر وكـل 0 كـل السعادات

هناك مدنيون وعسكريون وقصر 00 قصر 00 قصر مزهو 0 هنـاك ازهـار قتيلة، هناك روح النهر المدفون ، هناك روح ابنه ، مدفونة في عمقـه 00 هناك رئةُ الأرض تتنفس الموت 00 قال مخاطباً عذاباته المتجمعة :

- هل يمكن لرئة الأرض أن تعلن عن اوكسجين أعماقها 00؟

وامتلاك إصراره العميق :

- لابد أن يكون هذا 00 لابد ان يحصل 00 لابد للارض أن تتنفس 0

1996/ 2/25

سر.. حان

لم يكن الأمر يتعلق بالمحبة، ولا بالـشفقة، ولا التفكيـر بالفرقـة والوحـدة والغياب، كما لم يكن انتقاما ولا رأفة ولا مكيدة...

إنما كان يقلب الأمر من وجهات نظر متعددة، ورؤى مختلفة، ووساوس فيهـا الكثير من القلق ، والكثير من الترقب... والعجالة في حسم المشكلة..

كانت لأبيه حاجة ملحة إلى كلية سليمة... ولم تفلح كل الوسـائل فـي تقـديم المساعدة له وإنقاذه من موت حتمي، سوى البحث عن كلية حيـة.أعلـن فـي وسائل الأعلام كافة، عن حاجة ماسة لإنقاذ إنسان من الموت. ناشـد أصـحاب الضمائر الحية للتبرع بكلية.. وان للمتبرع مبلغ مالي جيد جداً لقـاء التـضحية التي سيقدمها، كان سباقاً في الإعلان من بين جميع أخوتـه الـسبعة... الـذين راحوا يبحثون عن سبل يتيمة لإنقاذ أبيهم. لم يكن أحد منهم يتقدم للتخلي عـن إحدى كليتيه لأبيه. تقدم عدد من المتبرعين... ممن زهدوا بالـدنيا، أو تعبـت الدنيا من وجودهم، أو من كان بحاجة إلى المال ليستريح من العمل ويـتمكن من العيش بسلام دون جهد، لقد اختزنت له الطبيعة كلية إضافية يمكنه الاستغناء عنها وقت الحاجة، حتى أن أحدهم عد كليته بمثابة مال مدخر، مثلما أعد زميـل له التبرع بالدم سبيلاً من سبل توفير المال الأحمر. لليوم الأسود وها قد حل هذا اليوم على أمثالهم، فشل الجميع بعد إجراء الفحوصات الطبيـة... عـن تقـديم المساعدة للمريض الذي كان يترقب كلية مناسبة.. وقد أثار هذا الفشل الكثيـر من الحزن والقلق عنده... ذلك أن هذا الموت الذي سيلحق بأبيه... من شأنه أن يلحق الضرر بمستقبله ويكيد أخوته ويستوي أمره بأمرهم... وهو الذي كان يعد نفسه للتفوق عليهم جميعاً..

أنتابه الأرق ولم تفلح المسكنات التي تناولها في التخفيف من شـد أعـصابه، وراح يفكر في وسيلة لإبقاء أبيه حياً، بحيث يتاح له الأوقات والفرص للاستئثار بثروات أبيه... بعد اكتساب ثقته، وانه كان الأكثر تضحية وحرصاً على حياتـه من الجميع.

بحث عن أهم الأطباء خبرة، عن أكثر الناس حاجة إلى المال للتخلي عن أحدى كلاهم لأبيه.. ناقش ودخل في مفاوضات مع عدد من الأطباء لإخراجه من هـذا المأزق... بذل المال وأستبق إخوته في الانشغال كلياً بالأمر، حتـى أنـه جعـل إخوته في حرج وفي خجل وفي تدن صعب وهم لايعرفون مـا يفعلونـه لإنقـاذ أبيهم، تقدم أصغرهم... ووقع على موافقته بالتبرع بكليته لأبيه... حسده أخوته وقلقوا عليه، ونصحوه أن يحرص على شبابه... لكنه أصر على قراره ، ورأى الدموع في عيني أبيه تتوسله أن لا يفعـل ويدعـه يمـوت بـسلام.... تقـدم للفحص... وجاء في نتائج الفحوصات أن كلية الابن لا تتلائم مع عمـل الكليـة المطلوبة لأبيه... فرح الابن الكبير لهذا الفشل كما حزن كذلك عندما لـم يجـد البديل... فكر في وسيلة ما...

جاءت الفكرة مثل ومضة.. سرحان، سرحان المجنون، قد يصلح عجل في تنفيذ الفكرة.. وراح يبحث عن سرحان في الحي حتى وجده... ودعـاه إلـى طعـام شهي... وملابس نظيفة... وقادة للفحـص... جـاءت الفحوصـات متطابقـة وملائمة... لكن سرحان هرب من المستشفى.. خاف من الأطباء ومن الأجـواء الغريبة التي تحيط به وتعنى بوجوده... وهو الذي كان يجد نفسه مهمـلاً مثـل نفاية... جرى البحث عن سرحان هنا وهناك... حتى تم العثـور عليـه وفـي لحظات ضعف وجد سرحان نفسه أمام مائدة شهية ودفء وافر وترحيـب مـن الرجل الذي لقيه بالأمس... كان لايذكر من الأمس سوى ملامح رجل طيب أغدق عليه العطاء... وقد اختفى ذلك الرجل بعدئذ إلى مكان ظل سرحان يجهله... حتى وجده ثانية..

-أطمئن..أطمئن...كل ، كل، نم إذا شئت، أنت ضيفي. قال له...

سرحان أحس بالراحة والشبع والدفء... وأستسلم للنوم.. كان البيت خالياً إلا منه، وليس هناك شاهد على ما يجري، وما يجري لسرحان، غافل عنه تماماً..

نهض أعد مخدراً وسكيناً حادة... وتقدم إلى سرحان سحبه إلى الحمام، وهناك وجد أنفاسه هادئة، مرتاحة، بينما كان هو في حالة قلـق وتـوتر... وشـغف لاحدود له لأموال أبيه أندفع الدم حاراً نشطاً... وعجـل بكليـة سـرحان إلـى

المستشفى قال أنه نقلها من مستشفى آخر... لتكون جاهزة... حيـة، ملائمـة لجسد أبيه وقال إن المريض الذي تبرع بكليته كان بحاجة إليه، وأن عليه اللحاق به..

في العتمة، أخرج جثة سرحان، وضعها في صندوق السيارة... وبسرعة ألقاها في قاب ليل ساكن... بين حشائش يابسة ومياه آسنة... عاد إلى أبيه في اليـوم الثاني... وجده معافى يبتسم للحياة... زاهياً بابن بار... ضحى بما يملك من أجل إنقاذ أبيه... سأل الأب عن الرجل الذي تبرع بكليته.. قيل له إنه قد تماثل للشفاء وعندما وجد المال أمامه أخذه.... وترك المستشفى سريعاً...

أخذ كل شيء يجري كما رسمه... المال الوافر لأبيه صار بـين يديـه... لـم يعترض أحد من الأخوة... فكبيرهم جدير بكل شيء، ألم يكـن الأكثـر انـدفاعا وتضحية من اجل أن يبقى لأبيهم عافيته... بينما كانوا هم جميعاً...يبحثون عن سبيل الخروج من المحنة... ولم يفلحوا في شيء؟ لم يسأل أحد عن التفاصيل... ولا عن سرحان الذي لم يعد يراه أحد ولا يتفقد وجوده أو غيابه أحد.... وبقيت جثته موضوعة في سوائل ومواد كيمياوية تحفظ الجثة من التفسخ... حتى يتاح لطلبة كلية الطب دراسة جثة إنسان ما.... مجهول الهوية..

و... مرت أيام وأسابيع وجد الأب نفسه في ضائقة، في أنفـاس ثقيلـة.. فـي حسرات ، في شيء غريب يمسك بأمعائه... يريد أن يستل منه كليته.... كليتـه تلك الكلية التي يعرف أنها زرعت له... سأل أبنه الكبير:

- يا ولدي... من أعطائي كليته بدأ يعاني من وجع... أبحث عنه ، ربما سيموت من ألالام.. أعد له كليته... ودع المال له....

فوجي بالكلام:

-أبي... الكلية ليست قطعة غيار نضعها أو نرفعها متى نـشاء... لا البـائع ولا المشتري... يعرف أحدهما الآخر..

توجع الأب، صار من الصعب عليه أن يتنفس... في الفجـر أنطفـأ... وفـي الظهيرة أنطفا الابن الكبير كذلك... لكن تفاصيل الفحوصات الطبية كشفت عـن حقيقة أن كلية الأب التي تم زرعها ما زالت تعمل، بشكل سليم، بينما كانت جثة

الأبن قد تعفنت بسرعة لم يدرك أحد سرها أبدا، أما الإخوة الستة فقد خيم على وجوههم وجوم غريب، وحسرة دفينة... وأسرار لايعرفون مفاتيحها... وأسئلة حائرة لاتبوح إلا بالدهشة والغرابة والذهول والأرواح التي تختنق بالإحزان الثقيلة التي ليس بوسعهم إبعادها عن أنفاسهم التي يحتبس فيها الهواء... حتى ليجدوا أنفسهم بحاجة إلى نسمة تقطر لهم معنى وجودهم... بين أسئلة كثيرة تحيط بهم وتكبر معهم وتظل تلح عليهم دائما؟..

2003/1/9

الحروب الجميلة

فجأة وجد نفسه جالساً إلى جانب السائق كان المقعد فارغا.. جلـس... أراد أن يتكئ ويحس بالراحة بعد الزحمة والانتظار. اللذين ضجر منهما لكنه نهض فجأة كمن أصيب بتيار كهربائي كان من الصعب عليه الخروج من سـيارة الكوسـتر سالماً دون سرقة أو تمزق ثوب أو سماع كلمة خشنة ارتضى البقـاء استـسلم لمقعده وصرف نظره يميناً . كان من الممكن أن يظل هكذا حتى يـصل مدينـة الشعب ... ألا أن صوت السائق الواضح توجه إليه

- الله بالخير..كان لابد أن يجيب وان يلتفت إلى صاحبه كما أن دفع الاجره لابد أن يتم يداً بيد ووجهاً لوجه كان يجب عليه مغادرة السيارة يجب حتى ينقذ نفسه من هذا الإحراج الذي وقع فيه ويبحث عن سبيل للخلاص منه وقدم له الـسائق سيكارة

- شكراً لا أدخن

- كنت تدخن ، هل تركت التدخين؟ لاذ بالصمت اتخذه سـبيلاً لقطـع تسلـسل الحديث ناوله الورقة النقدية الخضراء ابتسم السائق وبهدوء دفـع اليـد التـي توجهت إليه بالنقود.

-شكراً نحن لا نأخذ من الأصدقاء.

-فكر ألا يجيب ألا أن السائق راح يسأله.

-كيف الحال هذه الأيام ؟

- هنا وجد نفسه يصرخ بوجه السائق:

-هل تعرفني... أنا لا أعرفك!كان يسأل و يجيب معاً حتى يقطع كل حديث يمكن أن يتواصل بينهما وابتسم السائق مرة أخرى ورفض استلام الاجره ثانية. وقدم سيكارة إليه ثانية ...!

-أبو حرب هل نسيت وجهي الم يجعلك هذا الوجه تتذكر شيئاً ..؟

- لا وأنا لست أبا حرب من فضلك أريد النزول هنا.

- ولكن بيتك في مدينة الشعب وليس في الصليخ الجديد. خاطب نفسه يعرفنـي يعرف اسمي ومكان اسمي وسكني وأولادي يعرف مهنتي بكل تأكيد ربما كنت قد

أسأت إليه يوماً..بالتأكيد، وألا هل كنت قد أحسنت إلى احـد سـواه، أذن لمـاذا يكرمني ويعاملني بكل هذه الرقة وبكل هذا المعروف.

بالاحترام كله.. وأنا قد أسأت إليه..؟

هتف بغضب:

- أريد النزول هنا بيتي هنا ما شأنك ؟
- فليكن سأتوقف كما تريد لحظة من فضلك كل ما في الأمر أنني كنت أريد إيصالك إلى بيتك وزوجتك بأسرع وقت لم يجبه وغادر السيارة مـسرعاً بين رغبة السائق في بقائه ورغبة الركاب في نزولـه حتـى ينـصرف السائق إلى الانتباه وإيصالهم بسلام.
- عندما ألقى أبا حرب قدمه فوق أسفلت الشارع في ظهيرة تموزية أحس بوطأة الحر يحرقه تضغط وتحبس على أنفاسه لم تكن هناك بقعة يستظل بها امسك بكيس اسود كاشفاً عن كيلوين مـن الخيـار المـائي الكبيـر المصغر، هذا كل ما استطاع شراءه من السوق الشعبي في باب المعظـم وراح يجر خطواته في تلك الظهيرة اللاهبة.. ثم توقف بانتظـار سـيارة كوستر أخرى تقله إلى مدينة الشعب .انتظر... فليكن فهذا أفـضل مـن بقائه.. حديث سيجر إلى حديث . سيكون هناك عتاب وصـراحة وإعـادة لذكريات مريرة وجراح لم تندمل بعد. أن كان نزفها يمزق القلب ونـزف القلب موجع لقد اكتوى بمثل هذا الوجع بعد أن كان غائبـا عنـه كأنمـا الوجع لا يعرف الطريق إليه أبدا أبو حرب كان فخوراً بأسمه واسم ابنـه ومعاني الحرب لاشيء سوى الحرب لا حوار مع من لا يطيع الأوامر كل شيء لا سبيل إلى حله ألا القوة بالحرب القوة سلطان هذا الزمـان وكـل زمان ولأن إيمانه بالحرب إيمان بالمطلق فقد تقدم في مهماته العسكرية سريعا وسواء كان تقدمه السريع هذا أكراما لشجاعته أو إيمانه أو الثقة به ذلك انه لم يكن بأي حال نتيجة لخبرته في أساليب الحروب الآمر الذي جعل أوامره تلحق بالجنود الكثير من الخسائر والخيبات التي وصلت حـد استشهاد حرب ... حرب ابنه ومن قبله سعيد.سعيد الشاب الـذي كـان

يعاني من الصمم والذي كان القائد قد وضعه في الخطوط الخلفية فإذا به يدفعه إلى الخطوط الأمامية مشيراً إلى القائد ذلك أن سعيد كان يدعي انه أصم كذبا ونجا سعيد بأعجوبة في أكثر من واقعة حربية مما جعـل مـن صممه حاله لا يشك احد في كذبها ولم تفلح التقارير الطبية ولا توسلات جيرانه ولا السائق أبو سعيد برجاء مساعدة سعيد. لم يكن سعيد سـعيداً في الحرب وهل من احد يمكن أن يكون سعيداً في الحرب هكذا كان يسأل الجميع؟ وبقي أبو حرب مثار نقمة الجيران جميعاً فقد عرفوا انـه كـان السبب في استشهاد سعيد الأصم، واقترح بعض الأقارب الانتقام منـه ألا أن أبا سعيد رفض هذا المقترح واحتفظ لأبي حرب بالسلام على الـرغم من كل ما يجري ومن وطأة هذا السلام على أبي حرب وحزن أبي سـعيد العميق ... العميق قتل حرب وانتقل أبو حرب وعائلته إلى مكان آخر من مدينة الشعب لكي لا يكون هناك حزن مشترك يجمع كل الآبـاء لكـي لا يكون هناك تشف وارتياح لأبي سعيد نحوه كان يعتقد هـذا ويـرى إن استشهاد حرب ربما كان مدبراً لكنه لا يملك دليلاً واحداً على ذلك مـضى أبو حرب يسير في قلب الظهيرة التموزية توقف عند نقطة انتظار الحافلة لم تأت الحافلة ولم تصل ا لكوستر ولم يجد متنفساً للراحة والهدوء كـل شيء حوله كان يختنق . كل شيء فيه يختنق.

- وفي سيارة الكوستر.. كان أبو سعيد يستعيد أحزانـه يحـس بوطأتهـا عليه.. ويتساءل أي مصادفة قادت إليه أبا حرب، ماذا حل به.. حتى صار يستحق الشفقة بدلاً من التوسل أليه في زمن مضى لكي يشفق على سعيد الأصم؟

لم يكن في خاطره أن يفكر يوماً ما بالانتقام.. كان على العكس من ذلك يفكر بالسبل التي تجعله يقابل الإساءة بالمعروف.. فتلك مواقف الشجعان... وتلك سمة الإنسان الفاضل...إلا أن أبا حرب شأنه شـأن سـواه ممـن عرفـوا بإساءاتهم وكانوا يرتابون في أحسان أبي سعيد إليهم، وفي بالهم أن الانتقام قادم لا ريب فيه.. ولأن أبا سعيد لم ينس جراحه الأولى بفقدان سعيد لـذلك

ظل يسعى في البحث عن سبل لأنقاذ ابنه الآخر أسعد من مخاطر الحـرب... شرط أن لا يقع في خلاف مع تنفيذ القوانين. ظل يسعى في أن يواصل أسعد دراسته..إلا أن اسعد كان يخيب آمال والده دوماً-الأمر الذي صار فيه قـرار قطع الدراسة مسالة محسومة، وما دام الدرس قد توقف فأن الجندية كانـت سبيله الوحيد وطريقه الذي لا يمكن الخلاص منه فكر في وسيلة... حتـى لا يلحق اسعد بسعيد... ويكون طريق الحرب واحداً لا وجود لسواه.

اقترح عليه أحد معارفه، أن يتطوع أسعد في ميدان مدني تكون الخدمة فيه مجزية للجندية سر أبو سعيد بالمقترح... ووافق اسعد عليه- التحق اسـعد بمنشأة مدنية ضمن نهارات وليـال كانـت تطـول وثقـل العمـل ينهـك اسعد...واسعد ساكت يكظم غيظه..فتلك نتيجة صنعها بنفسه عنـدما أهمـل ومن ثم ترك دراسته الكسولة التي لم يأخذ منها شيئا. طلب إلى أمه أن تعـد له طعاما وتغلفه جيدا حتى ليؤثر عليه الغبار كما زعم ..طلب كمامة يضعها على انفه وفمه حتى لايختنق بالتراب الموجود في المصنع . طلـب ملابـس خاصة للعمل وطلب أشياء غريبة كان يحسها هو نفسه كما يحسها سواه .

كان الإحساس يكبر ويتسع ويثير الشكوك وجاءت الفحـوص الطبيـة التـي أجريت على صحة اسعد مؤكدة لهذه الأحاسيس كلها. اسعد يعمل في مـصنع للسموم وجسمه امتص قدراً من هذه السموم.. الجو الملوث كان قـد تـرك أثاره على صحته ونصح الأطباء بتغيير طبيعـة عملـه والتغييـر يقتـضي الاستقالة.والاستقالة تقود إلى الجندية والجندية إلى الحرب ...والحرب موت منجز وكل الطرق تؤدي إلى موت محتم .. وأبو حرب صار إبـاء للحـرب، تلحق بكل شاب وليس هناك من منقذ أبو حرب مشرع مخاص للحرب، انتاب سعيد مع أبويه الكثير من الحزن وصل حد اختيار سبل الموت.. كان القلـق يؤدي إلى طريق مسدود لا سبيل للإفلات منه .

وتسير سيارة الـ كوستر تصل آخر نقطة لمدينة الشعب .. لم يكن هنـاك إلا عدد من باعة السكاير والعاطلين يبحثون عن ظل وقطرة ماء ..عـن نـسمة تائهة لم يكن هناك ظل ولا قطرة ماء كانت هناك شـمس تـشرق وتحتـرق

..وكان مذياع المقهى القريب يعلن عن حرب جديدة ..وقد بدت على الوجوه علامات موت تقترب ..وتصبح على تماس ..تماس بعالم يختنـق بالزمـان والمكان كانت الظهيرة قاسية والحياة .. الحياة معطلة .

الزعيم يختار الخراف الرشيقة

ذات مساء تأمل غروب الشمس وارتحال النهار. أتكأ على مقعد وثيـر فـي حديقته الغناء...

كان الليل قد تسلل إلى المكان، فاستوحش جلسته.. رفع يده، فتقدم إليه أكثـر من رجل لتلبية طلبه.. قال: أجعلوا الليل يتأخر... عن الحضور..

لم يتمكن أحد من قول كلمة ((لا))... هذا لا يمكن، تلك هي طبيعة الشيء الذي تريد إن تطالعه..

قال واحد منهم: نعم.

وأعجب الجميع بكلمة ((نعم)) التي قالها صاحبهم... فقد أجاب بشيء يـستحيل تحقيقه...

ذهب وأضاء أنوار الحديقة، فأنتشر الضوء في أرجاء الحديقة، وعم النور، ولم يعد هناك ليل في حديقة الزعيم.

حدق الزعيم بعيداً... وقال:

- والأمكنة الأخرى، ليس فيها زعماء، فما شأننا بهم، وكيف يقبل سـيدي الزعيم إن يتساوى نهار الزعماء مع ليل العبيد؟.
- أرتاح الزعيم للإجابة... وصرف الرجل. تمتع بضوء باهر، لكـن بقعـة سوداء كانت تمشي معه.
- أستدعى خدمه، وسألهم عن البقعة السوداء..
- عجل أحدهم بالإجابة فقال:
- - هو ظلك سيدي الزعيم.

غضب الزعيم... وأمر بقطع رأس خادمه... ثم التفت إلى الأخر، وسأله عن رأيه... فكر الخادم قليلاً ومثل صاحبه أمامه.... فقال:

- انه الليل يا سيدي، وحضورك يضيء الليل ويزيل الظلمة.

أعجب الزعيم بجواب الخادم، وأنشرح صدره... وأجزل له العطاء..

ونام الزعيم ليلة طاب فيها المقام والأحلام.

في يوم آخر...

اتكأ الزعيم على مقعده... وراح يفكر كان الوقت صباحاً، والشمس في أوج تألقها..

قال في نفسه:

- الشمس تشرق وتغيب حسب مشيئتها...؟
- أستدعى الخادم، وسأله عن السبب أحتار الخادم في الإجابة وارتبك أمره سأله ثانية... وأمره أجب ألم أسألك؟
- كان الخادم أليفا مع نفسه، شديد التعلق بالحياة.
- قال: لأن الشمس تريد إن تؤنس صباح سيدي الزعيم بالبهجة ، وتنير دربه، وتضيء نفسه وقلبه.

-أبتسم الزعيم... وصرف الخادم.

- وراح يتأمل الأشياء المحيطة به. انتبه إلى صحف ومجلات الصباح منبسطة أمامه. قرأ عناوينها. وصفته إحدى الصحف برجل العدل، لأنه القى كلمة في وزارة العدل، وأمر بتعديل القوانين لصالح الأقارب والأصدقاء. وسره الوصف تناول صحيفة أخرى، وكانت تصفُه برجل السلم، لأنه أول من طالب بأن يكون للطيور البيض حرية الانتقال في السماء دون تدخل من أحد...

وفي جريدة ثالثة، وصف الزعيم بأنه رجل الديمقراطية الأول، وعلات السبب في أن السيد الزعيم، أمر بتشكيل أحزاب عديدة تكون في خدمة الدولة...

وانتبهت مجلة ملونة، إلى إبراز حدث في البلاد...

قالت: إلغاء النقابات، مطلب جماهيري ملح استجاب له السيد الزعيم...

وأضافت تقول، بأن النقابات كانت تشكل عقبة أمام العمل الحر والمنتج... وقد تنبه الزعيم إلى هذه العقبة فأزاحها عن كاهل العمال.

طوى الزعيم الصحف والمجلات.. وأخذ يفكر في طريقة يستطيع من خلالها إثارة الانتباه، وتحقيق حضوره المتميز..

أستدعى الوزراء، واحداً واحداً.... ثم جمعهم وأمرهم بأن يفكروا معه فـي طريقة لاختيار الموظف الأفضل... قال: بعضهم كلاما تقليـدياً، كـأن يكـون الموظف في موقع اختصاصه، وان يتفانى كل واحد بواجباته..

ولم تلق الإجابات قبولاً لدى الزعيم... ووضع اقتراحا أمام وزرائه... ولأنه رجل سلم وعدل وديمقراطية..وطاب الاستماع إلى أرائهم... فهو لايريـد إن يتخذ قراراً منفرداً، وإنما هو يحتكم إلى شورى الجماعة.

قال الزعيم: لابد لكل موظف جيد، من قياسات محددة في الطول والوزن... نحن نحتاج إلى الموظف الرشيق، في دولة تقوم كـل الأمـور فيهـا علـى التخطيط السليم والأرقام والموازين الدقيقة.

صمت الجميع... وأراد أحد الوزراء إن يقول: لابد من تربية الموظفين فـي حقول مشابهة لحقول الدواجن... ولكنه سكت خشية أن يتحول رأيـه إلـى منظور عكسي...

رفع أحدهم إصبعه موافقاً، ثم رفع بقية الوزراء أصابعهم.

مع إن بعضهم كان ينتابه حزن دفين.... فقد لا تنطبق عليه المقاييس فيعفى من مهماته...

ولكنه حسب للأمور حساباتها ورفع الجميع أصـابعهم معلنـين الموافقـة الجماعية...

شكرهم الزعيم... وأبتسم ابتسامته المشهود لها بالارتياح وجعل المقتـرح قانوناً يسري في البلاد لتعم الرشاقة في البلاد الرشيقة!...

* صدر كتاب رسمي من دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافـة والأعـلام برقم 1531 في 1990/3/29.

يقضي بتنفيذ قرار مجلس قيـادة الثـورة –العراقـي- المـرقم 379 فـي 1989/6/18 والمتعلق بفحص اللياقة البدنية من منتـسبي الـدار والـذين

يشغلون وظيفة حدها الأعلى (302) دينار وقد شـمل النـاس بتنفيـذ هـذا الأمر... فكانت هذه القصة..

صورة صلاح القصب الأثيرة

وقف امام لجنة الاختيار حائراً لايعرف ان كان عليه ان يجيب بشكل صادق ، ام يدير اجابة ماقد تقنع الجنة ..سألوه :

-لماذا اخترت فرع الاخراج من دون سواه من فروع قسم المـسرح ..؟ تأمـل وجوه اللجنة واحدا واحدا رأهم يبحثون عن الجواب في عينيه ..ظـل صـامتاً ، اعاد احد اعضاء اللجنة السؤال ، وطلب الاجابة الفورية . لم يكن يريد ان يرسم جواباً جاهزاً قد يرضي اعضاء اللجنة وإنما اراد ان يواجههم بالحقيقة ..سـواء كان جوابه مقبولا أم مرفوضاً يثير الحفيظـة او الاسـتياء و ..حتـى احتمـال السخرية . حتى اتعلم الاخراج من صلاح القصب ..حتى اكون تلميـذه .تبـادلوا النظرات وجعلوه حائرا بين الاستحسان والاستهجان ..لكنه ظل مصراً على ماقال فلقد شاهد لصلاح القصب عددا من المسرحيات التي ادهشته واثارت الشجن في قلبه ، وجعلت ذاكرته تستيقظ وتحلم وتتخيل وتصل الى معان ودلالات مختلفة . كان اخراجه لمسرحية (ماكبث) قد سحرته وجعلته يدرك ان هذا المخرج يمتلـك قدرة على انتاج الرؤى من أبسط الاشياء ويقرا النصوص على وفـق طريقتـه الخاصة التي لايقلد فيها غيره ولايستعيد بصمات الآخرين . كان قد قرأ (ماكبث) لشكسبير كما قرأ دراسات عنها وشاهدها في سلسلة عروض . لكـن القـصب تعامل مع النص وفيه حس اخر غير مألوف .انه يعرف كيف يضيف ويكتـشف .و..تم قبوله في فرع الاخراج وتفاءل خيراً في الاصغاء الـى صـلاح القـصب وتعليماته النظرية والتطبيقية ..لكن الفصل الاول بكاملـه انتهـى مـن دون ان يحظى بمحاضرة واحدة من القصب وانتظر الفصل الثاني من الـسنة الدراسـية والقصب لم يكن حاضرا. وترقب العامين الثاني والثالث وصار على اعتاب عامه الدراسي الاخير ..والقصب غائب عن عالم الدراسة والتدريس كـان يـراه فـي ممرات الكلية او في الادارة او في عرض مسرحي ..حياة مرة واخرى ..اجابـه القصب بشكل عابر . وتجاهله مرات عديدة لكنه ظل بالنسبة اليه مخرجا جـديرا

بالانتباه .قالوا له ..ان القصب يعاني من ضعف في السمع وشرود في الـذاكرة ..انتابه العجب وتساءل : مثله اليس جـديراً بالمعالجـة الفوريـة ..بالاهتمـام والرعاية ؟ لم يحصل على جواب ..وإنما اثارة حفيظة عدد من الاساتذة والطلبة ..واتهموه بالوهم الاعجاب بفنان وهمي اسمه صلاح القصب ..وأكد مـصرا اذا كان الوهم على هذا الشكل ، فانا إنسان وهمي ..وراح يبحث عن صلاح القصب في صفحات الكتب والمجلات والصور ، ولايحصد الاالقليل ، الااحساسه بعبقرية القصب كانت تزداد قناعة . وتترسخ باستمرار . وفي وقت كان يعمق صلته بفن مسرح ذكي ونابه وموجه ..له رسالة اخلاقية وجمالية لـه حكمتـه وخطابـه الانساني ودلالته الفكرية ..كان يجد نفسه محاصـراً بـسلبيات كثيـرة ..منهـا عروض ساذجة لاتبعث الاعلى الاستياء ودراسة جامعية وهمية . يدخل الاسـتاذ لالقاء محاضرته ، بعد ان ايقظ سهرة الامس بقليل من الشراب ، واستعاد نشاطه الصباحي . يدخل الاستاذ الآخر ليتحدث عن شؤون شخـصية وامجـاد قديمـة يتمطى الثالث مشيرا الى ان المادة التي يتولى تدريسها هي الاهم من بين كافـة المواد الدراسية ،يكرر هذه المسألة في مطلع كل محاضرة ..ثم نتبين ان جـدول الامتحانات يخلو من تلك المادة استاذ أخر لاشأن له سوى البحث عـن مخالفـة تتعلق بالزي الجامعي ..خامس يغيب مراراً لان له التزامات دراسية في كليـات اخرى ..وسادس يتحدث عن غرامياته وعطوره ..سابع يدعو طلبتـه الـى اداء مشهد مسرحي تجاري ، فاذا اعجب به زملاؤه سـمح لهـم بالتـصفيق . واذا وجدوا فيه الملل ، فان من حقهم السخرية منه واخراج اصوات تليق برفضهم له ..! ثامن يطالب طلبته بشراء ملازم مصورة .هي افضل واهم واحدث ماكتب عن المسرح وان عليهم ان لايسربوا تلك المعلومات لاحد ..فاذا بهم يجـدونها فـي صف اخر وفي اقرب مجلة عربية تصل الى المكتبات . تاسع ..يبـاهي نفـسه بطالبة نشطة تعد دراستها الجامعية باستدعاء حمار على خشبة المسرح ..ممـا يخلق حالة غريبة في المسرح ..والمسرح اكتشاف للغرابة ..اما العاشـر فانـه استاذ ينتظر تساقط الامطار وانسياب المياه في الصف الدراسي ، ليصرف الطلبة الى بيوتهم حفاظاً منه على صحتهم من البلل والبرد . يحزنه ان يرى كل هـذه

المشاهد وسواها في حرم جامعي ، ويبعث الاسى في اعماقه وهو يـدرك جيـداً كيف يتسرب الوقت من دون ان يدرك الاساتذة والطلبة مآآل اليه علم المـسرح في الجامعة وفي المسارح كافة . وخاصمه وعيه ..وزاحمته الضرورة بـين ان يعلم كل شيء عن هذا الفن الذي احبه والتحم به وراح يدرسه بوعي وعمـق ، وبين ان يرى كل ماهو سلبي يأخذ مساحة متسعة حتى يصبح هو المعنى بجدوى ان يفهم ..ان لايفهم حتى يصبح بمقدوره ان يحيا بنعيم وسـلامة وراحـة بـال ..وان لايجيد من يتهمه بتهم شتى ، ويقوده الى دروب مسدودة . لكن ماذا يفعل بقناعاته الاثيرة مع : صـلاح القـصب ، وبيتـر بـروك ، وستانسلافـسكي ، وبيسكاتور ، وجميل نصيف ، وجواد الاسـدي ، وحامـد خـضر ، وازادوهـي صاموئيل ، وباربا ..وسواهم ممن قرأ لهم وتنبه الـى اعمـالهم وتفاعـل مـع اجتهاداتهم ..؟ هل كان عليه ان يتوقف عند شهادات (علمية) لم يـتعلم منهـا شيئاً طوال مراحله الدراسية لمجرد انها تحمل القابا علمية كان يحس بخيبة امل تتسع كل يوم ، وليس بوسعه الخروج من ازمة وعيه .. هـل يتـرك الدراسـة وينصرف الى التعليم الذاتي .. هل يعزف عن حضور محاضـرات لاصـفة لهـا سوى تبديد الوقت وتصريفه في شؤون فارغة ..؟ كانـت الهـواجس تلاحقـه والجرأة مسكونة في اعماقه ليس بوسـعها ان تتـنفس رفـضها . و..رأه رأى صلاح القصب يعد حقائبه ويحمل رسائل اصدقائه ..حاملا اشواقه الـى النـاس الذين يحبونه متوجها الى الرحيل الى عالم لايرفضه انسان ، لايسخر منه مبدع كبير ، لايتهم فيه بالجنون والغفلة . معطفه الاثير ، دفاتره الانيقـة ، نظارتـه الدائرية .. مشاغله وهو ينصرف الى مخيلة عجيبة يستقي من بئرهـا عـوالم شتى ووجودا اسمى ..ويترك لاصدقائه بصمات خلود لمسرح الصورة .وتـشكيل العلاقة بين جسد ناطق بالحركة وحركة نامية ترمز ابعادهـا وتـشكل رؤيتهـا ..بعيداً عن هذا العالم الرث الذي يريد ان يسرق احلامه ووجوده والق الومضة التي تصنعها مخيلته العجيبة . رأه ..رأى شبحاً يتعلق بسلم الحافلة ، ويشد الى صدره أوراقه وصوره واحلامه ..يجلس على مقعد يزاحمـه فيـه رجـل آخـر ..لايعرف من يكون الجالس في صفه . تسير الحافلة ببطء ، ترتفع يـد صـلاح

القصب مودعة ابتسامات شاحبة من عائلته وطلبته ومحبيه ..ولـم يكـن بـين مودعيه فنان مسرحي واحد ، ولازميل تدريسي واحد ..كانت به حاجة الى البكاء كانت به حالة اختناق وصرخة مكتومة ..وسحب اقدامه في شارع قليل الاضاءة ، ضاج بالحركة ..سأل نفسه : لماذا كلما قلت الاضاءة ، ازداد عدد النـاس .. اجاب : الاضاءة فجر ..الندرة وحدهم من يضيئون الفجر ..أسعده ان يصل الـى هذه القناعة ، وان يظل صلاح القصب اثيرا في قلبه وذاكرته ..وان يثيـر فـي نفسه اسئلة كثيرة ..اسئلة تراود فيه صحوة روحه وألق وجـوده ..ومـسراته الفاتنة المكتومة ، واساه العميق ..الا من ومضة ضوء بعيد ..

الثمـــــرات

كان الحاج صالح قادما من بعقوبة متوجها إلى بغداد , حـاملا كيـسا مملـوءا بالبرتقال , قاصدا الوصول إلى أخيه , في محاولة منه لإقناعـه بالانتقـال مـع عائلته إلى بعقوبة حيث المكان أكثر أمنا من العاصـمة , ولا تطالـه الطـائرات والصواريخ الموجهة .. التي لا ينشغل أصحابها بالبساتين والجداول .. وإنمـا بثمرات سود قدت من ذهب ..

كانت السيارة البرازيلي تقل خمسة من الركاب الذين حشروا ملتمين على بعضهم بعد أن أعياهم انتظار سيارة تتوجه بهم إلى بغداد .

بقوا جميعا في حالة صمت . لم يجرؤ السائق على إدارة مفتاح المذياع .. كـل يحدق في المدى ويرقب الشارع الموحش الذي بدا خاليا من السيارات والناس , وظهرت البيوت والأشجار على جانبي الطريق .. مغبرة وقـد فقـدت ألوانهـا الطبيعية .. في حين كانت أصوات الطائرات والرصاصات تبدد ذلك السكون قـال الحاج صالح .. قاطعا حالة الصمت التي طال أمدها :

- أنني لا أرى الطائرات .. اسمع صوتها فقط ..

علق راكب يجلس إلى جانبه :

- هناك أجهزة ترصدها , وتطلق عليها النار .

تدخل راكب يجلس في المقعد الأمامي :

- الوقت ظهيرة .. ولا شيء يمكن رؤيته في هـذه العاصـفة الترابيـة .. وليس بوسع الطائرات أن تحلق وهي مطمئنة .. كيف تسلم من أجـواء كهذه ومن رصاص مكثف؟!

كتم السائق بضع كلمات كان يود قولها .. استأثر لنفسه بحكمة الصمت التي كان يفضلها .. في حين أبطأ في سيره حذرا , وأشعل الضوء الأمامي حتـى تتسع الرؤية أمامه , بعد أن حالت الأتربة والعواصف دون هذه الرؤية .

بدا الطريق طويلا , مملا مختنقا على غير العادة التي كانت فيها المسافة بين بعقوبة وبغداد .. قصيرة , ممتعة نسائمها رقيقة , ومنظرها جميل محفـوف بأشجار الفاكهة والبيوت الريفية والأرض تبسط خضرتها , والسماء تـصفو بالزرقة والشمس الربيعية الصافية فكر الحاج صالح .. بعد أن عاد الصمت يغلف أجواء السيارة ويجعل ركابها في حذر من أنفسهم ومن حـولهم ومـن الظروف المحيطة بهم .. في وقت كان يحس فيه أن كل واحد منهم به رغبة للحديث في شأنه وشأن ما يجري حوله .. هذا الحول الذي يهدد أمنه وحياته وأحلامه واستقراره ومستقبله .. اختنقت السماء بالتراب .. تـراب احمـر , طيني , دخان اسود , وعواصف عربية تختلف في اتجاهاتها مصحوبة بمطر طيني , بمطر اسود.

وفي ظل هذه الأجواء .. عبرت السيارة البرازيلي نقطة السيطرة , التي أشار العسكري الواقف عندها بالعبور , ثقة إلى الركـاب , أو ثقـة بنفـسه , آو مساعدة لنفسه وللركاب في احتمال أجواء خانقـة .. وراح ينظـر للركـاب بشفقة كأنما يرثي توجههم إلى بغداد في هذا الوقت المليء بالقلق .

كانت السيارة تسير ببطء خشية الانزلاق وصعوبة الرؤية والحذر من عـوالم الحرب التي كانت بغداد تتوقعها بخوف وقلق وحزن .. اقتربـت مـن حـي الشعب .. كان عدد من الناس على جانبي الشارع .

عبرت السيارة جسرا للمشاة كان يمتد بين شارعين .. ذهابا وإيابا .. وفجأة دوى صوت رهيب , لحق به صوت مماثل في الجهة الثانية من الـشارع .. وإذا كل شيء يتبدد فجأة .. كل شيء يـضيع ويحتـرق ويختنـق ويمـزق ويتلاشى ويذوب في النيران والدخان والمطر الطينـي , والمطـر الأسـود والأوحال وضجة الأصوات وصخب المكان وعفن البارود وشـواء الأجـساد ونيران السيارات التي راحت تأكل أبدان البشر والشوارع وخزانات البنـزين والمقاعد . حتى يتحول كل شيء .. إلى لا شيء ..!

وجد الحاج صالح نفسه ملقى في الأوحال , هناك من ينتشله من بين النيران التي كانت تسعى لافتراسه مع من افترسته .. مع الدماء والنيران والأشـلاء والدخان وبقايا المباني وبقايا البشر وبقايا البقايا .

سمع اصواتا تقول له :

- سلامات .. سلامات .. ما أكو شيء ,الحمد لله على السلامة .

نسي كيس البرتقال الذي كان يحمله إلى أخيه .. نسي أن كان متوجها إلـى أخيه بهدف إقناعه للمجيء معه إلى بعقوبة فبعقوبة غابة برتقال , وبغـداد غابة مخاطر مهددة بدمار الحروب .. لم يكن يعرف وجهته .أذهله ما جرى . أذهلته الأصوات والنيران والعاصفة الطينية والسماء التي بدت برتقالية اللون . كأنما راحت تشكل وحدة لونية تجمع بين اللهيب ولـون الـسماء , ذهـل للمنظر , غسل وجهه رجل شهم .. راح يلمس كل قطعة في جسده .. طمأنه :

- ما أكو شيء .. الحمد لله , سلامات .

تنبه الحاج صالح إلى نفسه .سأله الرجل الشهم :

- إلى أين تتجه يا عم .. هل أنت من حي الشعب ؟

حاول الحاج صالح جمع الكلمات , أن يفهمها , أن يجيب , ظل يحـدق فـي وجه الرجل , أعاد الرجل سؤاله :

- عمي .. أنت من هنا .. أين بيتكم ؟
- ها .. من بعقوبة , أخي هل أصابه شيء .. أخي الوحيد . جئـت لأخـذه معي .. والله ما عنده شيء .. ما عليه بالحروب .. لمن ترك عائلته ؟

أحس الرجل القريب منه , والناس حوله , أن هذا الصخب والمنظر الـشره إلى الخوف والموت ليس من السهل أن يخرج من صدمة الذهول .قال:

- عمي .. تعال معي , أخوك بخير .. سأخذك إليه بعد أن تستريح .
- مرتاح .. والله مرتاح , مرتاح مادام أخي حيا .. هل أصـيب احـد مـن عائلته .
- لا .. لا.. عمي والله زين .

- الله زين .. دائما زين , الله يلطف , بيت أخي قرب الجامع .
- أي جامع .. في حي الشعب , جوامع كثيرة .
- جامع بالركن .. أول جامع بناه الرسول كان اسمه .. نسيته .
استعاد الرجل أسماء الجوامع في حي الشعب ..وتذكر :
- جامع قباء ..
وسر الحاج صالح .. صاح :
- أي .. أي .. بصفه بيت سالم .. الله يسلمه .. سالم أخوي .
وحرص الرجل الشهم أن يكون الحاج صالح من حصته .. في ما رأى الآخرين يتوجهون لأخذ حصصهم في مساعدة الشهداء والجرحى , في انتشال الجثث من السيارات المحترقة , من ركام المباني , من بقايا الأشياء والأوحال .. في مساعدة رجال الإسعاف والإطفاء والدفاع المدني .. وصل الحاج صالح إلى بيت أخيه مهدما , ودعه الرجل .. سمع أصوات ترحيب ووداع .
ألتم عليه الجميع , احتضنه سالم ظل يقبله يمسك بجسده :
- ما الذي جاء بك في هذا الجو .. الحمد لله على سلامتك ..
- جئت لآخذك , كنت أخاف عليك , الحرب في دائرتكم .. في بعقوبة أمان .. لا يوجد نفط ولا عسكر ولا أسلحة ممنوعة , ولا كراسي مغرية .
- حجي .. العراق كله مهدد بالدمار , العراق بلد خير نفط ونخيل وأنهار .
- يعني ما راح تجيء معي ..؟
- وأنت قاعد هنا .. سالم خلي عقلك براسك وتعال معي !
- حجي أسمع , أسمع الإذاعات .
وأدار مفتاح المذياع :
(راديو سوا .. ينقل الحدث بالصوت لتكون عندك الصورة) ويواصل المذيع موجز الخبر عن قتلى في أم قصر والبصرة والرميلة ..
وعلق قائلا :
- يعني الجماعة لهم أهداف لازم تتحقق .. هاي أماكن نفطية مهمة .

- وحرك مؤشر المذياع :

(هنا لندن .. في خبر عاجل , أن قوات الحلفاء تواجه مقاومة عنيفـة فـي البصرة) وانتقل إلى الشاشة .. وتوقفت عينا الحاج صالح عند الصور التي تنقل مباشرة من بغداد والمحافظات .. من خلال فـضائية العـالم / حـروب السيطرة .

وشاهد على الشاشة , ما كان قد شاهد جزءا منه حيا في حي الشعب .

- سالم .. هذه هنا في الشعب .. جثث وسيارات ومحلات ومطاعم وعمارات محترقة .. وفي القسم الأخر أضرار كثيرة .. هذه كلها وتريد أن تبقى في بغداد ؟
- حجي .. انتظر ما سوف ينقلون لك مـن البـصرة والنجـف وكـربلاء والناصرية والكوت وكركوك ..
- بس .. بعقوبة ما بها غير البساتين .
- والبساتين .. ما بها ماء .. وما دام هناك ماء .. هنـاك حيـاة .. وهـم يريدون قتل هذه الحياة .

وما بين المذياع وشاشة التلفاز , راح المعلقون والمخبرون يعلقـون عـن مرحلة ما بعد الحرب مباشرة :(خلاف بين أميركا وبريطانيا, بشأن عراق ما بعد الحرب .. فرنسا وروسيا وألمانيا يبحثون عن موطئ قدم , عن حـصة من الكعكة العراقية , أميركا ترفض وتريد أن تـستأثر بثـروات العـراق , وبريطانيا تريد أن يشاركها عدد من الأصدقاء في جني الثمـار وأن يكـون للأمم المتحدة دور في المسألة العراقية .. المعارضون للحرب في كل مكـان من العالم , منظمات الإغاثة الدولية تدعو إلى تقديم المساعدة للشعب العراقي ..)

- سالم .. هل صحيح هذا الكلام . العراق الذي يملك الخيرات .. يستجدون له الآن ؟!
- نعم حجي .. نعم العراق صار بلد الحروب .. والحـروب تعنـي الـدمار والخراب والجوع والمرض .. تعني الموت .

- وأنت قاعد هنا .. يعني أنت تنتظر الموت , وتريدني انتظر معك!
- حجي .. تعتقد أننا نقدر الانفلات من الموت ؟
- الابتعاد عن التهلكة في الأقل ..

صمت سالم , لم يكن يريد الإطالة في مناقشة أخيه , فليس بوسعه إقناعه في الاعتذار عن المجيء معه , وليس بوسعه إقناع نفسه وعائلته بالبقـاء .. أخذته الحيرة كل مأخذ . كانت السماء تبدو مريضة , شاحبة , قلقة , متوترة , عصبية على حياة الصحو .. الأمر الذي انعكس على الوجـوه والنفـوس , وجعلها تعاني من الاختناق والمرارة .. في ما كانت القنابل والصواريخ تملأ أصواتها الفضاء .. وتعطلت الكلمات , في وقت أصبحت الأصوات قريبـة , تدق هنا , تصيب هناك , هذا مكان , يسقط هذه الأصوات تعلو .. هذا أنـين موجع .. هذا مطر طيني يتساقط , هذه اطلاقة تصيب الجدار , هذا الزجـاج يتكسر .. هذه الأبواب تتحرك ذاتيا وبقوة .. الحرب عند الباب وستدخل البيت بلا استئذان في أية لحظة ..

عناء

بإطلاق سراح الأطفال منذ ثلاثة أعوام ألح علي سؤال :

- هل أنا على خطأ أم أن العالم كله يسير باتجاه خاطيء ؟ ولم أصل إلى جواب يرشدني إلى سواء السبيل , أو يطمأنني عن الحالة التي أنا فيها , والتي باتت تؤرقني , وتشد أعصابي وتجعلني في حيرة من أمري .

سألت احد زملائي .. السؤال ذاته , فبادر هو وسألني :ـ صار لي ابن وبنـت . يعملان في مستشفى المدينة .. أطباء , غير أنهما يستعينان بي مثلما , مثلمـا كانا طلابا في كلية الطب .. بل زادت طلباتهما ... فهل أنا خاطئ حين أعـددت أبنائي لعمل أنساني مرموق .. وجعلت منهم أطباء ؟

كبر سؤالي , وصار لي زميل يشاركني السؤال نفسه . سألت جارا لي أثق به . قال على خجل :

- ابنتي الوحيدة أغمي عليها أثناء العمل .. وهي كما تعلم مهندسة معمارية .. ستسألني عن السبب .. وأجيبك .. الجوع , لا شيء غير الجـوع .. فلـم يعـد بمقدوري أن أوفر للعائلة أرغفة الخبز .. أنا الذي أسألك .. من فينا على خطأ .. أنا , أم ابنتي .. أم الناس ؟ .. صوت ثالث, راح يـسأل سـؤالي .. دون أن يجد أي منا جوابا .. قلت لنفسي :

- بالتأكيد .. هناك , رابع .. وعاشر . يسألون السؤال ذاتـه, ويبحثـون عـن جواب .. دون أن يلقى السؤال على آذان تصغي , أو عيون ترى .. فما الـذي بامكاني فعله .. أنا ضابط الشرطة الذي درس القانون وأحب العدالة , وبات من اعز أحلامه تنفيذ جوهر القوانين ونشر العدالة على أوسع رقعة ؟.. كنت بـدأت بنفسي , وعائلتي .. ومن ثم المجتمع ..

كنت افعل هذا بإحساس كامل بالمسؤولية .. ألا أن كثرة من الأصدقاء اتهمـوني بالمثالية , وقد رضيت بالتهمة , دون أن أجد فيها ما يجعلني انفيها عن نفسي . تمسكت بالتهمة , التصقت بها , أردت أن أكون قدوة حسنة أمام نفـسي وأمـام

أولادي وزوجتي وكل الناس . كانت وضيفتي تتيح لي الكثير مـن الفـرص لان اغتني .. فالأمر سهل , وأنا قادر على فعل الكثير .. وتلقى.. الكثير من الهـدايا .. والكثير .. لم يفلح في تغيير مسار حياتي .. وكنت اسعد من الجميع ,وغنـي غني جدا أمام نفسي . ألا أن الأمور بدأت تقفل سبلها .. الواحد بعـد الأخـر . جيوبي بدت مملوءة بالهواء .. قوت يومي بدا يقل طبقا بعد أخر وبشكل سـريع كأن احد يريد سرقة من مائدة طعامي .. فراح يهرب من أصـابعي .. وصـارت أصابعي عصية على تناول رغيف من الخبز الحار .. ومن ثم الجاف . ومن ثـم الحديث عن العزيز .. العزيز .. حتى صار قمرا في أيام سود . وحين كنت أحدث أبنائي عن صحوة الأشياء , ونقاء العالم .. سخر مني ابنـي طالـب الدراسـة المتوسطة .. غضبت حدقت في وجهه بعينين عاتبتين حادتين .. قال:

- لا تغضب يا أبي دعني أقص عليك ما يجري في المدرسة . وتركته يتحدث . قال :

- حين سألت مدرس الأحياء .. عن سبب ضآلة درجتي .. مع أنني كنت اعرف بان أجوبتي كانت صائبة ومتكاملة .. أجابني :

- لماذا لم تقم بمراجعتي لنذهب سوية إلى السوق ؟ واستمر ولـدي يتحـدث : وحين كان زميلا لي يدخن في قاعة الامتحان , منعه مراقب الامتحان , عندئـذ جاء بالمعاون إلى القاعة بعد أن دفع له مئة دينار ...

المعاون وضع في جيب المراقب عمله ورقية من فئة الخمسين دينارا . وبـذلك عاد زميلي يدخن .. وينقل من الدفاتر والكتب كما يشاء .. مدرس أخر , قال لي بعد أن دفعت عنه أجور النقل .. راجعني عند الامتحان ..؟

وفي اليوم التالي جاء ابني .. وحدق في وجهي مليـا , كأنمـا يريـد يحملنـي مسؤولية كل ما يجري من سلبيات في هذا العالم .. سألته عن أمره , فأجاب :

- قررت أن اترك الدراسة ..

- تتركها .. كيف ؟

- لأنه لا يوجد سبب واحد يغريني بالبقاء ..

كان يعرف جوابي يعرف أنني كنت أعده للمعرفة لا للحصول على شهادة وهمية لم يبذل جهدا عقليا من اجل تحصيلها ..

كنت ادعوه دائما لان يعرف الأشياء ويتعلم كل الخصائص المتعلقة بهـا , عـن طريق حبه لها .. فمن لا يحب , ومن لا يتمتع بأدوات عمله لا يمكن أن يتعلم .

- لست منتميا يا أبي .. الناجحون هم الذين يحملون الانتماء .. الانتماء تمييـز .. نجاح مضمون ابلغونا بذلك علنا .. ونحن نجلس في قاعة الامتحان ! حاولت أن اهضم الكلمات وأراجعها .. واجد لها تبريرا قد يعينني على إيجاد تبريـرات اقنع بها ولدي حتى يستمر على مواصلة دراسته .. قلت له :

- يا ولدي . فليكن كل ما قلته صحيحا ..

- وهل لديك شك فيما أقول .. هل كذبت عليك في أمر يا أبي ؟ أردت أن أقول له : بأن ما يجري إساءة للقوانين , وخروج عن قيم وعدالة التعلم والتعليم , غير أنني خشيت من تعميق حالة الاحتجاج والرفض عنده .. وبالتالي سـيلحق الأذى بنفسه حتى يصل إلى التهلكة ..

سارعت القول :

- بالعكس .. أنت صادق في كل ما تقول , ولكنني كنت أريد أن ادعـوك لتأمل اقوالك فهم لم يقولوا لكم .. بان الطالب غير المنتمي .. سيرسب في صفه , أو سيتم فصله .
- هل هم بحاجة إلى إصدار مثل هذا القرار .. قد يفعلون من اجل الضغط على الطلاب .. استثناء الطلاب المنتمين من الرسوب , أجراء لا يحفزنا على الدراسة ..
- وتوقفت عند فمي معلومة مماثلة ابلغنا بها نحن ضباط الشرطة :
- من يبلغ أو يلقي القبض على جندي هارب , يتقدم وظيفيـا , وحزبيـا ويعطى مكافأة مادية مغرية تعادل رواتب سنوات طويلة .. غيـر أننـي كتمت ما اعرفه .. أقفلت فمي .. حتى لا أزيد نقمتـه .. كـان ولـدي يرقبني بدقة .. وأكاد اجزم انه يعرف ما يدور في داخلي , وأنني أقـف إلى جانبه .. وأضم صوتي إلى صوته .. غير إنني أخشى منـه علـى

نفسه .. كنت أريد أن أبوح له بأمور كثيرة , غير إنني كنت أعدها من أسرار العمل .. وكانت زوجتي تلح في معرفة مصدر قلقـي .. لكننـي كنت أجيب بالنفي دائما .. وأنني أنما أتأمل في قـضايا الجـرائم التـي تتفاقم دوافعها هذه الأيام .. فذلك من صميم عملي . وحين كنت أمارس هذا النفي الذي الزم به نفسي دائما كانت المشاهد الدامية , تلاحقنـي , تثقل علي , تخنقني .

.. كنت أرى احد الضحايا .. يصرخ , يصرخ داخل قفص حديدي , والنمور التي جيء بها من حديقة الحيوان .. جائعة بها رغبة نهمة لافتـراس كـل شيء .. حتى تقتل جوعها .. كنت أراها تقطع أوصـال الـضحية قطعـة .. قطعة .. كأنما أشاهد احد الأفلام البارعة في تقديم مشاهد العنـف والـدماء بطريقة تخدع فيها البصر .

أو أنفذ أمرا .. يلزمني بان القي بعائلة كاملة في عمق ليل شـتائي , وفـي مكان صحراوي معزول عن العالم .. عند الحدود .. ثم أعـود , كأنمـا قـد ألقيت بنفايات , وتخلصت من شرور .. عالقة بي ! وأعود من هذه المشاهد الفتاكة لأرى رؤية العين .. ذلك الصبي الذي يقود سيارة فخمة بحيث يتلاءم لونها مع لون ثيابه .. ويستبدلها في اليوم عدة مرات حسب طبيعة ملابسه . والشاب النزق الأخر .. الذي يتشهى النساء مثلما يتشهى قلوب الغـزلان أو السنة البلابل .. كان يعد كل يوم ثلاث فتيات من أجمل ما أعطت المدينـة .. واحدة لفطوره , وثانية لغدائه , وثالثة لعشائه , وما بين الفطـور والغـداء والعشاء .. اختبارات واختيارات للمرأة الأجمل .. ويتسلى بإطعـام أسـماكه الكثير من البيض .. فيما يعرف أن المرء صار بمقدوره الحصول على البدر بكامله واكتماله .. بالتمني .. في حين صار من النادر جدا أن يمني نفـسه بالحصول على بيضة واحدة ! كذلك بات ذلك الشاب , يبعد عن نفسه السأم , بمراقبة ضحية تشوى على نار هادئة مصحوبة بإلحان الصرخات التي تتحول إلى أنين .. ثم آهة .. ثم يبدأ صوت الشواء ورائحته .. عندئذ يكون الشاب في كامل بهجته .. وأقداحه مملوءة بالمسرات .. ما الذي يمكنني قولـه ..

وأنا أرى .. أرى , واسمع , وأحس , وأدرك أن القانون الذي أمثله وأسعى لتنفيذه , بات آلة موسيقية يعزف عليها .. كثرة من ضجروا من فراغ هائل يحيط بهم , فراحوا يبحثون عن السلوى بالعزف على آلة القانون .. لمـاذا إذن أتعلق بأهداب الشمس .. وأنا اعلم أنها أهداب مقطوعة .. لمـاذا أظـل أتحدث عن القيم .. حتى بات اصغر أبنائي يسخر مني .. حين جئت بفاكهـة .. وجدت إن أكثر من نصفها فاسد .. وحين حملت تلفازي بعد دفـع مبلـغ خمسة ألاف دينار لإصلاحه , فإذا هو أسوأ مما كان عليه قبل إصلاحه ..!

وحين تبين لي أن الطحين الذي جئت به من الوكيل متكامل في وزنه علـى عكس ما اتهم به كونه لا يفي الميزان حقه .. ثم أتضح أن هذا الطحين قد تم خلطه بمادة الجص .. وربما سيقول البعض مبررا هذا الغش بأنه مـساهمة في بناء الإنسان لا بناء البيوت .. وان مثل هذا البناء يعد ظاهرة حـضارية تحتاج إلى دعم مستمر ..؟

أراني قد خرجت عن القضية المتعلقة بالخطأ , بالانتقال إلى محـور يتعلـق بابني , وشططت حين توجهت نحو مواجهة نفسي وألقيت عليها تبعة قانون قمت بدراسته لسنوات طوال .. وكنت أمني نفسي بتنفيذه .. فإذا أنـا , أنـا بالذات , اعزف عليه أو أتباهى بها حين أضعه على رف أنيق .. مثل , مثل شهادة القانون التي اسجنها داخل إطار أنيق أيضا وأعلقها في صدر غرفـة الضيوف !

أحزان روحي واحدة .. شتاتها أوصالي .. وتوزعها مقتـرن بهـذا الثقـل الرهيب الذي ينوء بي ويحيلني إلى عدم ..

بت لا أثق بطفل السنوات الخمس .. ابني العزيز .. فقد جاء وونـي بطفـل يماثله , جر والده إلى الموت .. أغروه بالنقود والحلوى والدراجة التي كانت كل أحلامه .. ونقل الطفل عن أبيه , انه يقفل التلفزيون كلما رأى (الأميـر) يظهر على الشاشة , وانه لا توجد لـ(الأمير) صورة واحدة في البيت كلـه .. وان والده يلتقي عددا من الرجال كل يوم , ويتحدثون كثيرا في أمـور لا يفهمها .. طفل السنوات الخمس لا يؤتمن . علي الاحتراس منه .. لذلك كنت

ألاعبه بحذر , وحكاياتي له مقيدة .. وحديثي عن الأمير أحاديـث حـسنة , خاصة حين تظهر صورته على شاشة التلفـاز . كمـا حرصـت أن تكـون لـ(الأمير) صورة ملونة مكبرة في غرفة الاستقبال .. استعداد وحذرا مـن أي طارئ قد يواجهني . غير أن طفلي كان يحببني إلى نفسه , ويحـل لـي حرجي .. ويعالج جراحي . يرسم لي تفاحة بخدين أحمرين .. ويقول شـكل التفاحة جميل يا بابا . ألا أن طعمها حامض .

وحين يصحبني إلى سوق الخضار يبرر عدم شرائي للخـس بأنـه مملـوء بالرمل الذي يضر بالمعدة .. وان الرمان يترك بقعا في الثياب بحيث يـصبح تنظيفها صعبا .. وان الحلوى تسبب تـسوس الأسـنان ..! وان النفاخـات الملونة تنفجر بمجرد ملئها بالهواء . كنت أعجب منه , كيـف يبـرر لـي ولنفسه كل شيء , ويعفيني من الحرج أو من الرفض والاعتـذار .. وهـو يرى أن النقود التي في جيبي تتضاءل .. تهرب , الأمر الذي يضطرني إلـى بيع حاجات منزلية ضرورية لشراء مادة غذائية نحن بأمس الحاجة إليها .. كان يراقب أمه وهي تصنع معجون الطماطة من الشوندر .. وترتي الثيـاب القديمة .. وتحرق أصابعها في كل مرة تعد فيها الخبـز الأسـمر .. مثلمـا تحرق كل القدور .. لانشغالها بعدة أعمال في المنزل , وتدعي أن ما تركتـه في كل مرة يحترق فيها القدر .. أن محتوياته محمصة .. وحين أنقـل لهـا خبر فلان من الأقارب قد مات لعدم وجود دواء لمعالجته .. تقول بأنه يصاب بالإغماء أحيانا .. مع أن أهله قد دفنوا جثته .. كانت تخفـف عنـي وقـع الكوارث .. ومع أنني كنت أحول الأمر إلى ابتسامة , ألا أنني فـي أعمـاقي كنت اعرف حجم الأسى داخل روحي التي ترى الأشياء تذبل شيئا .. فـشيئا ثم تموت فأحس بان هذه السماء على علوها قد انخفـضت .. وانخفاضـها مستمر . وسوف تنطبق بالأرض .. وسأكون ما بين هذا الانطباق لا شيء .. أو شيئا كأنه لم يكن أصلا . ابحث عن نفسي التي باتت تفلت منـي .. فـلا أفلح .. وفي لحظة تعويض عن هذه النفس الحبيسة , أطلقت البلبل الأسـير عندي وعند طفلي العزيز .. مع انه كان بتغريده وقفزاته يفرح طفلـي .. ألا

أنني كنت أحس باختناقه , وان تغريده ليس ألا هذا الشجن العذب في داخله , وانه يعرف .. يعرف جيدا انه داخل قفص .. لذلك اتخذ قراره بعدم ألقـاء بيضته .. ليخرج منها كائنه يعاني منذ يومه الأول من العبودية .

احترمت قرار البلبل .. فهو إلى صغر حجمه لا يريد أن يورث إلـى أبنائـه السجن .. في حين كانت كل النمور تتآلف مع السجن وتقـصف بلـذاتها .. وتودع لمن معها وبعدها السجن ..

البلبل يغني لخلاصه , يمني نفسه بالخروج إلى الهواء الطلق يمتع الأسماع .. لعل قلبها يرق فتطلق سراحه .. وفعلا صار قلبي من الرقة بحيث نـسيت مهمتي .. ضابطا للشرطة , وفتحت له باب قفصه .. فحلق عاليا . في حين كنت أمني نفسي بالتعلق في جناحيه .. رآني ابني العزيز .. فرحا وأنا أطلق البلبل .. ففرح لفرحي .. فيما كنت أفكر ببكائه .. كانت فرحته تزيد فرحي , وتجعلني أباهي نفسي به .. وحين مارست عملي في ذلك الـصباح فوجئـت بأطفال أودعوا السجن .. سألت عن السبب , فجاءوني بـأوراقهم . احـدهم كان يبيع العملة المعدنية فئة (50) فلسا بفئة ورقية مقدارها (50) دينارا . وقد حصل هذا عندما كان الطفل يمارس (مهنته) قرب هاتف عمومي .. ما المشكلة إذا ..؟ لو وجدت العملة المعدنية , ما كان لمهنة هـذا الطفـل أن تكون . الآخر كان يبيع السكاير الأجنبية .. في حين كنت أعرف كما يعرف سواي بان الكثرة يدخنون ويتجاوزون هذه الرغبة بالتـدخين .. للمتـاجرة بالدخان الأجنبي والسلع الأجنبية . الم نرى جميعا تلك الإعلانـات التلفازيـة والموضوعة على واجهات المحلات وهي تعلن عن قطع غيـار أمريكـي .. وسواه ؟! آلمتني هذه الشجاعة الزائفة في تطبيق القـانون علـى طفـل , وتذكرت أبي , وهو يحدثني عن المعري , الذي وصفوا لـه دجاجـة أثنـاء مرضه , فما كان منه ألا أن يسألهم .. ويدين ضعفهم .. إذ وصفوا له كائنا مسكينا , ولم يتمكن أي واحد من وصف أسد لعلاج مرضه .. وظـل طـوال حياته نباتيا .

وقرأت أوراق طفل ثالث , أتهم ببيع الحلوى .. والحلوى ممنوعة من التداول , كونها استخدام غير مشروع لأستهلاك السكر .. مما يساعد على ارتفـاع سعره .. أصدرت قرار الثلاثة .. وكان لي أسبابي في اتخاذ هذا القرار الذي حاججت به زملائي .. قلت :

- هل تفضلون قيامهم بالسرقة ..؟ قالوا بصوت واحد : لا.

- قلت كيف يعيش الناس .. الكبار لا يجدون العمل , وإذا وجدوا العمل .. الأجور لا تكفيهم .. وإذا ساهم الأبناء بمساعدة إبائهم جئنا بهم إلى الـسجن .. نحن نضع الناس في البحر . ونطالبهم بان لا يبتلوا ! ودخلت في نقاشات عن الممنوع وغير الممنوع .. وتبين للجميع بان الشيء الوحيد الغير خاضع للمنع .. كلمة (ممنوع) !

حين عدت إلى البيت , وجدت أمامي مشكلات عديدة ينبغي علي حلها : قناني الغاز فارغة , الحصة التموينية نفذت , العقار الطبي الذي احتاجـه لعـلاج ارتفاع ضغط الدم لابد من استلامه بالدفتر الصحي . ابني الصغير يعاني من التهاب القصبات .. والآخر .. الآخر – وهنا المحنة – حائر حائر في اختيار طريق مستقبله بين الالتحاق بالجندية وبين الانخراط فـي هيئـة التـصنيع العسكري .. مما يعرضه للسموم . أهملت كل شيء وانصرفت إلى المـشكلة الأساس .

قال لي والدي :

- لماذا لا تدعني أصبح جنديا ؟

- قلت بأسى عميق :

- لم تعد الجندية خدمة , خدمة الوطن .. الجندية عندنا باتت تعني تقـديم الخدمات الشخصية للضباط وتنفيذ أوامرهم مهما كانت .. وألا عدوك خائنـا ..

- والحرب ..؟

- حرب من .. أما أن تحارب الأكراد في الشمال , أو سكان الاهوار أو تقوم بالتحرش بجيران بلادك .. أو تقمع الأصوات المضادة بالرصـاص .. هـي حرب (الامير) وحده .

- لكن سنوات الخدمة محدودة يا أبي .. سنتان وأصبح حرا , بينما العمـل الإلزامي في التصنيع والمجزي للخدمة العسكرية يستغرق عـشر سـنوات !

عاندت بكائي الحزين .. وقلت :

- يا ولدي , لا يوجد شيء ثابت في هذا البلد .. سنتان على الورق بينمـا الخدمة ممتدة لأعوام طويلة ..

- في التصنيع نتعامل مع السموم ! وبت حائرا .. اعرف هذا .. وأمامي أن اختار ما بين موتين لا ثالث لهما .. ولا خروج من المأزق ألا بأحد الموتين . عدت اسأل نفسي

- أين الخطأ .. هل كان ينبغي علي أن أعد أبنائي للموت .. هكذا ؟ وانتابني شعور بالقلق والحيرة .. شعور بأنفاس يحتبس فيها الهواء . سقطت أغمي علي . ولا أعرف بعدئذ ما كان وصرت إليه .. حتى وجدت نفسي على سرير ابيض محاط بأنين يأتيني من كل جانب .. عرفت أنـي داخـل مستـشفى . عرفت أنني عاجز عن فعل شي ء ما عرفت أنني أذيق نفـسي العـذاب ... عرفت أنني لست وحيدا في هذا الحزن كله .. مما يزيد أساي ولا يخففـه . بعكس ما يحس البعض حين يشاركهم الآخرون بالأحزان والمشكلات .. مما يخففها عليهم .. بالعكس .. كنت أرى أن الأنين المشترك يمكن .. يمكن لـه أن يفعل شيئا .. أن يجعل النهار يـستيقظ فعـلا .. ويتخلـى عـن كـسله وفتوره.. أن يدق أجراسه ويعلن عن حفل الشمس .. كنـت أتفـاءل داخـل روحي .. ومع هذا العناء المرير كله .. أفكر . أعمل من أجـل ومـضة .. ومضة نور .. آتيها .. أتوجه إليها بوعي وإرادة .

إعدام حلم

في قلب الليل، سمع دقات خشنة على الباب .. نهض من فراشه الدافئ وضربات قلبه تخفق بقوة، ركض إلى الباب يفتحه.

كان يقف عند الباب عدد من الرجال بأزياء عسكرية ومدنية مختلفة، وسيارة قاتمة اللون، أخذوا منها كيساً أسود – أعتاد أن يجمع فيه الأوساخ – كان الكيس ثقيلاً، بحيث وجد ثلاثة أشخاص يحملونه ليرموه أمام بيته .. وقدموا له ورقة ..

خاطبه أحدهم بغلظة:

- هذه الجثة تعود لأخيك، وهذا إيصال بدفع مبلغ (25) ألـف دينـار ثمـن الاطلاقات.

فوجئ بكل شي سريعاً يجري.. بحيث وجد نفسه في حالة ذهـول وعجـز عـن الكلام.

قال آخر بهدوء:

- إذا لم يكن المبلغ جاهزاً .. تدبر أمره غداً، وحال دفعه .. تتسلم الجثة مع أجور النقل.

ومن فوره .. وجد نفسه يتوسل إليهم:

- المبلغ موجود .. موجود.. وركض إلى الداخل .. سألته زوجته عن طارق الباب فلم يلتفت إليها ولكنها وجدته في حالة لم يسبق أن وجـدتها فيـه أبدا، كان كمن لسعه عقرب أو ثعبان أو داهمته النيران .. يـركض هنـا وهناك، يأخذ رزمة نقود ويتجه نحو الخارج..

- تفضلوا هذه هي النقود..

وسلموه الجثة و الإيصال، وجعلوه يوقع على أوراق أخرى.. قـالوا لـه إنهـا إيصال آخر باستلام الجثة، وأنه يتعهد بعدم إقامة مراسيم الدفن والفاتحة علـى روح أخيه، وأنه يشكر المسؤولين على إنزال القصاص العادل بأخيه، لأنه – كما يقول كتاب الشكر- آفة شريرة كان لابد من إنقاذ الناس من شرورها.

وتركوه مذهولاً، وحيداً في عتمة شتاء قاس مع الجثة .. أمام بـاب صـدئ .. حاول أن يرفع الكيس/ الجثة .. لم يفلح، نادى زوجته. جاءته. سألته، لم يتمكن من الإجابة، لكنها استطاعت أن تفهم الأمر عندما راحت تسحب معه الكيس..

أحس انه جثة مرمية يجرها الناس جراً على ارض خشنة، تأكل شيئا فشيئا من الملابس والجسد، وتترك على الأرض خيوطا حمراء قانية.

وكتم نحيبا وصرخات فزع، وجعل للدموع جداول تمر من خلالها...

استيقظ الأولاد جميعاً، وخفتت أصواتهم التي اعتادوها كل صباح .. كان منظـر الأبوين قد جعلهم جميعاً في حالات من الصمت والقليل من الهمس.

كانوا يعلمون ان لهم عم .. لم يعرف من الدنيا إلا برها وصدقها ونبلها .. وقـد اختفى من أمامهم ذات مساء، ولم تفلح كل الأسئلة وكل طرق البحث عن معرفة شيء عنه..

الآن .. عرفوا أين كان العم. الآن .. قرر زيارتهم، زيارته الأخيرة وأن يودعهم هذه المرة، حتى يغيب عنهم .. إلى الأبد.

وقبل ان تفتح الشمس عينيها، وقبل ان يغسلوا وجوههم لاسـتقبالها والحفـاوة بها.. رفعوا كيساً.. و حطوه على مكان أثير في الغرفة، فتحـوا الكـيس، رأوا وجها مبتسما سمحاً، منحنياً كأنما يودعهم باحترام ومودة، وكان لإغماضه عينيه نوع من الوقار والجلال والخشوع والهدوء.

فرقوا الكيس الأسود النتن، جاءوا بشرشف أبيض .. غسلوا له وجهه وجراحـه وأوراد جسده. ألقوا عليه نظرة أخيرة، انحنى الأب وقبله، انحنى أصغر الأبنـاء وقبله .. حس البقية بالغيرة، فقبلوه جميعاً، وقبلته ألام من قمة رأسه، وراحـت تصلي له، وتئن من رهبة وحزن عميق.

جاءت عروس أحد الأبناء بعطر كانت قد اختزنته للأيـام الـسعيدة .. وراحـت تسكبه على الجسد النائم بخشوع تام.. كانت تعلم انها لحظة التجلـي والقدسـية الجديرة بالرجل.

و.. حملوا الجسد في الغبش، أودعوها ترابا هشاً، قادهم إليه جار شهم، وضع سيارته في خدمة جاره.. قال انه مكان، كان قد أوصى ان يدفن فيه .. وأنه مادام حياً الآن، من السهل عليه أن يختار مكاناً آخر...

اتخذ المقهى مكاناً للهروب من المعزين .. ممن علموا برحيل أخيه في حادث مؤسف.

كان لا يعرف كيف وصل الخبر إليهم، وحتى يجنبهم شر الأسئلة، وحتى لا يحسب العزاء الذي يقدمونه إليه بمثابة تعاطف مع الرحيل والراحل، التحق بمقهى الحي.. وهو الذي لم يكن يقصده إلا في أوقات نادرة.

كان عدد من الحضور يجلسون إلى جانبه، يحيوه، ويأنسون إلي أحاديثه في شؤون الحياة وحكمتها..

ومرة .. وشمس آذار تبدو دافئة، حيية في صباح هادئ.. همس في أذنه صديق.. قال:

أمس رأيت حلماً.. حلماً غريباً، لا عد لي بمثله أبداً.

تلفت نحو كل الجهات. لم يكن هناك أحد. اطمئن.. ومضى يتحدث:

أمس أيقظني حلم.. حلم وجدت فيه وقد تحولت إلى إمبراطور للبلاد.. وكنت رئيس وزرائي ومستشاري، وكان في حكومتنا وزراء نثق بهم ونعتمد على كفاءتهم.

كانوا/ العميد أحمد مرعي وزيراً للدفاع، علي الصابر وزيراً للمالية، قائد سعيد وزيراً للنفط، باهر النعمان وزيراً للخارجية، طلال بهاء وزيرا للثقافة و الإعلام.. وراح يعدد أسماء كل وزير وموقعه الوزاري .. وطلب في النهاية تفسير الحلم!

ضحك الرجل منه، قال له أن ومعدته كانت مثقلة بالطعام.

أجاب الرجل الحالم: إمبراطور .. هل يمكن لإمبراطور أن ينام ليلته جائعاً.

- يبدو أنك صدقت أحلامك، وجعلتها واقعاً

ضحكا معا، كانت ضحكتهما عميقة وحزينة.

في عمق الليل سمع دقات جديدة على الباب .. دقات عنيفة أقوى بكثير من تلك الأوقات التي سمعها عند استلامه جثة أخيه.

فتح الباب .. وهو في حالة قلق وخوف وحذر.

وبلا مقدمات، جرته يد قاسية أوقفت حركة الأوردة والشرايين معاً .. ودفعته إلى سيارة داكنة اللون، شبيهة بتلك السيارة التي حملت الجثة.

حاول أن يتكلم، ان يتوسلهم ارتداء ملابسه، إعلام أهله بالأمر..

حبسوا أنفاسه ووضعوا يديه في أصفاد غليظة، وأغمضوا له عينيه بمنديل قـذر .. تبرع أحدهم لإنجاز هذه المهمة.

لم يسمع سوى حركة محرك السيارة ودوي رأسه وأعصابه.

ووجد نفسه في غرفة قميئة نتنة مع صاحبه الحالم.. وارتـسمت أسـئلة علـى وجهيهما، أدركا أن تهمتهما واحدة .. وان أحلامها القتيلة واحدة أيضا.

بعد قليل .. انضم إليهما ثالث ورابع .. وعاشر، رحبوا ببعضهم، فلم يكونوا قد التقوا منذ زمن .. سألوا بعضهم البعض الآخر .. عن أسباب جمعهم هنا، ولـم يتمكن أحدهم من الإجابة .. إلا انه وحده كان يعرف السبب، وكان يخشى الحديث عنه لئلا يصبح حقيقة، لئلا يكون جناية وشهادة إثبات، وإقرار بما حصل..

وجعلوا يتساءلون، وتتسع أسئلتهم وشكوكهم، وراح الانتظار يأكل في نفوسهم، حتى وجدوا أرواحهم .. هائمة في قلق وخوف ..

عند الظهر والشمس في قلب السماء .. بهيجة ، عذبة،دافئة .. نادوا على الرجل الحالم .. فصار البقية في حالة توتر واستنفار وترقب. نادوا علي البقية دفعـة واحدة.

سأل الضابط، حامل التاج والنجوم الذهبية:

- حدثنا عن حلمك يا سيد..
- حلم أي حلم!
- الحلم الذي تحدثت به في المقهى..
- ها .. إنه مجرد حلم، لقد نسيته.
- ومتى ننسى الإمبراطور، يوم توليه منصب الإمبراطور، إنه يوم لا يمكن نسيانه؟
- سيدي، انه حلم مر، وليس حقيقة!

- وهل كنت تريده أن يصبح حقيقة..؟
- لا .. لا، أدام الله لنا الإمبراطور.
- إذا كنت تريد بقاء الإمبراطور، وتدعو له بطول العمر..؛ اذا لماذا فكـرت بإشعال منصبه و لماذا عمدت إلى تشكيل وزارة من أصدقائك؟
- انهم ليسوا أصدقائي جميعاً، هناك أشخاص لم اعرف وجوههم، ولكننـي كنت اعرف جيداً كفاءاتهم.
- نعم.. هكذا. هذا جيد الآن بدأت تعترف. تريد وزارة كفوءة .. وهذا يعني ان تشكيل الوزارة القائمة لا يتمتع بالكفاءة؟
- لم أقصد هذا .. إنني ..

وتوجه إليه:

- ها تريد استعادة أمجاد من سبقك .. أخوك لازال هاجـسك، أنـت تعمـل بالهاجس نفسه الذي عمل به .. أخوك . اشرح طبيعة الخطة.
- ليست هناك خطة يا سيدي، ولا دور لي فيها، انه مجـرد حلـم .. حلـم أصغيت لصاحبه.
- ولماذا لم تخبر رجال الأمن به؟
- حلم عابر .. لا يمكن ان اشغل به جهاز الأمن .. المنشغل بأمن وسـلامة البلاد، وليس الإصغاء الى أحلام الناس.
- ها .. أنت تتمادى، تعطينا درساً في طبيعة عملنا .. يا سيد .. قد تكـون الأحلام أخطر بكثير من الواقع .. الواقع يمكننا السيطرة عليه بسهولة .. لأننا نراه، الأحلام وحدها هي مشكلتنا، وهي الـصعوبة الوحيـدة التـي نواجهها ونحاول السيطرة عليها .. أنها ترانا بعيون مكبـرة، ونحـن لا نراها .. وهنا يكمن خطرها ... أحلامكم مصدر الخطر.
- سيدي .. حتى أصحاب الأحلام أنفسهم، ليس بمقدورهم السيطرة عليها.
- هذه مشكلتهم .. إن عدم قدرتهم ، ناتج عن ضعف إرادتهم ..أما نحـن، فنتمتع بإرادة قوية، ويمكننا حسم كل الأمور لصالحنا .. ها، ألا تريد أن تعترف وبالتفصيل؟

- عن اي شيء اعترف يا سيدي؟
- عن الحلم .. أين كنتم تجتمعون، من كان يشاركم أحلامكـم، مـا هـي عناوين البقية..؟
- سيدي .. الأخ حدثني بحلمه وضحكنا منه .. من حلمه ووزرائه.
- ولكنك كنت رئيسا للوزراء، لماذا اختارك دون سـواك، ولمـاذا اختـرتم هؤلاء الوزراء دون سواهم..؟
- سيدي .. إمبراطور حالم، الحلم سيد النوم.
- ها .. إنه سيد عليك لاعلينا. قل لي عناوين البقية .. بقية وزرائك.
- سيدي .. انا اعرف بعض هؤلاء معرفة بسيطة، وهناك مـن لا اعـرفهم أصلاً، هناك أموات ومرضى ومسافرون غادروا البلاد منذ زمن.
- و .. تقول انك لا تعـرفهم .. كيـف عرفـت انهـم مـوتى و مرضـى ومسافرون..
- .. أ .. الست من هذا البلد، أليس من حقي معرفة أبناء بلدي؟
- ها.. من حقك، لك كل الحق .. وانتم ..؟

التفت إلى الوزراء .. سألهم عن نواياهم وما يهدفون إليه في برنامج عمل كـل واحد منهم.

ظل الوزراء في حالة ذهول، لا يصدقون كل ما يجري أمـامهم، ومـا اذا كـان يعنيهم!

ولما عجزت المحكمة العليا عن الحصول على أجوبة كان من الممكن ان تبريء المتهمين من التهم الموجهة إليهم فقد اعتمدت الشريط الصوتي دلـيلاً جرميـاً ثبوتياً وأصدرت أحكامها بأسم الشعب وعدالة الإمبراطور .. بإعـدام الحـالم و صاحبه، والحكم على جميع الوزراء بالأشغال الشاقة المؤبدة لمدة (20) عاماً .. وتسري هذه الأحكام على جميع المتهمين الواردة أسماؤهم سـواء كـانوا مـن المرضى او الهاربين من وجه العدالة .. أما الأموات منهم، فقد قررت المحكمـة إزالة الشواهد عن قبورهم وحذف أسمائهم من كافة السجلات الرسمية .. حتـى يظلوا في حالة مجهولة.

الطريقة المثلى في قلع الأسنان السفلى

أستوقفهم رأيه، وراح أحدهم يبحث عن إجابة في وجه الآخر.

طلبوا إليه أن يعيد لهم قوله، لكي يحتكموا بعد ذلك إلى عقولهم.

ابتسم... دون أن يجيب عن تساؤلاتهم...

كرروا عليه رغباتهم سماع رأيه.

قال: نحن لا نعيد على ألسنتنا ألا اسم (الزعيم) ... أما بقية الأفكار فلا أهميـة لها إلى جانب اسمه.

-اسمك مثلاً، موجود في بطاقتي

- أعده إلى أسماعنا...

قلت لا يعاد ألا اسم (الزعيم).

سأله أحدهم:

- كيف توصلتم إلى هذه الفكرة التي لم يسبقكم أليها أحد؟.

من خلال التجربة... الم تتوصلوا انتم كذلك إلى أفكاركم عن طريق التجارب التي قمتم بها؟

أجاب الآخر:

- اكتسبنا من تجارب سبقتنا

ثالث أجاب:

-الأبحاث العلمية ودراساتنا المعمقة.

رابع قال:

- الخبرة... تراكم الخبرة، جعلتنا نصل إلى حقائق جديدة.

قال الخامس:

- الأجهزة العلمية قطعت شوطاً في الرقي، وما كـان علينـا ألا أن نـسعى لاستخدامها في تخصصنا بعلاج الأسنان وقلعها.

سادس علق قائلاً:

- ظهرت أدوية جديدة...

سابع أضاف:

- من الطبيعي أن نبحث عن أسهل الطرق لقلع الأسنان...

وثمة رأي ثامن طرح على الشكل التالي: كل المعارف والعلـوم والتجـارب تسعى لتوفير السبل التي تكفل للإنسان سلامته.

أجاب التاسع:

- وفي هذا الملتقى العالمي لطب وجراحة الأسنان نسعى للوصول إلى أفضل الطرق لقلع الأسنان... بحيث نبعد المريض عن أي الم...

أجاب:

- ألا ترون أنكم تكررون الأفكار؟
- أحدهم قال:
- قد نكرر الأفكار... ولكن بقصد الوصول إلى قناعات مـشتركة.. ونحـن أفضل منكم بكثير.. أننا نستلهم تجارب الأجداد وتراثهم من دون الاعتماد على التجارب الاجنبيه الكثيرة التغيير.. أننا لا نعيد ولا نكرر، بل نستلهم.

علق أحدهم:

- ولكن لكم مثل يقول: في التأني السلامة وفي العجلة الندامة...
- ابتسم وأجاب بوجه منشرح،
- الآن وصلت إلى فهمنا...

وكيف ذلك؟

- أننا لا نعجل مثلما تفعلون في قلع الأسنان... أننا ننطلق من هـذا المثـل ونسعى لاتخاذه سبيلاً في عملنا...

ولكن هذا العمل يزيد في أوجاع المريض!

- - أنها طريقتنا المثلى...
- أضاف الآخر:
- في قلع الأسنان السفلى...

- أحسنت... ولذلك نبتكر مختلف السبل لتأخير عملية قلع الأسنان وذلك عن طريق فتح البطن والصدر، ونمر بمختلف أجهزة الجسم... ليتسنى لنا بعد ذلك المجال للامساك بمقلع نقلع به الأسنان.

عجب الآخرون جميعا وتساءلوا دفعة واحدة؛ لماذا لايتم فتح الفم وأجراء العمل مباشرة في قلع الأسنان؟.

- عجيب أمركم... ألم تكتشفوا السر؟

كان العاشر بينهم كثير التأمل، صاغياً طوال الوقت... وقد خرج عن صمته في آخر الأمر... قال:

- قد لا تستطيعون فتح أفواهكم...

انتم شهود... إذا لم اقلعها... قالها أحدكم...

1981/8/4

- بتاريخ 1994/12/2 نشرت جريدة الرأي في ملحقها الثقافي مقالاً بعنوان(عزيز نسين والكتابة بدم بارد) ليوسف ضمرة، جاء فيه بصدد الحديث عن مجموعة عزيز نسين(أسفل السافلين) التي ترجمها: عبد اللطيف عبد الحميد وصدرت في دمشق ضمن منشورات دار الحصاد/1993 ما يلي:

((أن قصة (مؤتمر الجراحين) حيث يستعرض الجراحون العالميون منجزاتهم في الجراحة الطبية ويتفوق (التركي) لأنه استأصل لوزتي صحفي من شرجه والسبب هو منع الإعلاميين من فتح أفواههم))..

ويبدو أن الفكرة المطروحة في قصتي متداولة بأكثر من لغة ومعروفة لدى عدة شعوب..

مرسوم الطاعة

ما الذي يدفعك أن تفعل كل هذا ؟

ما الذي يجعلك أن تقبل بأشياء كثيرة تعارفها نفسك، وينفيها عقلك، وتصد عنها كل حواسك؟

هل فقدت الذاكرة والإحساس ، وتعطلت إنسانيتك ..؟ هل صرت مجرد قـارب ، يسهل على الآخرين تحريكه لإيصالهم إلى الضفة الثانية.

التحقت بالجندية، وحاربت طوال أعوام مريرة بالحزن والأسى والترقب. شممت مئات الجثث.. وفيها من هو صديق لك ، ومن هو عدو لك ..

ولك أنت كانت تتوجه الأوامر دائماً لأنك قد أعتدت.اعتدت على الطاعة.. وكنـت تحسب أن الجندية شجاعة ونظام وطاعة .. حتى خيل لمن حولـك أن الطاعـة جزء أساسي من شخصيتك، وان الشجاعة والنظام تذوبان فـي الطاعـة التـي صرت تعرف بها، حتى أطلق عليها البعض:(الجندي نعم).

غير انك في كل مرة تواجه فيها نفسك ترى انك تسير على الطريـق الخطـأ، وعليك أن تغير مسار حياتك.. ثم تنفلت من هذا القرار .. ولا تعرف كيف تبـرر لنفسك هذا الانفلات. لقد جعل منك والدك أنسانا لا يعرف سوى الإجابة بـنعم.. أما لا .. فليس لها وجود في قاموس حياتك.

ألم تكن مثيراً للضحك عندما التمست العذر من زملائك للعودة إلى الفنـدق قبـل الساعة الثامنة مساء، وأنت في حفل ساهر أضيئت فيها أنوار لندن كلها .. حين كنت هناك .. في أعوام شبابك، وحين ذكرك أحد زملائك بأنك في لندن وليس في قريتك، فيما ذكرك الآخر بأن أباك الذي ألزمك بالعودة إلى منزلك قبل الثامنـة.. قد مات منذ سنوات بعيدة.. ولا وجود لرقيب يحمل للموتى خبـر عـدم طاعـة

الأبناء لأوامرهم.. قلت : اعرف .. اعرف كل هذا.. ولكني اعتدت على إطاعـة أبي حياً أو ميتاً. وسألك زميل آخر :

هل أنت مقتنع بهذا .وبهذه الطاعة التي لا مبرر لها ؟

أجبته قائلاً:

قناعتي غير مهمة ألمهم إنني لا أريد أن أكون قلقا وانا أتخلى عن طاعة أبي .

وضحك منك الجميع، ولم تبال بالضحكات التي راحت تلاحقك. صـباك هـذا ... قادك إلى شاب مطيع . يستسلم للأوامر حتى تحولـت الطاعـة إلـى خـضوع واستسلام .ووجدت نفسك من جندي، جاء لخدمة الوطن والحفـاظ علـى أمنـه واستقلاله من أي عدوان أجنبي، إلى خادم مطيع لأصغر ضـابط. تقـوم بغـسل ملابسه، وإعداد طعامـه وصـبغ حذائـه..شـرط أن يكـون الطـلاء يحمـل بريقا..وأطلقوا عليك اسم (مراسل)..وصرت تقوم بخدمة السيدة زوجة الـضابط وأطفال الضابط بدأت تسأل نفسك:

-هل تعني كل هذه الخدمة ..خدمة الوطن ؟

كنت تتقدم الضابط عندما تشتعل الحرب، فيما كنت تمشي وراء الضابط عنـدما يعم السلام !

وسألت نفسك .. هل أنا مواطن من الدرجة الثانية، وهل أن دماء الضابط تختلف عن دمي !؟

هل انه يملك رأساً لايملكه احد من أمثالي !؟

هل في الجندية ..سادة وعبيد..؟

لماذا الرواتب والنياشين والمكافآت لهم .. ولنا الموت أول الموت .. كأنما خلقتنا أمهاتنا حتى نموت على عجل ..ومن عظامنا تصنع حياة مرفهة للآخرين .. حتى يكونوا في سعادة دائمة !؟

لماذا كل هذه الفوارق ..أنت حين تراجع نفسك ترى انك أفضل من كثـرة تقـوم بخدمتهم..

أنت تحمل شهادة جامعية ، وأنت واسع الاطلاع ، تعرف حقك مثلما تعرف حقوق الآخرين ..ويقول لك بعض زملائك:

- ادفع ..أدفع ياأخي لترتاح ..
- كنت تعرف البعض من زملائك يدفعون الكثير من الأوراق المالية حين لاتكفي الرواتب التي يستحقونها إلى الضباط ..كنت تعرف أن هؤلاء الزملاء ..لايملكون رغيفا يزيد عن حاجتهم ..ومع ذلك يكرمون ضباطهم. أو يكرهون على أداء هذا الكرم الإلزامي حتى يكسبوا الراحة لأنفسهم ، ويمتعوا أنفسهم بإجازات مستمرة ، ويبعدوا عنهم أذى الحرب ..والموت المحتوم أو المؤجل .
- وترفض أن تدفع..لأنك لاتملك أصلا مايمكن أن تدفعه ..ولو امتلكت ماتدفع لرفضت فكرة الدفع أصلا لأنك تدفع لمن لايستحق الدفع له ..لان الأمر يشكل بالنسبة إليك حالة من الابتزاز ..ترفضها وتعافها نفسك الأبية وتضحك من نفسك .. وأنت تحددها بكلمة (الإباء) .وهل مثلك يعرف معنى لـ(الإباء).. أنت الجامعي.. المثقف.. والجندي الذي جاء ليخدم الوطن، ويؤدي مهمة رذيلة في طلاء الأحذية. وتنظيف قذارات أطفال ذلك الضابط، وانتظار زوجته عندما تكون في صالون للتجميل في سيارة عسكرية مسدلة الستائر!؟.
- لقد صادروا رأيك، منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه باب المعسكر... وحين قلت لرفاقك بهذا الإجراء... زينوه لك، وقالوا لك... لقد اتفقنا على هذا الجيش لهم لا يسوده ولا ينتشر فيه إلا الفكر الواحد، والمبدأ الواحد، والإيعاز الواحد.. وحين سألت رفاقك:
- هل وافقتم على هذا الإجراء؟
- هزوا رؤوسهم إيجابا... وتماديت في السؤال/ أخذت تلح، كيف يحصل هذا.... وهل الأفكار والمبادئ.... كالثوب ارتديه، ثم اخلعه عن جسدي وقتما أشاء؟ وجاءك الجواب صارماً:
- رفيق... لا تناقش، أنت منذ اليوم لا علاقة لك بنا، وأجبتهم بإصرار:
- أنا لا أنتمي إلى أشخاص.. أنا منتم لأفكار..
- وسأله أحدهم:

- وما الفرق؟
- وضحكت منه.. ضحكت كثيراً... وطردوك فيما كنت تقول...
- الأشخاص إلى زوال... أما الأفكار فهي الباقية... وخرجت... وفي قلبك أشياء كثيرة تتمزق و في رأسك صراع يقاتلك...
- وحاولت أن تتلاءم... قلت سأكون ضفدعة تلون جلدها حسب المكان الذي تكون فيه، سأحتفظ بما في داخلي، وأكتمه عن الآخرين... قلت... وهل مثلي يصلح لأرتداء واقية للتخفي... هل أصلح أن أكون سحلية.. هل أكون دودة قز تتظاهر بالموت حين يداهما خطر ما، مع أنها تعرف...تعرف أنها تقطر الحرير، تنسجه ليصبح رداء(كرام) الناس؟
- ما معنى أن أكون كذلك..؟ وتجيب عن سؤالك بنفسك... وتقوم بتنفيذ (حكمة) لا تؤمن بها ولا تحس بقناعة لوجودها، وتدرك أن أطاعة الخاطئ.. خطأ مضاعف... حتى صارت الطاعة ثوبك ووجودك معاً... ثوب تخلعه أمام ذاتك.. حتى تحترم نفسك... ووجود تضفيه... وجود آخر تحققه بالطاعة لسواك.... حتى تحتفظ بحياتك...
- هل تكون الإنسان فيك على هذه الشاكلة... هل يرضيك هذا... هل أنت راضٍ عن هذا الإجراء... أن تحتل ارض سواك بقوة السلاح وتعد الأمر.... وطنية... هل تقول مبادئك بهذا!! هل تعد كل هذا القتل والنهب والسلب عملاًانسانياً؟ ما الفرق بين ما فعله هولاكو وتيمورلنك وجنكيز خان، وما تؤمر بفعله الآن..؟
- هل مهمتك الوطنية تقتضي منك أن توجه رصاصك لكل واحد من زملائك ليؤدي المهمة التي يلزم تنفيذها...
- اختلطت المفاهيم والأوامر، الطاعة والتمرد، القبول والرفض، الحقيقة والزيف... قلبت كل الأشياء، قلبت... فهل عليك الآن.. أن تبقى ذلك الجندي المطيع؟

- الطاعة انتحار، وأنت تحب الحياة... والطاعة لعنة تلاحقـك وتلاحـق أبناءك من بعدك... والطاعة ذل...وأنت لا تريد أن تحيط نفـسك بالـذل مدى الحياة...
- تمرد إذن... التمرد موت... اختر الموت.... حين يكون هناك اختيار.. واخترت الموت بديلاً لطاعة مذلة ليست لك قناعة بها.. بات الموت أفضل بكثير من القبول بها.. ويأتيك نداء لاحق... الموت لا يطالـك وحـدك... الموت يلاحق كل ما هو متعلق بصلبك، بجـذورك، بأنفاسـك.. الـسيف سيطال الجميع من أمك إلى زوجتك إلى اصغر أبنائك... والآن.... عليـك أن تختار... ومع ذلك تختار أعذب الموت... لك ولمن تحب... لأعز مـن تحب، تمرد... وفي مرآة نفسك سترى انك تكبر... تتمرد... مع أن حولك أنين وتوسل ورجاء... عد... إلى الطاعة مـن اجلنـا نحـن... يقـول اهلك.... وتجيبهم من أجلكم أتمرد...أهرب من الجندية..
- - سيقتلوننا جميعاً..!
- فليفعلوا...
- -كم أنت أناني...
- وتواجه ذاتك... تسألها، تحاورها: من هو الأناني فينا؟ وترى انـك أول من يفتدي روحه... حتى تحيا أرواح الآخرين بعز أو لا تحيا بذل...
- تتخذ القرار... تؤكد تمردك.. وتعـد نفـسك لاحتمـال الأذى..لاحتمـال الموت.. حتى اصقى مداه... ويلاحقونك في كل مكان..
- يقومون بالتفتيش عنك في عمق الليل... يأخذون أمك وأطفالك وهم في عز نومهم، حين لا يجدون في الدار سـواهم.... فقـد أعـددت لنفـسك ولأختيك وزوجتك، مكاناً يمكن لك فيه قطع أنفاسـهم قبـل أن يكتـشف أمرهم، فالموت خيار أفضل من اقتيادهم إلى فضيحة السجن، ولم تحتمل.. فأنت إمام خيار جديد: أما أن تستسلم لهم، أو تقوم بعملية خنق لأختيـك الباكرتين وزوجتك البهية، أو تدعهم يأخذون أمك وأطفالـك... ليكونـوا فدية لك! أمرك لم يكتشف وأمك لم تقل لهم بوجودك وأطفالك لايعرفـون

عن الأمر شيئاً... وأنفاس الإناث قريبة منك، قرر على عجـل... اتخـذ قرارك عاجلاً.

- وتخرج إليهم، تمد يديك إلى أصفادهم الأوتوماتيكية ... فيعتصرونها فيماً يكون بريق جدة الأصفاد واضحاً... يقتادونك إمام صرخات وأنين وأوجاع النسوة والأطفال... وأحداق مفتوحة متجمعة من الجيران... أحداق كانت تستنكر بصمت بليغ..

- ولأول مرة لم تكن متفائلاً بالـصباح.. اقتـادوك إلـى مكـان يـسوده البياض.... والالة الحادة تتربص بك، كأنما تتشهي الإصـغاء إلـى مـا تهمس به الآذان للأذان... وتريد قطع الهمس ... كان الطبيب الجـالس أمامك، لا يريد أن يحدق في عينيك، كنت تراه، تزرع عينيك في عينيـه، وهو يبعد عينيه عن عينيك... وفوجئت بالطبيب يمد يده إلى جانب يـدك، وخفق قلبك... كنت تعتقد انه يريد أن يجرك إليه، حتى تكون إذنك قريبة من ألته الحادة..

- أحسست بالاختناق والألم والتلاشي، وانتظرت.. كـدت تـصرخ هلعـا، وخاطبك الرجل الذي فيك، خاطبك الوعي والإرادة والحزم الذي تريـد أن تقوى عليه..

- استحضرت كل شجاعتك، وضغطت على شفتيك حتى آدميتها... وحـين لامست يد... يدك، أحسست بدفء قريب منك أليف إلى قلبـك وحواسـك وعقلك... وعجبت للأمر ، فمن أين يأتي هذا الدفء في هـذه اللحظـات الحرجة... وماذا يعني هذا الدفء الحميم الآن... الآن بالذات..

- حدق في يدك... حدق.. دع الحرية لأذنيك أن تصغي إلى ضجة الـصمت الذي يحيط بك.. خاطب نفسك طمئنها... وفجأة... تحولت كل قطرة فـي دمك، كل خلية في جسدك واستيقظت كل حواسـك... صـارت أعـصابك ووعيك وروحك.. عيوناً ترى وأذاناً تسمع... صار الكـون كلـه ممتلئـاً بالبهاء والمسرات... حين رأيت أصابع الطبيب تتـداخل مـع أصـابعك وتعانقها... فيما كان الطبيب ذاته يهمس في إذنك...

- - لا تخف... لن أتركك وحيداً... لكن أكون جزاراً فأقطع إذنك... هنـاك جزار آخر ربما يقطع آذاننا معاً... أو يكون ثالثنا...
- وضج الهمس... لامس الجميع آذانهم... والهمس تعلو دفقاته ليضج به المكان الناصع البياض..

مدينة تسافر إلى المجهول

يسافر أبناء المدينة، مثلما تسافر الطيور... أسراباً أسرابا... أبنـاء المدينـة... يسافرون دون رغبة...

والطيور بأسرابها تسافر، وهي تعرف أوطانا أخرى تستقبلهم بكرم... أما أبناء المدينة، فهم لايعرفون إلى أين يستقر بهم المقام وليقيمـوا هنـاك... ولكـنهم اثروا السفر حتى لايظل الحزن والقلق يخيمان على حياتهم...

السفر رحلة ممتعة، تعرفنا بالناس وطبائعهم ومشاربهم ونمط تفكيرهم وأسلوب حياتهم والطبيعة التي يتألقون معها... من أجل هذا وجـد الـسفر... وتعـددت الأوطان..

أما أن تسافر مدينة بأكملها.. فذاك أمر غريب... سمع قيـصر المدينـة، بـأن السكان يسافرون جماعات، جماعات.. فأصدر أمراً منع بموجبه السفر...

إلا أن أبناء المدينة، لم يأبهوا بأمر القيصر، وراحوا يتسللون عبر الحدود..

ومع أن عدداً من المسافرين قد القي القبض عليهم وتم إعدامهم لمخالفتهم أمر القيصر بمنع السفر... إلا أن عيون الحدود كان حلم الجميع...

نقلت الأخبار إلى القيصر... بحذر شديد خشية غضبه..

وفوجئ أبناء المدينة بقرار جديد يمنح الناس بموجبه حريـة الـسفر ومـا أن بزغت أول معالم الفجر، حتى كانت أمام دائرة السفر طوابير طويلة من النـاس تعد الأوراق والصور لأنجاز معاملة السفر بعلم وموافقة القيصر..

وأمام موجات البشر التي تجمعت عند بوابة دائرة السفر، توقف السير، بعد أن قطعت الشوارع بأكداس من البشر.. سمع القيصر بأن المدينة كلها تعد نفـسها للرحيل..

فكر في الأمر طويلاً، واستمع إلى رأي مستشاريه قال أحـدهم للنـاس أمـوال كثيرة، يريدون أن يتمتعوا بها أنفسهم في الخارج.

قال آخر: البعض يريد استثمار أمواله في الخارج، وذلك سيعود للبلاد بفوائد ويقوي قيمة العملة النقدية المحلية..

قال ثالث: هناك عدد من الطلبة يريدون الحصول على شهادات عليا في الخارج وسيعودون إلينا بخبرات عالية.

رابع قال: السفر، يعني أن هناك حركة تجارية نشطة.

خامس أراد أن يقول(الهواء هنا فاسد) وهم يبحثون عن هواء نقي في أي مكان من العالم، إلا انه كتم قوله في آخر لحظة وحين سأله القيصر عن رأيه قال أنها نعمة القيصر على شعبه... نعمة تجعل الناس يسافرون للمتعة لاغير..

سأله القيصر غاضباً وهل هم لا يتمتعون هنا؟

- بالعكس... بالعكس يا سيدي القيصر.. نعم مولانا لاتعد ولا تحصى على أبنائه.. بحيث تحولت الحدائق العامة إلى معسكرات لحماية كل مواطن.. وصارت المستشفيات غير تقليدية، تجعل الكل يدعون المرض، لن المعالجة مجانية.. بل وضعت ضوابط للمعالجة وحددت أجور مرتفعة، حتى لايفكر أحد بوساوس المرض... فالكل أصحاء والحمد لله..

وتكفلت دولة مولانا القيصر بحماية الحرية الشخصية، وذلك عن طريق منح الجميع حرية أطلاق لحاهم.. ولم تعد تستورد من الخارج إلا كمية ضئيلة من أمواس الحلاقة، لئلا يجرح الشبان ذقونهم..

وجعلت لكل فرد من أفراد الأسرة حق محدود في تسلم المواد الغذائية التي يحتاجها، ذلك انه ليس من المعقول أن تنحو وتكبر فراخ الدجاج ويصبح لها وزن ولون موحد، ولا يكون للبشر هذا الكمال..

نحن دولة متحضرة... سيدي القيصر.

سر القيصر بإجابة مستشاره الخامس، وأمر له بسارة فخمة وعطايا مادية كبيرة.... فأغتاظ بقية المستشارين، وراحوا يفكرون بأساليب جديدة... تحقق لهم ما تحقق لزميلهم، نظم أحدهم قصيدة، ونشرها في الصحف وقراها في الإذاعة والتلفزيون... وألف الآخر كتاباً يفسر النهج الفكري المعمق للقيصر..

وأنجز ثالث نصباً ضخماً وضع وسط المدينة بعد أن أعطى مكافأة حسنة للفنان الذي أنجز النصب..

رابع.. تبنى أبناء وبنات، وأطلق عليه أسماء أبناء القيصر اعتزازا به وتيمنـاً بكرمة وحسن تدبيره..

تفنن كل واحد بابتكار خاص.

فرح القيصر... بكل هذا..ولم يخب ظنهم فيه، فقد أجزل لهم العطاء واعتبـرهم من أصدقائه الذين حدد لهم امتيازات خاصة بموجب القانون.

ولكن.. مع كل ما سمع ورأى، بقي القيصر قلقاً، متسائلاً عن الأسـباب التـي تكمن وراء هذه الموجة من السفر اليومي إلى بلدان عديدة.

وقرر أن يعرف الأسباب بنفسه..

غير شكله وملبسه، وجعل في حمايته عدد من الثقاة الشجعان الـذين يـأتمن دفاعهم عنه بدلاً من أنفسهم..

ووقف مع جمع من الناس الذين يعدون أنفسهم للرحيل.. ينتظر... إلا انه كلما كان يتقدم.. يجد من يسبقه يترك موقعه، ويهمل فكرة السفر..

وتعددت الرغبات..انتقلت كالعدوى... راح الكل يهمل مكانـه، ويمـزق أوراق يفره عجب القيصر من هذه الظاهرة الغريبة... وسأله نفـسه، ربمـا عرفـوه، واحتراما له تركوا له المكان لينجز معاملة السفر... ولكن...أذا كانوا عرفـوه، فهل من المعقول إلا يحبونه ويقبلون يديه؟.

استعان بأحد مرافقيه وسأله: لماذا يغادر الناس هذا المكان... لمـاذا أهملـوا فكرة السفر..

أجاب المرافق الأمين: احتراما لك سيدي القيصر، احتراما لتواضعك... فأنـت لاتميز نفسك عن أي مواطن.. وهذا دليل على عدالتك ومساواة نفسك بالجميع.

هز القيصر رأسه، وقد ارتاح للإجابة...

- بالتأكيد.. كل مواطن هو قيصر من موقع عمله ومـسؤوليته، إلا أن شـكاً غريباً ظل يلح عليه ويسائله، ويطلب إليه الاستمرار في التجربة...

أقترب من شباك إصدار جوازات السفر... قدم أوراقه بكل هدوء...

سأل الموظف قيصر: نحن لا نتسلم الأوراق إلا من أصحابها... فهل أنت صاحب هذه الصورة؟

قال قيصر: بكل ثقة... نعم... نعم...

تنبه موظف الجوازات إلى أن هذا الصوت يعرفه... يعرفه جيداً قبل أن ينظر إلى صاحبه... نهض على عجل، وحدق في وجه القيصر... وأنحني:

- عفواً... عفواً سيدي القيصر... أنت تشرفنا..
- ضحك القيصر وسأل: كيف عرفتني؟
- - صوتك، صوتك يا سيدي... نبرات صوتك العندليبية...ابتسامتك، وملامح وجهك...ما أعظمك يا سيدي، أنت مثل أجدادك... تتنكر حتى تعرف هموم الناس بنفسك... دون حاجز أو وسيط..
- قال قيصر:
- -أسألك... كم عدد المسافرين يومياً..
- آلاف سيدي القيصر، هل آتيك بأرقام دقيقة لعدد المسافرين يومياً..؟
- - لا... لا..
- ماذا تعني بلا أحد..؟
- سال القيصر بحزم..أجاب الموظف بحذر..
- سيدي القيصر... ما دمت على سفر.. فلن يفكر أحد بالسفر.. أن أحداً لا يريد أن يساوي نفسه بك كيف يقال على واحد من الرعية أنه مسافر... ثم يقال معذرة يا سيدي- القيصر على سفر..
- سافر سيدي سافر... لن يزاحمك أحد على السفر... لن يسافر أحد من سكانها يريد السفر... عندئذ قرر هو الآخر... أن يبق...

وحين أنتشر خبر بقاء القيصر، وأنه قد ألغى سفره...

اندفعت موجات من البشر ثانية إلى شباك الجوازات... وكل يؤمل مناه بالسفر إلى المجهول..

أحتار القيصر في اتخاذ قراراته:

مدينة ترحل بقرار منه...

مدينة يتسلل أبناؤها عبر الحدود... بقرار صادر يمنع بموجبه السفر.

مدينة تبيع كل ما تملك حتى تسافر قابلة بشروط السفر..

- قال قيصر في نفسه:

هذه مدينة خائفة نمن البرق أو الفيضان...

مدينة ضجرة من برامج التلفزيون ومن فوز فريـق رياضـي... ودعـي كـل المسؤولين لمعالجة الأمور وصدرت على الفور قرارات حاسمة تقضي بما يلي:

1- إصدار نشرة مقروءة ومسموعة ومرئية معنية بالأنواء الجوية..

2- تحويل كل برامج التلفزيون إلى ندوات وإرشادات..

3- إصدار أمر بإعادة المباراة وجعل الفريق الآخر يحصل علـى تعـادل مـع الفريق الخصم..

4- والموافقة بالإجماع على زيادة الإنجاب..

وفي الصباح.. كانت الأهازيج واللافتات والهتافات تملأ الشوارع تأكيداً وتأييداً للقرارات العادلة..

واحد... واحد فقط ظل يسأل: هل سافر القيصر...؟ لكن أحد لـم يجبـه علـى سؤاله... وإنما امتدت إليه يد خشنة... وراحت تجره مثلما الشاة..

ذاكرة النسيان!

في صباح اليوم الأول من كل عيد، أعتاد أن يجمع كـل دفـاتر هواتفـه التـي تراكمت على مدى أعوام طويلة خلت... ليبدأ مهمته في دورة البحث عن أرقـام الهواتف المتعلقة بالأقارب والأصدقاء..

لم يكن بمقدوره حفظ الأرقام، فقد شاخت ذاكرته وصارت عرضة للنسيان، غير أنها ترفض أن تهمل إلتزمات وواجبات اجتماعية... يرى أنها ملازمة التنفيـذ... وأن مبادرته المسبقة، من شأنها أن تترك للآخر فرحة و وداً وحميمية.

وعندما يستبقه أحد في تهنئته بالعيد، يدون هذا السبق في مذكرته، حتى يفـي هذا الدين الذي في عنقه... في أول عيد يحل...

إلا أن أختاً وسطى، تظل سباقة لهاتفه، وفي صباح كل عيد يتوجه إلى الهاتف، يجدها تطلبه، وكأنها تدخل في سباق زمني معه، وتريد أن يظل الوفاء المـسبق مرهوناً وملازماً لحياته..

كذلك.... يجد حرجاً في التوجه إلى تهنئـة صـباحية مبكـرة، فالنـاس نيـام وينشدون الراحة حتى الضحى... والضحى بالنسبة إليه يعد متـأخرا، ذلـك أن نهاره يبدأ عادة منذ الساعة الرابعة صباحاً، وليس بوسعه الصبر حتى التاسـعة أو العاشرة حتى يبدأ تهانيه، فقد يسبقه صديق حميم، وقريب صـادق المـودة، وزميل يتقن الاحترام... مثلما يدرك كذلك عدداً من النـداءات التـي يعـرف أن أصحابها لهم غرض آخر، ومهمة يرجون طرحها، أو التذكير بـشأنها، دون أن يكون للكلمات والتحيات شأن في تلك النداءات، ويجيب على وفق ما تحمله مـن معانٍ سامية، ورجاء صادق...

ومع أنه هو الآخر، له شؤون وعلاقات عمل مع عدد من الأشـخاص، إلا أنـه يظل في حالة تردد وحرج وخجل في تهنئة أصحابها، لئلا يؤخذ عنه، ما يؤاخـذ

به سواه... مما يضطره أن يفضل الصمت على توجيه خطاب التهنئة...حتى إذا جاءه عتاب بعد أيام العيد... لمن يدعي أنه لا يعرف رقم هاتفه؛ وجد نفسه في حالة اعتذار، لا قبل للآخر باستقباله بالحفاوة التي كان يمني نفسه بها.

إلا أنه... وفي ظل حالات شخصية ونفسية وصحية متعبة، وجد نفسه في حيرة، فالحديث المطول يتعبه، واستقباله للأصوات بات يثقل عليه سمعه ويجعله في ضائقة الاعتذار عن سماع محدثيه، الأمر الذي يجعله يتحدث في أمور مختلفة تماماً عن كلام المتحدث إليه... حتى أنه ليحس بسخريات مرة يقابل بها صوته المتعب.

ومع ذلك أراد أن لا يفوت مناسبة العيد السعيدة... وراح يقلب أوراق دفاتر هواتفه... ويعيد إلى الذاكرة أسماء ما زالت عالقة في باله. وفوجئ بحزن ثقيل يخيم على حياته، ويجعله في حال يحتاج إلى الرثاء والشفقة ، في وقت يريد فيه أن يكون وفياً مع كل معارفه.

المفاجأة... كانت تتسع كلما قرأ أسما من الأسماء الحميمة إلى قلبه وعقله وروحه..

فهذا الصديق قد رحل منذ أمد، وذاك مريض يحتاج إلى زيارة لا إلى نداء هاتفي، وثالث سافر وانقطعت أخباره..

والآخر.. لم يعد له شأن في شيء مما كان يعنيه ويشكل العلاقة الطيبة التي جمعت بينهما... وراح ينشغل في مهمات قسرية عليه بقصد العيش..

وخامس... وعاشر... تقطعت سبل الوصول إليهم، ولم يعد من الميسور له معرفة شيء عنهم..

كان ينظر إلى معارفه على وفق ثقته العميقة بكل واحد منهم... وهي ثقة متفاوتة بين هذا وذاك... ولا يمكن له الانشغال بالقرابة أكثر من سواها، ذلك أن الدنيا تغيرت في عينيه وسمعه وكل حواسه... ولم تعد حتى كلمة (الثقة) كلمة يمكن أن يعقد بها ويحتمي بوجودها... فقد أخفقت هذه الثقة، وتعثرت... حتى ذابت وتحولت إلى فقدان تام، وأصبحت تشكل في نفسه حرجاً، وفي العالم المحيط به والقريب التماس معه حرجاً آخر... بوصفه قد أعتمد ثقة ليس

لأصحابها شأن بأهميتها وعمق جذورها... وبات يعاني من وحدة قاتلة، ولم يعد بوسعه حتى الحديث بشكل ما... مع أليف كان يشغل عليه كل عالمه... وأصبح الهاتف... جهازاً ميتاً لا يساعده أبداً على إلغاء المسافات بينه وبين الآخر الذي تقطعت به كل سبل التواصل.

قال لنفسه:

-سأكتفي بالزوجة والأولاد والكتب والأزهار وخزين الذكريات.

قال:

-إن حال الدنيا... هكذا، رحلة... تمضي، وتقطع شوطاً من النجاح، ثم تتعثر، ثم تتوقف... ثم تموت... تموت..

تساءل:

-هل يعني هذا أنه قد وصل إلى آخر الرحلة، وهل أن الموت بـات يقتـرب منه... بعد أن صارت حالته الصحية فـي تـرد مـستمر، وان كثـرة مـن اصدقائه.. ومن جيله، بدأوا يختفون من ضوء الحياة، بالموت أو الـسفر أو المرض أو المجهول...؟!.

ضاقت به جدران مكتبته التي كان تعتز بكل ورقة فيها، وذبلت أزهار حديقته التي كان يحتفي بألوانها وعطورها... وأصبح لكل ولد مـن أولاده مزاجـه وميوله وعوالمه وشخصيته واهتماماته وأصدقاؤه... وأخذت الزوجة تبحـث عن مكان لها بين أولادها، وتترك له صـمته وعزلتـه وأوراقـه الـصفراء وأوقاته الذابلة..

كانت الأشياء حوله، حافلة بالمسرات... فللكلمات في كتبه أجنحـة تحلـق بروحه... وللأزهار حفاوة خاصة بوجوده.. وللأولاد رغبة ملحة في وجوده بينهم صديقاً وأباً حنوناً... بينما تجد الزوجة في وجوده علـى قـرب منهـا عوضاً عن أهلها الذين تركتهم في مدينة بعيدة... ولا تسأل عـنهم إلا فـي أوقات متباعدة، ومناسبات خاصة.

الآن... شاخت معه الزوجة، وراحت تصدق حتى سخرياته من نفسه وهـو يحدثها عن زوجة أخرى... عله يشعل فتيل الغيرة عندها... دون أن تـشغل

ذهنها أنه في حالة إنطفاء، وفي دائرة التعب والمـرض والرحلـة الأخيـرة المتعبة التي لا خلاص له من نهايتها الحتمية..

والآن أيضا.. لا يفكر الأولاد إلا بأنفسهم وبناء مستقبلهم... ومع أن هـذا سره كثيراً، إلا أنه يجد حرجاً في عدم الإصغاء إلى إرشـاداته التـي تـصب مخلصة في صميم حياتهم... والآن كذلك... لم يعد هناك حاجة لأحد بـه... وليس من نداء هاتفي يطلبه مهنئاً بـإخلاص، ولا مهنئـاً عـن حاجـة... فالإخلاص رحل مع أصحابه، والحاجات أصبحت مرهونة بسواه...

نسيته كتبه... ولم يكن هو ينساها، لولا أنه يحس بشرود ذهني، واستيعاب بطيء. ونسيان قاتل...

كان يؤلمه أن يجدها وقد علاها الغبار... كان يحس وكأنه قد دفنها، وتركها في ظل مقبرة معتمة... بعيدة ومنسية وهو الذي كان يأنس إليهـا ويقـضي أجمل أوقاته في احضان صفحاتها.

أما حديقة منزله فقد دبت فيها نباتات غريبة، وراحت تأكل من غذاء أشجاره وأزهاره.... حتى وجد أن العصافير التي كانـت تزقـزق علـى الأغـصان والفراشات والنحل... كلها هجرت المكان الذي لم يعد سوى ذكرى حديقـة! ترى.. ماذا بقي له من أيامه سوى... شمس تطلع صباحاً، وتودعه مـساء، وقد تغيب عن هذه المهمة أحياناً... تاركة صرخة الحر صيفاً، ولسعة البـرد شتاء ... وبقايا ربيع لايقيم في المكان إلا وقتاً قصيراً لا يحـس بمتعتـه ولا يشبع من وجوده، ولا يجد عنده محطة قد يستغرق أمد مكوثه عندها بعـض الوقت للانتظار.

حتى الانتظار... على قلقه ولهفته لأمر ما، لوجه أليف، لوعد حتمي... ملّ من نفسه، من انتظاره ورحل...

ترى... ماذا تبقى من أعوام جفت من سقم، وشحبت ملامحها... وودعـت بشراً... كانوا قامات في مسيرة حياة يعرف ديمومتها جيداً... كمـا يعـرف بهجاتها التي صارت عدماً...؟

نظم دفاتر هواتفه... حاول أن يضعها في نسق واحد... لكنها لم تنتظم ولم تتساوى وتتوازى... مثلما لم تكن الأرقام والأسماء الواردة فـي صـفحاتها مكتوبة بقلم واحد، وفي وقت واحد، ولون واحد..

قام... و وضعها على اقرب رف تصل إلى يديه... الرفوف كلها لم تستجب، وكان عليه هو أن يجد له سبيلاً إلى الحركة، إلى يديه، والى خياله وأحلامـه وآماله... يستنطقها، يحرك الحياة فيها... ويجعلها جميعاً تـدرك جيـداً أن صباحات الأعياد تتجدد دائماً ، وليس بوسعها أن تبقى على حال دائم أبداً...

الفرح الذي بدد العتمة

اتكأت صفاء على مسند الكرسي، وراحت تفكر في شؤون كثيرة، كانت العتمـة تحيط بها من كل جانب... وأهم تلك الجوانب... تلك العتمة الثقيلة في عينيها.

سمعت والدها يقول: أشعلوا الشموع والفوانيس... الضوء لن يعود قبل مـرور ثلاث ساعات.

حزنت صفاء..لأن الوالد أثقلته العتمة وضاق بها لمجرد إنه سيعيـشها لـثلاث ساعات، فكيف إذا كانت هذه العتمة مصاحبة ومتفاعلة مع سنوات خلت وسنوات تجيء.

سمعت أمها تقول: سنؤجل كوي الملابس المعدة للنزهة... النزهات لا تكون في العتمة أصلاً... كيف تكون هناك فرحة بلا أضواء؟.

سألت نفسها: ماهو لون النزهات... كيف تبدو الملابـس فـي أناقتهـا مكويـة نظيفة... كيف تبدو الوجوه أمامها؟

سمعت أختها الصغرى تقول: لن أقرأ كتابي المفضل... ولن أشاهد فلم السهرة هذا المساء...

... وهذا المساء... المساء... المساء... كيف تمر نسماته، هل للنسمة لـون، كما الابتسامة، كما قوس قزح..

كيف هي سطور الكتاب الذي تقرأ فيه... ألا يمكن لكلماته أن تطيـر وتـصبح حمامات... حمامات... يقولون لون الحمامة أبيض، يقولون لون السماء أزرق؟، يقولون لون العشب أخضر، يقولون لون البحـر ـزرق... أزرق... يقولـون، يقولون، يقولون... حاولت صفاء أن ترى الأشياء كما تريد أن تراها...

بدت الحمامة شاحبة ، ولون السماء رمادياً، ولون الوردة باهتاً... لم تعجبهـا الألوان... لا... لايمكن أن يعجب الناس بالشحوب والرماد والزى الـشاحب.....

قالت: علي أن ارسم الأشياء كما ينبغي أن تكون كما هب في كمال حسنها..

رسمت حمامة بيضاء... بيضاء... كمال النقاء..

فرحت الحمامة، حركت جناحيها... وطارت في سماء رمادية.
لم تعجبها السماء الرمادية... لونتها بالغيوم... لا... لونت الأفق بلون سماوي أزرق... فاتسعت السماء، وصارت رحبة..
وحين رأت الوردة مسرة الحمامة البيضاء، وإشراق السماء الزرقاء... تفتحت على لون أحمر بلون الكرز. في قلبها... في ضوء القلب... رأت أشياء جميلة... سرها أن ترى الأشياء بكامل بهائها...
وعجبت من هذا التغيّر الذي جرى في حياتها... وحاولت استعادة فرحة قلبهـا قالت:
كان ينبغي عليه البقاء حتى نلعب سوية، حتى نذهب في نزهة نصيؤها نحن حتى نعلم سوانا كيف نضي :كيف تتحول قلوبنا إلى شـموع وفـوانيس . وراحـت تستعيد صورتها : صبي أسمر, له شعر أسود : وعيناه قنـديلان . . . وأناملـه ذهبية أخجلتها صورته. صورة أنامله بالذات . . . أحزنها أن لاتراها ولأن تراها معا : كيف ؟
أنامله الذهبية لامست نعومة شعرها : أنامله لمست أصابعها .
أصابعها أمسكت أصابعه حاولت أن تمسك ذراعه . . ألآخر . أحست بشي خفي, بشيء غائب, الوجود له أصلا. حاولت أن تتأكد سألته :
- أرجوك . . ساعدني حتى أراك . . كما تراني
سكت . عجبت صفاء لسكوته .
-نعيم . . مابك؟
رفعت أصابعها ، فتشت عن رأسه وعينيه وأنامله.. توسلت إليه:
- نعيم... هل تراني. هل يمكن أن نلعب سوية...
-يمكن... هذا ممكن... ممكن صفاء ممكن.أمسكي الكـرة، حلقيهـا عاليـاً باستقامة. باستقامة. من تسقط على ر؟أسه الكرة ثلاث مـرات يكـون هـو الرابح.
- ضحكت:

- - من يقول أنك لا تخدعني، مستغلاً فقدان بـصري، لتقـول أن الكـرة سقطت فوق رأسك ثلاث مرات فعلاً.
- ضحك... ألمته ضحكته. ظ؟أحست به يتوجع. سألته:
- - نعيم ما بك...؟
- لا ... لا شيء.
- حاولت أن تمسكك به. أمسكت جذعه... ما هذا... كانـت تبحـث عـن ذراعه تود أو أنه أحتضنها وخفف عنها الظلمة الأبدية في عينيها...
- لم يكن هناك مكان للذراع... أين ذهب بذراعه؟
- سألته.. ؟ألح عليها السؤال. كأن بها هاجس يهتف بها... لا تـسألني ، لكنها سألت... وألحت في السؤال:

- أين أخفيت ذراعك... كيف خبأت عضواً بارزاً من جسدك... ساعدني حتى أراك ألعابك؟

حاول أن يجيبها بوضوح.. أخفي دموعاً كانت تحتبس في عينيه.

- صفاء، لم ؟أخف شيئا عنك، ؟أنا لا أتقن التخفي.... لقد... لقـد فقـدت ذراعي في الحرب... في حرب لم ؟أمكن طرفاً فيها.
- وضج المكان بالصمت، كان الصمت ثقيلا، أحست صفاء بوطأته، مثلمـا أحس نعيم بالحرج والخجل والحزن العميق الذي ؟أنتاب ملامـح صـفاء وهي تتوجه إليه بعينين خفيتين لاتريان دموعه... بعينين كما لو إنهمـا ذائبتان في جرة روحه...
- ... حاول أن يكسر مرارة الصمت هذه... سألها:

- وأنت...أنت...

- قالها بصوت خافت، كما لو ؟أنه كان لايريد أن يبوح بها ، كما لو أنـه يقول لها : لست أفضل مني...
- لكنها سمعته، سمعت ضجة السؤال في ؟أعماقه قبل أن يجيء... لكنـه جاء، ولا راد له، ولا غفلة عنه، كما لو كـان الـضرورة، والاكتـشاف ومحور الحديث بينهما.

- هي الحرب أيضاً... أنياب مخيفة مخيفة، عفريت قد من نار...سألت أبـي ما معنى حرب... قال حر نكتوي به حد الموت، وبرد من رجفته نقاسى حد الموت...

- وأنا أيضاً سألت أبي... لماذا توجد الحروب؟

- وسكت... سألته:

- أبوك ماذا قال...؟

- خاف أن يقول، خاف من احد ربما كان يصغي إليه... لكنه همـس فـي أذني وقال: لأن الموت... يريد أن يفترس الحياة.

- ولماذا يريد افتراسها يا أبي؟

- كل الوحوش تقاتل بأسم الموت... الموت...موتها ؟أو موت سواها...

- أبي... أبي، أنت تحدثني... كما لو انك لم تحدثني، ك؟أنك تحـل ألغـازا وابتسم أبي... قال:

- أخذ منك ذراعك، دفن ذراعك، الذراع الذي يـدفن، يـصبح خزينـا فـي التراب... والتراب ينبت زهرة... أما ترلاى..

- ساد الصمت ثانية... غير أن صفاء كسرت حدة الصمت هذه..

- كيف تراني...؟

- فاجأه السؤال... حاول أن يربط كلاماً سمعته عن أبيه.قال:

- ؟أنت زهرة، كل ما فيك وحولك مزهر.

- ؟أنت تخادعني. تضحك مني زهرة... زهرة لا تبصر...

سألها:

- وهل للأزهار عيون... نحن، نحن الذين نعطيها جمالها ونباهي ؟أنفـسنا بفتنتها وعطرها وألوانها.

- أتراها كسولة حد أن لا تكشف عن نفسها؟

- ليست كسولة، بقدر ما هي كائن مخلوق من الرقة، من عذوبة في الطبع من قلب العتمة... تتدفق عافية وزهواً وفرحاً.

- ضحكت، أعجبتها كلماته... توسلت ؟إليه خجلة:

- نعيم أريد أن أتراك..
- وهل أنت عاجزة عن رؤيتي...

دهشت، أكمل عبارته:

- العيون لا ترى... العيون عدسة، القلب يرى، العقل يرى، الأحاسيس كلها ترى... أما ترين كيف ضحكت...؟
- أعجبتها كلماته... كما لو إنها كانت تحلق في سماء روحها..
- .. استرخت على الكرسي الخيزران... تنبهت إلى نعومـة الخيـزران... تذكرت أن نعومة الخيزران تخفي قسوة ووجعاً... أما تذكر كيف ضربتها المعلمة ذات صباح بعصا من الخيـزران... وكيـف بكـت... وقـست، وتنبهت، وتوجعت، ورفضت، وانتابها الخوف من المعلمة ومن العصا...
- صاحت... كانت صيحتها حزينة، فيها توسل ورجاء...... قالت:
- أرجوكم، أنا أكره هذا الكرسي الخيزران قسوة، والقسوة حرب، والحرب عماي، وذراع نعيم.

احتبست صرخة في أنفاس إلام

احتبست حسرة عميقة في قلب الأب.

اختفت عبرة دامعة في عيني الأخت الصغرلاى..

إلام والأب والأخت الصغرى... حملوها جميعاً، امسكوا بذراعها، كما لو أنهـم يمسكون بشيء يحذرون منه، يحذرون انكساره وتفتيت أوصاله..

- ما كانت عليك أن تجلسي على هذا الكرسي الكريه، مـا كـان عليـك أن تكوني وحيدة.
- صاحت صفاء غاضبة: ما كان ... ما كان... ما كـان علـي أن أكـون عمياء... ماكان علي أن اضرب بالعصا... ماكان علـي إلا أن اعتـرف بنعومة الخيزران، وأبرئه من القسوة..
- ساد الصمت، هدأ الأب أبنته قالت:

- أما كانت الحرب عمياء، حتى تقتل الحياة، أما كان على المعلمة أن تعلمني أن الخيزران نبات رقيق آمن... أما كان عليكم أن تدلوني على طريق استطيع أن أتلمس فيه المكان الذي اختار...؟

- الأخت الصغرى اقتربت، تماسكت مع صفاء، وجدتها كما لو كانت بحيرة فج ماؤها... باقية أزهار نمت أشواكها، نسائم عليلة... وقد واجهت عاصفة وإعصارا..
- صفاء...صفاء.. هل أنت بخير؟
- صفت... كما لو أن موج البحر قد تخلى عن غضبه كما لو أن سحابة غيم أمطرت لؤلؤاً... كما لو أن فرحاً هائلاً ملأ الزمان والمكان..
- صفاء... هل اتصل بنعيم.. حتى تلعبان سوية...؟
- البحر هادئ، زرقته متسعة إلى أقصى مدى... صدى روح ترتاح عند محطة سارة..
- لؤلؤة وحيدة... انسكبت من عين صفاء، ضحكت اللؤلؤة... صارت تبرق تبرق، وتبعث ضوءاً... كما الشمس في قاب سماء مفرحة..
- أحست الأخت... بحاجة صفاء إلى اللعب، إلى حركة سارة..
- سأتصل به، سنلعب سوية، هل أنت راضية؟
- دقّ نعيم على الباب، الباب يفتح للمسرات دائماً... يقول الأب..

نعيم دخل... دخول آمن لصبي أرادت الحرب أن تأكله كله... فلم تفلح..أكلت ذراعه حسب...قالت الأم...

ذراع نعيم الوحيدة تحركت ب؟أنجاه صفاء... يكفي الشجرة أن يكون لها غصن واحد حتى تحيا وتنضج ثمارها... قالت الأخت الصغرى...

ابتسمت صفاء وهي تستقبله... سألته:

هل نعود إلى المستشفى حتى نلتقي ثانية... مثلما التقينا في المرة الأولى ولعبنا كرة الرأس... وكيف ربحت...

وتنبهت... وسألته:

-نعيم أرجوك كن صادقاً معي... هل كنت الرابحة حقاً... هل يمكن أن تكون العمياء... رابحة، والمبصر خاسراً...؟

ضحك نعيم، ضحكت إلام والأخت مثلما ضحكت صفاء...مثلما ضحك الأب كانت ضحكة مشتركة، كان الجميع يحسون أنهم في ألفة تجمعها صفاء، تلم شتاتها... تجعل للمكان بهاء، تجعل للوقت أجنحة... تجعل للروح نجوماً تتألق في سناء داكنة، كررت صفاء سؤالها...

- نعيم...كن صادقاً، لا تهمل سؤالي... من يهمل الإجابة على سؤال... يعد راسباً، يعد كسولاً..

- لست راسباً، ولست كسولاً..؟إنما كنت الرابحة صدقيني...كانت ذراعي الوحيدة تخذلني، لم أجرب مرائها... لم اعلمها كيف تلعب... أما أنت...أنت، فقد اعتدت على رؤية الأشياء في بصيرة قلبك... أما ترين قلبك يضيء وسماؤك صافية، ونسمائك عليلة..

- نعيم...هل تقرأ كتباً...

- سألته الأخت الصغرى، لم يكن نعيم يريد أن تسأله مثل هذا السؤال في حضرة صفاء... حتى لايستيقظ حسها بفقدان البصر..

- أهمل الإجابة... وأكمل حديثه:

- -صفاء ذراعك قوية..

لم تكن صفاء تريد أن يقول هذا... حتى لايتذكر ذراعه المفقودة... حتى لاتتذكره بذراع واحدة...

...جلسا في العتمة...

-كيف نلعب... لاضوء في المكان؟

-نلعب..أنني أبصرك يا نعيم، كما لو كنت تنظر الي وانظر إليك... هل تخشى أن أكون الرابحة هذه المرة أيضا؟

أفرحه أن أكون مسرورة...

فرح الأهل وهم يرون صفاء...مغمورة لالف6رح..

قالت:

حيت تكون هناك هنا... أجدني، كما لو كنت اقوي رجل في العالم..

علق الأب قائلاً:

- أنات.؟..أنت تبصرين بعينيه، وهو يقوي بذراعيك...

وامتلأ المكان بوجوه تضحك... وهي تستقبل الحياة بحفاوة ونشوة كما لـو أن الحرب قد دفنت، وزالت ضجتها إلى الأبد...كما لو أن كل الأشجار راحت تنبت ؟أغصاناً هي بمثابة اذرعه قوية...تقوى على مواجهة الخيبات كلها... والإحزان كلها..

- عندئذ وجدت نفسها...تحلق في أحلام وردية، تلعب مثل سواها... تتحرك كما تريد، تبصر دربها...

وهو... هو ا؟لآخر، كان يحس كما لو أن الذراع الواحدة كافية، كافية تماماً على تأدية مهماته كلها... وأنه ليس بحاجة إلى ذراع آخر..

في ذلك الوقت... كان المكان يتسع لمزيد من الأفراح...

مكان لمصيبة تبصر الأشياء جيداً أسمها صفاء.. لاتعرف من الخيـزران إلا رقته، مثلما لاتاتعرف من المعلمة إلا طيب قلبها، مثلما لاتعرف من العتمـة المحيطة بها.. إلا مشاركة وجدانية وعشقاً يوحدها مع سـواها وهـم فـي أعماق سحيقة من العتمة...

... في الوقت ذاتها.. كان نعيم يحس أن وجوده مع صفاء... يكمـل نعـيم قلبه، حتى ليجد حاجة إلى أن يكون معها، أن يتوحد مع صفاء قلبها، مع رقة طابعها، مع بسمتها العليلة، مع صوتها العندليبي تحدثه... كمـا لـو كانـت تغني، تلمسه، كما لو كانت تصقل خشونة طبعه حتى يـرق.. ويـذوب فـي الرقة..

... جاء الضوء، ملأ المكان بهاءاً كانت الوجوه تشع كمـا لـو إنهـا بقـع ضوئية..

وراحا يلعبان كرة الرأس... ومن فرط الحسرات، كانت تربح مرة، تخـسر مرة، يربح مرة، يخسر مرة، وما بين الربح والخسارة، كانت عينا صفاء... تتفتحان وهما في كامل صفائهما، فيما كان ذراع نعيم بنبت ويستطيل حتـى

يتكامل وتدب فيه الحياة... فيما كان الأهل ينشدون، يباركون... فرحة نبـت بدأت تبصر، وولد بدأ يحرك ذراعاً كان مفقوداً..

ألقم حلم سعيد لدى الجمع... وصار حدائق آمال مرتجاة...

صورة رجل يتآكل

كان المساء يختنق بهواء تموزي ثقيل .. والعتمة تملأ مساحة الحديقة المنزلية المتواضعة بقدر من الرهبة والاشباح والزواحف والحشرات .. التـي تجـد ان العتمة ... هي افضل اوقات حركتها والنزهة المرتجاة ... والتي تجعلها بعيـدة عن العيون الفضولية والعدوة. كنت اسمع اصواتها واحس بحركاتها واتقي شر بعضها الآخر.

كان التيار الكهربائي قد قطع ، وبات من الصعب البقاء تحت سـقف اسـمنتي وجدران من الغلضة والرطوبة.. كنت احس ان المكان يطبق على انفاسي والامر الذي جعلني اتوجه الى الحديقة ، اتوسلها قدراً من العافية ، والقليل من الراحة ، واللطاف بشيخوخة تعاني من هواجس مرضية عديدة ، نظمت امري واقتنعـت ذاكرتي على انها علامة من علامات ذلك التراكم العمري الـذي يبحـث عـن استحقاقاته المتراكمة من الطفولة والشباب واكتمال الرجولة . لم اكن اريـد ان اعلق امراضي وكآبتي وبطالتي ومجهولية مستقبلي ومستقبل ابنـائي... علـى الحصار ، فقد عشت ما هو اسوأ منه في ظل الفاقة والجهود المضنية في وقـت كنت ارى فيه اعداداً من الغرباء موردة خدودوهم ، متألقة حياتهم ... يتكلمـون الانكليزية تارة، والتركية او الهندية تارة اخرى.

كنت أسأل ابي ... كلما وجدته في حالة استرخاء او تأمل او أنشغال ذهنـي ... لا اعلم بالتحديد طبيعة حالته فالامر يختلط علي عندما اريد ان احدد واشـخص ... لكن الذي اعرفه جيداً انني كنت اغتنم تلك الحالة لأوجه اليه اسئلة ملحة :

- بابا... هؤلاء الاغنياء، لماذا لا يـشيخون ويمرضـون ويموتـون وتـشحب وجوههم مثلنا ؟ يتأملني ابي جيداً...يقول لي انني سأعرف الجواب عندما اكبر ... فأسكت واعود اليه بعد ايام ... معيدا اليه السؤال نفسه ... لكن ابـي كـان يخذلني في الجواب عندما يجيبني ما زلت صـغيرا عـن اسـتيعاب الجـواب .

وضجرت من صغري ، احسست بالعار لأنني لم اكبر سريعاً، حتـى ادرك لغـز الاجابة على اسئلتي ... وامتحنت عمري امام ابي بألحاح .. مؤكداً انني كبـرت وان بمقدوري فهم اجابات ... عندئذ احسست بأبي وقد ملّ من تكرار اسئلتي ... فأجاب موضحاً .

- هؤلاء الذين يبهرك منظرهم وشبابهم وعافيتهم .. يسرقون خبزنا ويجففـون انهارنا ويطفئون ضوء شمسنا... وجدت انني لا اعرف ما يعنيه ابي ، فـالخبز والماء والشمس كلها موجودة... لكن هذه الاشياء وسواها لم تجعل منا بـشراً سعداء مثل هؤلاء الاغنياء . تنبه ابي الى حيرتي . قال لي : الم اقل لك انك لـم تكبر بعد حتى تفهم .- ومتى افهم؟

- عندما تكبر ؟

- ومتى اكبر؟

- عندما تفهم؟

ادركت ان الفهم مقترن بالكبار وحدهم ، وصارت امنيتي الوحيـدة ان اكبـر .. حتى اذا كبرت وصرت بعمر ابي الذ ي مات بعد عناء طويل ... تبينت حقيقـة المجهول ومعنى ما هو معلوم ... وكيف يمكن كتمان مـا اعلـم ... لأن العلـم والمحن والبلوى وتعب الذهن .. مهنة الفقراء ولأن الصمت البليد سيد الاحكام وان السكوت من ذهب !تعلمت وانا ادرك ما تعلمت .. ان ما كنا نعانيه من فاقة تعود اسبابه الى ما يعانيه غيرنا من تخمة وجشع وما يـسرقونه مـن خبزنـا ومائنا وشمسنا ... وان شيخوختنا السريعة والموجعة وهمومنا الثقيلة كلها تعود الى ما يحصده سوانا من حيوية وشباب وقدرة على تبرير سلبهم طيبتنا وكرمنا الذي اغدقناه دون ان نفكر بطريقة متأنية وعقل راجح...

ادركت هذا جيداً، نقلت ما ادركت لأبنائي قلت لهم ان زهـو الـشعارات التـي يرسمها لنا خصومنا. يجب الا تخدعنا وان ندرك فحواها وجوهرها.لم انتظر ان يكبر ابنائي حتى يعرفوا ما عرفت كما فعل ابي فقد كان ابي يخشى الـشعارات والاوامر وصيغة (اليجب) التي تطرق رأسه وتحوله الى كائن آلي لا شاغل له الا التنفيذ - وتوجهت اليهم بحقائق الاشياء ... بما جرى وبما كـان يجـري..

وعرفتهم برسالة وصلتني تواً من صديق ظل يعيش وهم الشعارات حتـى تبـين زيفها وراح يشرح لي في رسالة مفصلة معاناته وهـو يعـيش فـي هـاجس الفردوس الموهوم والحرية اللامحدود في الغربة ... حيث كـان يمنـي نفـسه بالامال الكبار حتى اذا وصل هناك وتواصل مع الحياة وراحت الازمنـة تـصرع اوهامه يوماً بعد آخر، عندئذ ومن فرط اشواقه ومن خيبة آماله ومن نوم اثقـل عليه عالمه ... راح يتنفس سطوره الساخنة الي...الان بعد خمسة عقود مـن الامنيات العسيرة صرت امتلك غرفة مستقلة . غرفة بشباك ، ونقطـة ضـوئية ومروحة سقفية ومنضدة وكرسي... والاهم من ذلك كله، إحتضنت غرفتي رفـاً من الكتب التي اعتز بمراجعتها بين مدة وإخرى... لغرفتي باب يمكن لي اقفاله ... وقت ما أشاء. لغرفتي جدران مطلية .. سقف ناصع البياض وحيطان زرقاء بلون السماء والبحر وعيون امرأة ارسمها في مخيلتي.

اما البياض فقد كان يعلق رأسي بالحقائق والصدق والنقاء ومـن هنـا نـشأت ابحث عن نصاعة الاشياء في كل مكان وفي كل شيء... واما الزرقة فقد كنـت اجدها هادئة ... لكنها تتسع لمتغيرات السماء، والبحر والمرأة.

سماء مشرقة ، شاحبة ، غائمة ، وبحر آمن ، صاخب ، مخيـف ، غاضـب ، وامرأة ناعمة ، دافئة ، صاخبة ، عدوانية ، مغفلة ، بليدة. تـرى مـاذا افعـل بالسماء والبحر والمرأة... وانا لا انشد الطيران ولا ركوب البحـر ولا عـشق أمرأة...؟ جعلت افكر بالتغيير ... وأنطفأت عندما وجدت ان المسألة تـنم عـن ترف ... ذلك ان السقف الابيض يكفيني... يكفيني من الاشياء مدى تعلقها بـي ومدى تعلقي بها ، وما زلت انتمي الى صفوة النقاء فليس لأحد القدرة علـى ان يحول دوني في معرفة الحقائق كلها.

ولأنني اخترت نقائي... بحرية ودون إلزام من احد فقد واجهـت الكثيـر مـن العقبات ... وفي مقدمة تلك العقبات وقوف ابي ضد تطلعاتي في المعرفة موضحاً ان الثقافة لاتملأ بطناً ولا تروي عطشاً وان صاحبها يظل في هم كبير وسقم دائم ، كونه يعرف ما لا يعرفه سواه ... والجاهل عادة عدو ما يجهل!

اما اخي الكبير فقد ارادني ان اكونه تابعاً له ، مستجيباً ومنفذاً لأفكـاره التـي يعتقد انها مقدسة لا تعرف الخطأ ولا تواجه صدأ متغيرات الازمنة . واما امـي ... فلم يكن لها من حول وقوة سوى محاولتها الدائمة في لم الـشمل وتقريـب وجهات النظر بيننا . ولم يعرف عن اخواتي الستة... سوى الخدمـة المنزليـة والسبات العميق والدائم لحركة الذهن والحس والمشاعر البليدة. كنت ادرك جيداً انني طائر غريب بين جمع من الكائنات التي لا اعرف عن وجودي بينها سـوى مهمتي في تقديم الامدادات الغذائية اليومية... كان هذا يتطلب مني ان اعمـل ، بأنتظام وبلا كلل . اعمل ... ما يتيسر من اعمال مهما كانت شاقة ومهما ثقلـت على طاقتي الجسمية. عملت عتالاً في سوق القصابين والخضراوات ... احمـل سلالاً وانزل اخرى انقلها لأرذل الناس بخلاً

وظلماً لأجمل النساء اللواتي احسد اطفالهن المدللين وانا انوب عنهم في حمل اثقالهم. كنت احس بوطأة الفوارق بين الناس .. فوارق مادية - لم يكن الوعي الطبقي والفوارق الناجمة عنه ناضجة في ذهني- وفوارق اجتماعية - لم تكن سايكولوجية الافراد واضحة امامي - فوارق تكمن في

المأكل والملبس والسلوك ولون البشرة كان البعض يعطيني اجوراً اكثر ممـا اتفقنا عليه... كنت ارفض كنت اعد ذلك منـه لا ارتـضيها لنفـسي... واقـف بشراسة لم اكن اعهدها في مطالباً بكامل الاجور المتفـق عليهـا فلـيس مـن الرجولة التخلي عن حق مكتسب. كان بعض الزبائن يشكوني لابي ، وكان ابـي يضربني امام الزبون لأرضائه على حسابي ... وحال مغادرة الزبـون ... كـان يعتذر لي مؤكداً صحة ما افعله .... لكنه يوضـح وحـسب معرفتـه وتجاربـه وتعامله اليومي مع الناس ..... فقد وصل الى حقيقة انهم طبـائع مختلفـة وان الانسان الناجح هو من يتمكن من كسب ود الجميع على اختلاف مشاربهم.

مرة.. امسكني من يدي قال:

- أنظر .... هؤلاء ثلاثة رجال كيف سأتعامل معهم وابيعهم بالسعر الذي اريده. واوصاني ان اجيب على استفسار احدهم عن السعر ، حتى اذا ذكرتـه، رفـض

الرجل ، فيتدخل ابي قائلاً بحسم مقصود: عمك لا يشتري، انه يسأل فقط، وأصر انا على بيعه ، ويصر ابي على موقفه...

وصل الرجال الثلاثة تباعاً... رحب ابي بالاول ودعاه الى الجلوس، واوصى له على شاي عميق اللون. شتم الثاني وعاتبه بخشونة... اما الثالث فقـد توجـه نحوي وراح يعاملني ... بينما رأى ابي انه غير مقبل على الشراء. وتمكن ابي من بيع الثلاثة لحماً بائتاً بالسعر الذي اراده. واعجب ابي مـن اجـابتي علـى اسئلته في التعامل مع الرجال الثلاثة . قلت ابي : الرجل الاول كان بحاجة الـى ان نتعامل معه بأحترام ..... الرجل الثاني خاطبت فيه الصداقة الحميميـة .... الثالث اعدت اليه كلمته وثقته بنفسه.

قال ابي: يا ولد ... انت تتكلم كلام الكبار... وقبلني ... مما اضفى على كيـاني الفرحة العميقة.

إلا ان ابي اوقفني عن حدي ، وكاد يعطل امنياتي ومـواهبي... ففـي امـسية جلست أقرا له خاطرة كتبتها ونشرت في صحيفة محلية.... فأثنى عليها كثيـراً واعجب بحكمة كاتبها ، وعندما قلت له انني كاتبها ... غضب مني ، وضـربني على خدي قال:

- عيب، عيب... يا ولد تكذب ، وتدعي ماليس لك .

كان هذا الزجر ، اول فاتحة على طريق الاهتمام بالقراءة والكتابة و...شـؤون مخاطبة الناس، بما احب اصغاؤهم اليه.... لقد ادركت انني اقدم كلمة نافعة ... وإن لم يصدق ابي ان هذه الكلمة لي . المهم ان الموقف هذا... جعلنـي اثـق بنفسي.. واسعى لتطوير معلوماتي وثقافتي عموماً بحيث اكتب ما يفيد الناس... وكان ابي يعجب لكل موضوع اكتب دون ان افصح عن صاحبه ... حتى اصـبح يطالني بقراءة ما جد من جديد الكاتب المجهول الذي لم اجـرؤ علـى توضـيح صورته الحقيقية - صورتي- وبقيت ازهو بنفسي واعـزز الثقـة بهـا/، دون الاعلان عن حقيقة امري ... لأبي .

ترسمني الازمنة ، كما لوكنت قماشة بيضاء عارية من الالـوان مجـردة مـن الحياة . كنت اخجل ان يكون لي دور الظل دائماً... ظل لا علاقة له بالاصـل...

غير انني وبمرور الايام والتجارب، ادركت حقيقتي... كوني الاصل وسواي الظل . حدث هذا عندما كنت افكر لأبي لمعلمي ، لأخوتي ، لأصدقائي.لم اكن اريـد ان العب هذا الدور ... هذا الدور لم يكن لعباً؟ ... ولم اتخذه سبيلاً لفرض ارادتـي وتحقيق شخصيتي وإلزام الاخرين بأفكاري.

كنت على العكس من ذلك تماماً، اسعى لتحقيق حوافز ، وإثارة اسئلة ، وخلـق حالة من التأمل العميق في الاخرين... علهم يصوبون لي اخطائي ويغيرون نمط افكاري وطريقة حواري.

كان النسيان يأخذ شيئاً مني، والصراحة تأخذ قسطاً آخر ومشاغل الحياة تعقّـد الامور وتجعل النفس تحتبس على الهم اكثر مما تبوح به .... ومع ذلك اتجاسر على خجلي وفي لحظة ما انطلق كما لوكنت اخبيء روحي في غور عميـق ... عميق لا قرار له.

عند آراء ابي اتوقف ، انقل له رأيي ، وانا اضعه على لسان حكيم ما واقدمـه على طبق من ذهب ... فيرتاح ابي لرأي الحكيم الذي أتّزيا به وعنـد معلمـي احتكم الى اسم اخي استاذ الجامعة ... الذي لا ياتيه الخطأ في هذه المـسألة او تلك... فهو متخصص وشهادته مقرونة بأسمه... اما اخوتي واخـواتي .. فلـم اكن امامهم إلا مرشداً ثرثاراً يضع كل شيء في موقع جدي، ويفلسف الفشل والخيبة على وفق تبريرات شتى ولا يملك اصدقائي سوى الاصغاء ومـا دامـوا يصغون ... فهم يتعلمون ومن يتعلم يحس ومن يحس لابد ان يتلمس دربه الـى حياة أفضل وفي العمل ... حيث اكون في حالة إنتقال دائم... اما ان يرفضوني- وهذا نادر جداً- واما ان ارفضهم- وهذا ما يحصل بأستمرار-. كـان رفـضهم النادر يعود الي فأنا السبب الاساسي فيه..

اعزف عن الدوام لأيام دون إجازة ولا اشعار بالانقطاع.. إنطلاقاً من احـساسي الذي يناديني ... بأنني لن اتمكن من تقديم شيء مفيد في عملي لأنني منطفيء.. والعمل يتطلب من صاحبه ان يكون جمرة متوهجة دائماً.. إذن ... ما فائدة ان استهلك زمناً ولا احصد منه فائدة تذكر ... لي ولسواي؟ وعندما يتكرر مثل هذا ... يوجهون لي عقوبة إنذار ... لا تشغلني كثيراً واعيد الكـرة، حتـى اصـبح

مثلاً... لكن هذا المثل لايجدون فيه الوجه الاخر.. وجه الرجـل الـذي يـستبق الدوام الرسمي ويتجاوز نهايته منصرفاً الى عمل دؤوب مملوء بالحماس والجهد والحرص واليقظة. واما استقالاتي التي لا تعد ولا تحصى فأنا المصيب الوحيـد فيها ... اقول هذا عن ثقة ... مؤكداً لنفسي ان رأي الاكثرية لا يعني ان يكون على صواب دائماً... فرأي شجاع صادق مملـوء بالثقـة .. يعنـي الاكثريـة . سرقات واضحة الدلالة امامي ... هل اتغافل عنها واتجاهلها ان لم اشارك فيهـا واكون طرفاً في دعمها؟

اعمال لا تليق بي ... منها ان أحابي الخطأ لأنه صادر عن مديري ادخل عليه كل صباح واحييه بمناسبة وبلا مناسبة ، أنقل له ما يدور في اقـسام الـدائرة ... أكتب بأسمه ما يشاء دون ان يحذرني الحبر الذي اكتب به ... ارسم له الواقـع المر... حلماً أيثراً واجعله من كل خطواته الخاطئة كما لو كانت فاتحة هنـاءات ومسرات لا تأفل..!؟

هل افعل هذا وانا الذي ادعو الى الاستقامة والعدل والصدق وقيم الخير؟ كـان الحزن يملأ صدري حتى أراني وقد إنقسمت الى نصفين لا صلح بينهمـا أبـد، وليس مثلي من يمسك العصا من وسطها ولا يحتكم الى الحكمة القائلة :

لا تكن جافاً فتكسر، ولا رطباً فتعصر.

فمن جفّ ... لا فائدة منه ... وليتكسر، ومن كانت الرطوبة قد وصلت اليـه ... فمعنى ذلك انه قد تعفن ... فلا بد من عصره وعرضه تحت الشمس. معادلة توفيقية ، انتهازية، تريد ان تتعايش وتتصالح مع الاضداد .. وبقيت احرص على ان يكون لي موقف ، ان اكون انا كما اريد ، لا كما يريدون لي ام اكون.

وكان من جراء ذلك أن أختلفت، والاختلاف في الرأي فـي بـلادي يقـود الـى القطيعة، والقطيعة تعني الضد، والضد يعني ان يكون احدنا حسب.. وعادة يكون الاخر سيد الموقف، لكنني لا أكون عبدا له ابدا.. وهذا أقل ما ينبغي لي اتخاذه وتقديره والاحتكام الى شريعته المنطقية .

كان الامر يحزنني.. والحزن فقدان ما تريد وغياب من تحب.. وانا لا أفقد ما لا أملك، ومن أحبه كامن في القلب والذاكرة.. ليس لاحد القدرة على تغيبه من البال

ابدا لم الحزن اذن.. ولماذا ارى الطرق محفوفة بالخطر دائما.. وماذا يعني أن تموت الازهار التي ازرعها في ربيع الخير؟

انني اتآكل كل يوم

الفضائل التي تعلمتها واكتسبتها وعرفتها وصارت جزءا من تأريخي ووجودي باتت تتضاءل وتموت وتتلاشى كل يوم.

وحتى اعيش كما يعيش سواي، لابد ان أمسك العصا من الوسط. أن احب وأكره في وقت واحد.

ان أكون ولا أكون في وقت واحد..

ان أكون أمينا ولصا في ان واحد..

ان أعشق باخلاص وأخون بأتقان في ان واحد..

اللعبة تقتضي ان نحسنها، نتقن اسرارها.. حتى نحيا سوية، حتى أكون نسخة من سواي، حتى اكون صورة مشرفة أمام سواي،ولا يهم ان أكون صورة معتمة امام نفسي المنطفئة.

ترى هل احسم الامور في خاطري على وفق هذا الاتجاه، وهذا الموقف؟!

ان اشياء مني بدأت تتكسر..

إن انسانا في بدأ يشيخ

ان كياناً شامخا مني بدأ ينكمش ويذوب..

ترى هل بمقدوري ايقاف شيخوختي وانكساري وذوبان روحي؟لست قادرا على الكذب، مع ان الكذب صار هوية كل العشاق في هذا الزمان، وبما انني لست من هذا الزمان، بل من زمان اكلته الحروب والجوع والانتظار،فانني تعلمت الصدق وشربته مع حليب أمي..

أمي كانت تحيط نفسها بالصدق، حتى أصبح صدقها بمثابة إشكال يقودها الى عقبات ومنغصات وكراهية من هنا وهناك.

كان ابي يتقي شر الامور بقدرمن التنازل والتواطؤ.. وتناكده أمي مشيرة الى ان هذا كذب ونفاق وخضوع

..

كنت احدق في عينيه، وأجده مقتنعا، معتزا، فخورا بصدق وصراحة امي.. لكنه يعتد بنفسه، رافضا الاستجابة الكلية لاقوالها.
وكانت امي تكتفي بصمته، وهز رأسه.. ذلك انها لم تكن تنتظر اكثر مـن هـذا لتعرف ان ابي .. على قناعة تامة بكلامها.
وعندما رصدتني امي ذات مساء وانا استرق النظر الى بيت الجيران .. قالت:
- هل اخطبها لك؟
- من..؟
- ابنة الجيران هناء..
- من قال لك انني اريدها..!
- نظراتك.. من يهوى ينظر، ومن ينظريبتسم، ومن يبتسم يتكلم، ومـن يـتكلم يعد، انت تنظر وتعد مباشرة..!
خجلت من صراحة أمي.. وعندما اردت نفي اقوالها، احسست بالعجز وبالكـذب يرتسم على وجهي.. وتعلمت ان لا اقع في وهم كـاذب، وعـشق مفـرغ مـن الهواء. وعندما وجدت أمي.. ابي يتأنق على غير عادته، أدركت بحس أمـرأة مجربة، ان لابي شاغل ما، شاغل يحجب صورته الحقيقية التي عرفتها عنه.
سألته: الطائر الذي افتقدناه منذ ثلاثة ايام.. عاد الى مكانه.. هل تعلم بعودته؟
اجابها وقد أكتشف المعنى الخفي في سؤالها:
- لم يجد الطائر مكانا اكثر امنا وسعادة من المكان الذي هجره.. فعاد.
-كل الطيور الوفية تعود.. الطيور البرية، طيور غجرية تختار المجهول وترتاح له.. حتى يصبح العالم الوحيد الذي تأمنه..!
يبتسم ابي ويهرب من عينيها
كانت امي تقاتل على عدة جبهات.. فهي من جهة تريـد التعـويض عـن ثقـل سمعها، بالنظر،المزيد من النظر وقراءة الشفاه الناطقة والصامته، كمـا تعـرف جيدا ما تبوح به من معالم الوجوه.
كذلك تحارب كذبا ونفاقا وعالما تستريا يحيط بها من كل جانب.. فـابي يعمـل، ومن شأن كل عمل ان يتطلب ما يسميه ابي (المرونة) حتى ينجح، اما أنا.. فـلا

اشكل الا عالما قلقا لم يستقر على حال بعد.. ويمكن لامي ان تـشكله بـصدقها وحنوها ورقابتها الحكيمة..

أتملقها سائلا:

- امي هل احببته.. وتزوجت منه؟

-الرجال لا يتزوجون ممن يحبون.. الرجال لا يقبلون التحدي.. لذلك يتزوجـون من النساء اللواتي عجزوا عن اقامة علاقة ناجحة معهن.. الزواج نصرهم.

- امي اليس هذا من طبع الانانية والجهل والخيانة والكذب..؟

- ومن طبع نساء يقبلن التحدي، ويبحثن عن المجهول، وفيهن هوى المغامرة.

- امي.. اليس هذا من طبع السقم المر، والحنين الكاذب، والرجاء المكتوم؟

تتأملني أمي . تقرأ وجهي.. تطلب الي اعادة ما قلت حتى تسمعه وتهضمه جيدا.

- يا ولد.. انت ستشقى وكلما تتعلم اكثر يزداد شقاؤك.. تحب كما لو أن المرأة التي أحببتها كل حياتك، كل الهواء الذي تتنفسه.. ولكن، ليس بمقدورك الـزواج منها.. امامك جدران حديد تحول دون تحقيق امنياتك.

كذاك تعمل باتقان واخلاص وجهود مضنية.. لكن المجد والنجاح سيعود لسواك ايضا..

ستكون الاب الاكثر برا بابنائه، اما ابناؤك فهم الاقل بكثير مما اعطيـت وبـذلت وشقيت. احدق في براءة وجهها وعمق عينيها، وأدرك ان اما من هذا الطراز.. ينبغي ان لا تموت، فالموت يليق بالرماد.. والرماد ساكن، شاحب،وامي متحركة ،متوثبة،يقضة،متألقة.. كما لو كانت شجرة روز تزهر في كل الفصول.

وأكتم سؤالي: لماذا يتأنق أبي.. وهو يمتلك روح وذاكرة وشكل امي..من مثـل امي يمتلك كل هذا البهاء؟

هل كانت امي شقية تعاني من اب حكيم.. تضيع حكمته في كل موجـة غـضب. وفي كل ومضة شباب، وفي كل نزق رجولة تتعلق باهداب عادات سقيمة، وفـي كل رغبة محمومة للربح وجمع الذهب الابيض لزمن أسود .. أذنا امي تصغي الى الكلمة الفاضلة.. ولما كانت الفضيلة نادرة في الواقع الذي يلتم حولها، فقـد راحت تنحت لنفسها فضيلة من طراز خاص ..فلا يهم ان يتزين أبي كما يشاء..

الزي ذوق وطلعة بهية واحترام للنفس وللاخرين .. كانت تتزين بثوب نظيـف، وكلمات قدّت من لؤلؤ.. وسكينة لا تعرف سوى حكمة الصمت عند البلوى.

أسال نفسي:الا تختنق امي بأسرارها؟

أسالها: امي .. من علمك الصمت؟

تجيب: من علمك الاسئلة، من جعلك تتكلم وتهدر كلاماً لا يسمعه أحد.

واخجل من عتاب ينم عنه حديثها.. أقول:

-الاسئلة، بحث عن مجهول.. سعي حثيث للمعلوم.. لست ثرثارا.. الثرثرة كلام مجاني.. هل انا كذلك؟

تضحك وتقول:

-بالعكس .. انا مسرورة باسئلتك، لانها اسئلة تبحث عن المعرفة.. واناانسانة.. تجد في الكلمات بذورا حسنة، فلا ارمي بها الا في ارض خصبة..الأنبات يهمني، لا خير في كلمات لا تنبت.

كانت امي مقصرة في كلامها.. موجزة في عتابها.. تقرأ الحكمة فـي الوجـوه والحكايات التي ظلت موشومة في رأسها منذ الصغر، حتى اذا كبـرت، كبـرت معها المعاني والاماني والذكريات، وصارت تحدثني، كما لو انها معلمتي ومـن سلالة روحي التي لم يكن بوسعي ان أغيب عن مراجعتهـا وتامـل منطوقهـا. والاندفاع نحو الوثوق بها والاعتزاز بما ورد فيها من الامال وما تفتحه من افاق رحبة على الحياة.

كان عالمي محاط بباب يحتكم الى قناعاته، وام تسترد المفقود بنداء خفي..

وانا بين المثول امام نفسي، وبين قناعات ابي ونداءات امي.. اضيع.. اضيع كما لو انني ماكنت، ولن اكون.. انا سحابة مر بها الزمن.. وباتت في الغيب

الموجة تعشق البحر

في المرة الأولى التي شاهدتها أمامي... توقفت، وصرت أتأملها عن بعد فيما كانت منصرفة عن نظراتي ... تتحدث إلى زميلاتها.

الزميلات... يعرفن من أكون، وكانت هي الكائن الوحيد الذي لا يعرف من أكون، كما لا اعرف هي من تكون.

- زميلة جديدة تنضم إلى دائرتنا ... هكذا قدمنها لي، وقدموني إليها:

-أقدم موظف في دائرتنا.. محبوب من قبل الجميع.

أسعدني هذا التعريف، وان كان شحيحاً في تعريفي بها.. وزاد فضولي :

- أليس لها أسم. أليس لي اسم ؟

- هي نسمة ، وأنت سلام .

بادرت إحدى الزميلات بالتعريف الموجز هذا... وخجلت أن أسأل من تكون، من اي حديقة تأخذ انسامها ، ومن إي بحر تجيء هذه الانسام ... ؟

كانت النسمة الصباحية تمر في ذلك الوقت. شجرة الروز القريبة تعلن عن عطر ساحر وخدود حمر بلون العشق الذي نما في عقلي وقلبي ووجداني وحواسي كلها.

أحسست بقوة جذب تشدني إلى تلك النسمة الصباحية ، وفيّ رغبة عارمة أن لا أغادر مكاناً تكون فيه مزهرة تملأ الأجواء بهاء وفتنة وحبوراً .

التقطت نظرتها العابرة، ولم ابن أمالا ولم ارض حاجة ملحة في نفسي إلى معرفتها.

كنت انشد إليها.. وكنت انفلت مني ، حتى لا يكتشف احد اكتشافي .

سحبت مني رغبتي في البقاء ، مثلما اسحب حاجة لصيقة بالارض... اسحبها، أجرها وتعاند، وتعاند واسحبها من جديد .

في المسافة بيني وبينها كنت أتوزع أجزاء صغيرة .
وفي الزمان الذي كنته، أحسني أعيش حياةً لم أكن اعرفها من قبل.
عجبت من لحظة لا تغادر ذهني وفؤادي ... لحظة رجاء وانتماء ورغبة تـشد، تشد....إلى أن أكون، إلى أن ازرع هنا واخضر وأثمر ذات ربيع.
فات الربيع، وفي من الخريف القليل ومن الشتاء الكثير ومن الصيف جفـاف أيامي كلها من تكون هذه الزهرة التي ملأت غابات روحي هكذا فجأة ...؟
ما من احد يجيب ، وليست بي حاجة للسؤال ... الأسئلة تتوجه لمـن يعـرف ، وكل الأجوبة مجهولة عندي فما يعرفه الآخرون لا يعنيني... يعنيني هذا الطـائر الغريب الذي حط فوق أوتار قلبي وساد على ذاكرتي وزرع شموسه في عوالمي كلها...
سألت نفسي: هل يسأل الطائر عن سحر بهائه والوردة عن فتنتها ، والبحر عن اتساع افقه و...و النسمة عن سر عذوبتها؟
الرجل الهادي الذي في، اخمد جمرة أشواقه وصار يذوب تحت رماد الصمت...
وصرت أراها كل صباح ... وراح الصباح يضيء جوانحي ... وبـات الـصباح أجمل الأوقات .
كنت ابحث عن خيمياء الصباح واستبدله بالذهب ... حتى صارت شمسي ذهبية وكنت ابحث عن سبيل لأحدثها ، واكتفي بنظرة .
وكنت ادون كلماتي قلادة أشواق...سأكلمها فيها ... واكتفي بتحية الصباح .
صرت اخجل من خجلي، من الرجل الذي شاخ حباً، فيما تظل وردتي تزين الكون شباباً والق.
بت أتعثر في (صباح الخير)... مع أن الخير صباحاً، كان يحملني ويضعني فـي نشوة ارتجيها.
كنت امني الشيخ الذي فيّ أن يعود الي حاملاً اكسير شباب افل... حتى اكلمها واشدها الي . اقبل الربيع المزدهر الذي في دائـرة وجههـا وشـمس طلعتهـا والنظرات الدافئة التي في عينيها والحروف الي تكرزها فوق شفتيها.

اخاطب فيها أمالاً مخبأة لسنوات معتقة حتى رأيتها ... في وقت كنت فيه اتكسر من التعب ، واذوب في ثلج الايام المريرة بأحزان تطال كل الازمنة .

-هل اتقدم إليها حاملاً قلبي وعقلي فوق كفي ...؟

احترم الرجل الذي يسكنني... واخبيء حنيناً في اربعة جدران غزتهـا العتمـة حتى تحولت إلى قبر... والزهور لا تنبت فـوق القبـور... للقبـور جفافهـا ، وللجفاف اشواكه ، وللاشواك نسائم تعبث بها فـي كـل الاتجاهـات ... وكـل الاتجاهات بلا اتجاهات.

سأرثي رجلاً كنته ، وعاشقاً نسيته ، وانساناً قتلت حواسه.

ساتقدم بالممكن... بالذي يرضاه سواي ، واودع روحي في سـدن لـه سـبع وسبعون قفلاً يحرسه سبع وسبعون حارساً شديد البأس ... يمنعون عنه الهواء ، حتى تجف سبع سنابل في نافذة سجني المنسية .

سأتقدم بالرضا... وأقول :

- هل ترضين الزواج بي ... بأبني ...؟

وتضيع : بي ... بأبني كأنهما ذائبان في بعضهما ... كان الذائب يختلط ، كـأن الخليط من جنس واحد، كأن الواحد يرث الواحد.

واعرف أن ابني ليس من جمرة روحي ولا هواء رئتاي ، ولا تلافيف عقلـي ، ولا ماء عيوني ، ولا احساس قلبي ، ولا خزين عشقي ولا نبت مشاعري، ولا هاجس امنياتي، ولا نشيدي في فضاءات زمن ضائع .

هل أخادع رجلاً اثق بي اسمه سلام ؟

هل اضيع منى الروح في صحرا ء ابني ؟

هل اعشق واحب أتزوج نيابة عنه ... نيابة عنها... وهي القريبة مني، البعيدة منه

كنت اذوب في حرقة روحي ، كما الشمعة عندما تضيء .

وما قبلت وما قبلت... ولكن الكلام عن الحقيقة ... ضاع ، ضـيعته مـسافات حاولت الغائها وفشلت ... فقد كانت تنظرني وانظرها .. ونجتمـع علـى أن لا نبوح ابداً

***

لست رهينة لأحد ولا احد يملك الحق في امتلاكي.

قررت أن أكون كما اريد ... لا كما يريدون لي أن أكون...فـان مـن يملـك مشروعي... ومشروعي أن اذوب فيه عشقاً ويذوب في اخلاصاً وصدقاً وثقة.

لا علي أن كان ... شجرة لا تثمر.. انا لا ابحث عن الثمرة انا اريد الـشجرة ... وهذا يكفيني

- وما تفعلين بشجرة لا تثمر...؟

اسألة نفسي واجيب عن قناعة كاملة:

- استظل بها ... يكفيني ومن الشجرة ظلها .

- لكن الشجرة شاخت واوارقها تتساقط...

- لكنها تضرب في الارض عميقاً ...

وادير حواراً واصل إلى قناعات ... قناعات بهذا الرجل الذي يريدني تحفة فـي بيته وعروساً لابنه ووردة في سمائه ... اختارني لنفسه .... نظراته تبوح بهذا وبهذا البوح احسه يحبني ... يحبني اكثر من نبض روحه واحبه كما لـو اننـي اعد شبابي ... ازهار شبابي كلها به وله ومنه ... لكن من جلال قدر نفـسه... من جذر الحكمة التي فيه يكتم كما لو أن الكتمان كل فلسفة حياته.

اعرف ... اعرف جيداً هذا الخزين الذي فيه، اعرف مناطق فيـه تعلـن عـن دواخل قلبه وخزائن الافكار المخبأة في اعماقـه ... ولا اعـرف كيـف الزمـه بالبوح... حتى يعلن عن اسراره.

تحدثت اليه بحضور زملاء وزميلات ... كان يتحـدث كمـا لـو انـه يجهـل وجودي... واكتشفه يغازل روحي بطريقة خفيه هادئة في العلن، ضاجة في السر .

أحب الرجل السري الذي فيه، احسه يختزن حباً عرضه الـسموات والارض ، بوسع الفضاء او قد يزيد بسعة البحر وقد يفيض ، بأمتداد الغابات وقد يمتد إلى ما لا نهاية.

أحب هذا التستري الذي يريدني لوحة يباهي نفسه واعجابه بها... من خـلال شباب ابنه الذي لا يفتنه في فتاة احلامه سوى شبابها .

وما كنت ابحث عن رجل يحترم شبابي... فالزمن كفيل به..

وما كنت ارى العمر اعواماً طوالاً ولا روضة اطفال ، ولا جارية حسبها أن تلبي وتطيع. كنت ارى شهريار ... كما لو انه هو هذا الذي ارى واحتـرم واتكـيء واستظل ..

الا يكفيني منه كل هذا ... الا يكفي العمر أن أكون لحظة ومضة ضوء معـه، معه حسب...؟

المحنة أن اقول له . المحنة أن يقول لي ... نحن متفقان على معايشة المحـن سوية..

النظرات الخجولة التي ارصدها التي يرصدها ... لا تخطيء.

ومع ذلك... كنت امتحن عقلي وهواجسي كلما لقيته، وكنـت ادرك جيـداً انـه يمتحن الرجل والموقف والعشق الدفين الذي فيه ، والحكمة المعمقة التي تغوص فيه... فيه كل شيء ، وكل شيء فيه يقول انه يحبني. انني احبه.

كيف ابوح له . كيف يبوح لي وبيننا تاريخ من الازمنة والعلاقات والـرؤى ... وبيننا كذلك ود مكتوم وحزن مخزون وجسور من الكتمان العتيد الذي يتجاوز كل الازمنة ...؟

هل يتسع البحر لموجة عاشقة ؟

انا الموجة التي تريد أن تذوب في البحر ، في هذه السعة والامتـداد ... حتـى أكون معه وفيه.

كلما كنت اراه احس بهذا الاحساس.. يمتلكني هذا الاحساس، واصدقه واتمنـاه واعيشه...

كلما وجدته يتحدث لي بالقليل وللاخرين بجمل منتقاه كأنما قدت مـن ريـشة بارعة الاداء...احسه ، يركب الحرف ، يؤاخي الكلمة .... حتى تبدو لـي انهـا موجهة لي وليس لسواي .... فأكتم ابتسامتي ويفضحني اعجابي.

كان لي . كنت ارسمه في احلامي واجسده في يقظتي...

كيف ...كيف انزع قشرة روحي واعلن لب حبي ؟
ربما يقول مراهقة... خدعتها كلمات .
ربما اقول.. شيخاً يتصابى ، يعشقني لنفسي، ويزوجني لأبنه... اي صراع مع النفس يحدث هذاا معي ومعه...؟
كان يهرب مني على الم.. واهرب منه على حزن عميق...
يهرب مني هارباً الي ، اهرب منه، متوجهة اليه.
كنا متفقان ... دون اتفاق موثق ، على أن نتخلص من بعضنا بالمعروف، بمزيد من الفضيلة ... والاعتداد بالنفس.
وكانت كل حمامة تحلق في السماء... تبوح بأسمه.. بسلامه.
مثلما كنت وشماً في ذاكرة يقظة لا تنام صورتي من باله .... هكذا تحدث عـن حب حقيقي لأحد اصدقائه... وكنت ادرك انه هو ذلك الصديق ، وان تلك الفتـاة هي ... عينها ، وليس من بديل عنها... هي التي.. هي انا .
و... ذات صباح عرفته ، و... ذات صباح عرفني.
صباح المعرفة... شمسه مضيئة وبحاره ممتده ، وانسامه رقيقة.
وبين ضوء عيون تلتقي ، ومساحة ود مخبأ، ورقة عشق دفين ... اعلن البحر عن نفسه. اعلن للموجة سر سؤاله... كان السؤال يحمل جوابه.
تردد ... مثلما ترددت...
كل الشموس تبدو خجلة في كل صباح .
كل موجة تشق البحر تبدو هادئة . ثم تذوب في البحر.
كنت اشرق في عينيه .. كنت موجة في سعة البحر الذي في ملامحه.
كنا معاً... نسمة سلام ... سلام رجل يثق بنسائم قلبه. نسمة امرأة تثق بـسلام يحفر في صميم نسائم سعيدة ...

2005/10/16

نوافذ سوداء .. مطرزة بالأزهار

ذات مساء، أعددت نفسي للكتابة فلم أتمكن منها .. وتوجهت إلى كتبي لاختـار كتابا اشغل به وقتي .. فاستعصى علي الأمر ورحت أرمي بالكتب هنا وهناك .. دون أن أجد رغبة ملحة في القراءة .

تساءلت مع نفسي ما الذي يمكن للمرء أن يفعله وهو ضجر حتى من الأشـياء التي يحبها ويتوق إليها قلبه..؟

توجهت إلى التلفاز لعله ينقذني من الضجر الذي يخيم كابوسه فوق صدري فإذا الإعلانات تخدع الناس وإذا الأنباء تنقل كل الكوارث.

إنصرفت إلى المذياع فإذا به لا يختلف كثيرا عن التلفاز وبدت مهمته لا تتجاوز مسألة تحويل الصورة إلى صوت.

هناك بضعى حديقة المنزل المتواضعة.. هناك بضع شتلات غزاها النمل وشجرة ليمون هاجمتها حشرة غير مرئية أحاطت نفسها بالبياض وراحت تأكل خـضرة الروح بأناة واطمئنان.

عدت إلى أوراقي وكتبي جلست أتأمل أصدقائي - وهي صفة أطلقها علـى كـل كتاب.. اعتزازا وتقديرا ومحبة - غير إنهم هذه المرة خذلوني جميعا ولم يسهم أي واحد منهم في تبديد جزء - مهما كان ضئيلا - من هذا الضجر القاتل الذي يحيط بي ويحاصرني ويخنق أنفاسي.

جلست على كرسي راح يئن من تعب ومن شيخوخة ومن عجـز عـن احتمـال جسدي المرهق وأنفاسي المحبوسة في صدري .

أشفقت على الكرسي .. ولم لا.. حتى الأشياء الجامدة والهامشية تحتـاج إلـى عطف ورعاية وألا انكسرت وتحولت إلى شيء لا فائدة منه .

تجولت بنظراتي إلى رفوف الكتب .. رأيتها تنام مستـسلمة للـسكون والغبـار والنسيان .. لمست واحدا تبينت انه تعفن من رطوبة الجدار .. صار مثل جثـة

متروكة .. لا أهل لها , وليس هناك من يبادر لدفنها .. أو كاب ضـال دهـسته سيارة ثم راحت السيارات تعمل على عجل حتى تساويه مع الإسفلت .

صديقي الكتاب لا ينبغي أن يدفن وإنما أن يكون في موضـع الإنعـاش عنايـة مركزة و قراءة متأنية واحتراما لشخصية المؤلف .

لم يكن ذاك الصديق سوى أبي . أبي وليس من احد سواه .

ترك لي كامل مكتبته ووصاياه وجزءاً من مذكراته التي احتواها هـذا الكتـاب .

فوجئت ... ترى هل يمكن لكلمات أبي أن تتعفن بهذه السرعة من الزمن الذي لم يتجاوز الخمس سنوات .. من دون سائر هذا البيدر الهائل من الكلمات والصور ؟

قلت.. إن أبي يمتحن إخلاصي .. وفيما إذا كنت وفيا لذكرى رحيله .. لذلك تعفن حتى يلفت نظري إليه ..

سألت : ولماذا لم يعطر نفسه بدلا من هذه العفونة التي تعافها المحبة الكامنة في قلبي نحو أبي؟

كنت اعرف أن أبي لم يعطر نفسه أبدا كان يقول : عطر الرجل حكمته ولكنه كان يستحم يوميا وهذا ما جعل رائحة الصابون الحلبي مقترنة بجسده .

إلا انه كان لا يترك غصنا مائلا في شجرة دون أن يعينه على الاسـتقامة , ولا نملة تنوء بحملها دون أن يمهد لها الطريق .. ولا يترك شـيئا إلا فـي المحـل المناسب له .

.. ترى من أين جاء هذا العفن إذن يا أبي ؟

توجهت إلى الصورة المعلقة قبالتي .. رأيت أبي يحدق بعيون حانية ورقة كنـت اعهدها فيه ورجاء في تنفيذ رغبة يريد مني إنجازها .

عندئذ عرفت أن أبي يريدني أن احميه من النسيان ومن العفن ومـن الخيبـات والقتامة التي شغلت بها روحي .

كان يتوسلني أن اترك حماقاتي في التفكير الدائم بالسفر والكبرياء العنيد في كل المواقع ومواجهة الرياح بالتحدي والإصرار الذي لا طائل منه ولا سبيل للخروج من أزمته ..

كان طيبا حد الاستسلام ضعيفا إمام غلاظة الأشياء وقسوة الزمن وانكسار القوة .
خاطبتني صورة أبي :
ـ ما من نتيجة دون سبب .
وهذا يعني أن لضجري أسبابه .
ـ كل مفيد .. وله مضاره .
وافهم العكس ما من ضارة ألا وفيها نفع ما !
ـ ثقة الآخرين بك لابد أن تقودك للثقة بنفسك .
وأنا لا أثق بنفسي ذلك أنني اعرف أين يكمن ضعفي ولا املك أي ضمان أو عهد اقطعه لنفسي بان أكون كما أريد .
ـ أنت غير آمن على روحك .. ولكن كن آمنا على أرواح الآخرين ..
.. إيه .. كم أنت مبالغ في مثاليتك يا أبي , وأنت تفكر على وفق تصور مـادي يعطي للمحسوس من الأشياء موقعه وأهميته .
ـ كن كما تريد أن تكون .. شرط أن تفخر كونك كنت كما أردت .
أنت تحلم يا أبي , تملك خيالا ملائكيا ليس بوسع احد التوقف عنده حتـى فـي أحلام الليالي العميقة والطويلة والمرهقة والشبعى .. وهذه جميعا ليست ليـالي أبدا لأنني لا أنام بعمق فانا دائم الاستيقاظ ونومي قصير وتعبي لا حـدود لـه وجوعي لانهاية له !
من أين أتي بأحلام تتحول إلى حقيقة بحيث أكون كما أريد وافخر بما أردت أن أكونه ..؟
متى كان المرء مالك نفسه .. بدءا من ولادته حتى مكان دفنه .. مرورا بعملـه وسفره وأسلوب حياته ونمط تفكيره و.. حتى طريقة شمه لنسمة أي صباح كان .. في أي مكان كان .. إذا كان أصلا !؟
تلمست طريقي إلى أبي .. استعين به كما كان يريد وليس كما كنت أريد .
فقد آمنت إنني خلقت في جيل استثنائي ليس جذره أبي بكل تأكيد ولست امتـدادا طبيعيا لهذا النمط من الانتماء لهذا النمط من الأبناء .

أنا من طراز يريد أن يأكل من البذرة التي زرعها وليس من البذرة التي دفنهـا أبي في قلب الأرض..وتوسلها وانتظرها طويلا حتى تنبت لأبنائه حلو الثمار ..

كنت أقول لأبي : ما إدراك إنني أحب الثمار الحارة الطعم المرة المذاق الحامضة المالحة المعفرة بالتراب ..؟

يقول :.. وللناس في أذواقهم شؤون .

أقول له : وإنا لا شأن لي بشيء .

يبتسم.. يبتلع جملة ترف على شفتيه ويخشى أن يبوح بها حتى لا تثقـل علـى صدري اتوسله أن يقولها .. وبعد تردد يقولها :

ـ من لا شأن له بشيء .. ليس شيئا .

أتأمله .. ولكنني شيء يا أبي والدليل على أنني شيء .. ها أنت تجدني أحاورك .. وإنا الطالب الجامعي الذي لم يتمكن من اختيار مستقبله ولم يرسم لحياته ولم يحقق ما كان يتمنى تحقيقه .

ـ أحيانا يخيب أمل الربان في قيادة سفينته .

ـ يستسلم للرياح .. وقد فعلت .. أليس في هذا ما يحزن ويقلق ويحاصر القلب ويخنق الأنفاس ؟

أتوسل صورة أبي ارسمه وهو يتكلم أصغي إلى صوته البعيـد .. البعيـد لعلـه يقترب .. يقترب فاحضنه ولا أعاف دفئه ونبراته الهادئة اقرب الصورة إلى حيث اجلس يقترب أبي يقبلني .. ثم .. ثم يطير بجناحين من الورد والندى في فجر لا ألذ منه و لا أجمل من حضوره ولا أحلى من بهائه .

توسلت اجنحة كل الطيور المنشدة والغليظة أن تعيرني أجنحتها حتى الحق بأبي .. سمعت أبي يصيح بي :

ـ يابني لا تتوسل منشدا متباهياً فتضعف، ولا غليظا فتقسو وتغلـظ طباعـك .. ليكن من طبعك المحبة وان تأخذ الأشياء بيديك لا بأيدي سواك .

خجلت .. وجعلت صورة أبي تحط تاجاً ذهبياً فوق رأسي .. فوجدت أن رأسـي يشمخ بالحكمة والمحبة .

(2)

عندما عدت إلى حديقة المنزل ثانية كانت العتمة قد دبت في الحديقـة ووزعـت ظلالها على الحشائش والنباتات وشجرة الليمون .. رحت أحدق في تلك الشجرة .. وتنبهت إلى إنها الآن تواجه عتمة خارجية وعتمة داخلية .

الخارج والداخل يتآمران على خضرتها ..

العتمة الخارجية مرهونة بالطبيعة ولا يمكن تجاوزها أو استبدالها .

الطبيعة نفسها حية تتغير وتتجدد .. ولكنها تظل قائمة وعصية علـى الاحتـواء والابادة .. اعرف هذا ولكن ما لا اعرفه وتعافه نفسي وذاكرتـي هـو .. تلـك الحشرة الضارة التي تنام على الأغصان والأوراق تحيط نفسها بهالة بيـضاء .. ومن هنا كرهت اللون الأبيض ولم يعد يشكل عندي لون النقاء انه لون تـستري يخبئ مخلوقا طارئا ينحر في قلب الليمون ويمتص لذة طعمه ويحيله إلى مـادة تجف منها الحياة .. انه الكفن الذي يتستر على الموت وفي ابهى صورة . حين يتخذ شكل الدائرة في عتمة السماء مدعيا انه القمر الذي يبث نوره إلى الكـون في حين يقول علماء الفلك وأسرار الطبيعة أن هذا النور الأبـيض .. الأبـيض الذي يعتز القمر بامتلاكه مسروق من نور الشمس , وانه ليس أكثر من جـسم معتم لا نراه إمام حقيقة ضوء الشمس نهارا .

.. هكذا إذا تبدو الأشياء على غير حقيقتها على غير الصدق الـذي ينبغـي أن تكون عليه، على وجه بديل .. زائف ؟

فكرت .. ما الذي ينبغي عمله حتى تختنق الحشرة في كفنها وحتى ابقـي علـى خضرة الروح ولذة الليمون ؟

جئت بمبيد للذباب وبدأت ارش على أماكن مختلفة من الشجرة .. ها،وجدت لي عملا اشغل به ضجري كان ضجري يزداد بعد أن عرفت أن ما أقوم به لـيس ألا محاولة غير موفقة من اجل إزالة الضجر أكثر من كونه لإزالـة ضـرر الحـق بشجرة الليمون .

كانت ظلمة المساء تغمض عيونها كليا وضوء المصباح لا يبدد تلك الظلمة بـل يبدو مثل مريض شاحب الوجه . يأكل فيه المرض وترهقه الأوجاع.

لم تكن هناك نسمة .. مع أن الخريف كان قد فتح أبوابه لاستقبال النسمات الناعمة ونفضت الأشجار عن ثوبها وتجردت إلا من رشاقة قوامها الذي يعمق صلته في قلب التربة .

بدا لي عملي .. عملا ضائعا وهروبا من زمان ومكان يرهقان أعصابي, أردت أن اهرب إلى مكان ما .. إلى صديق ترهقني ثرثرته .

إلى زمان .. وكل الأزمنة التي أدور حولها أو تدور حولي .. واحدة .

سأقصد النهر القريب من بيتي .. وتركت الفكرة ذلك أن النهر في العتمة يبدو مثل عالم مجهول تختفي فيه كائنات لا أراها ..

ـ لكن النهر قد جف ماؤه .. حتى تحول إلى ساقية !

وحين اعرف هذه الحقيقة ـ أسبابها ونتائجها ـ سأقود إلى عالمي ألما جديدا واضع نفسي أمام أسئلة لا طائل من الإجابة عنها .. ذلك إنني لن اسمع سوى نداء صوتي وصوتي يختنق واختناقي يعني أنني أعذب الرجل المنكسر الذي في .

سمعت أمي تناديني :

ـ عماد .. العشاء جاهز .

من أطلق علي اسم عماد ,على أي شيء اعتمد في اختيار هذا الاسم ,عماد من , وعماد لمن .. وأنا لا اعتمد على سواي ولا أريد من احد الاعتماد على وجودي أو حتى على عدم وجودي..؟!

أنا كائن مطلق في الفراغ لا اشغل مكانا ولا ينشغل بي المكان .

ـ عماد .. يا عماد ..

هذا صوت أمي يلح يضجرني هذا الإلحاح أنا لااجد رغبة حتى بالإعلان عن وجودي بعد سماع ندائها .. أنا من الكسل بحيث لا أجد فيه مبررا للإجابة، فأنا لا أريد أن اسمع كما لا أريد أن أرى ولا أتكلم أريد أن أعطل حواسي كلها أطلقتها من هذا الكائن المسخ الذي في .. والذي يطلقون عليه مجازا اسم إنسان .

كنت أحس أن كلمة إنسان لا تليق بي , لا تقترن بي, ولا بإنسانيتي ,الإنسان بما أنسن , بما جعل الخشن والوحشي آمنا , رقيقا .. يحلم ويعيش حقيقة عالم تملأ سماؤه بملايين الحمامات التي تأمن على ارواحها من رصاصات طائشة لـصياد قاسي الطبع .. أصابعه قدت من جسارة أفناء الكائنات التي أطلقها الله في سمائه المفتوحة .

ـ عماد .. نحن ننتظرك .

أمي .. للمرة الثالثة تناديني .. وأنا لست صيادا قاسي القلـب حتـى لا أجيـب حمامة الحنان في محبة أمي .. وأمي ترفض النوم قبل أن تتوسـل ربهـا أن ينجيني من عذاب الدنيا والآخرة ..

أجر أقدامي متوجها إليها .

ـ أمي .. أنا لا اشتهي , كلي أنت .

ـ وأنا لا اشتهي أن آكل وحدي .

اسكت . أحدق في عشائنا اليومي .. صحن العدس.. السيد السائد علـى جـدار المعدة التي أتخمت من الطعم واللون والرائحة .

.. لن اشترط بديلا , فلا بديل لما قد توفر وما توفر ألان قد لا يتـوفر غـدا .. وغدا ليس ببعيد .. وبعيد , بعيد جدا من يفكر بعالم اسمه الغد .. لان الغد بعيـد .. إلى المدى .

أتناول خاطر أمي ورقتها في ملاعق العدس .. وتذوب الخواطر والرقة في فمي ,وفمي عاجز عن الحركة وحنجرتي مسدودة , وأنا اختنق .. وأغص بقدح الماء .. والماء كسول عن الجريان في حلقي .. وأمي تداريني بالماء .. والماء يـرق من عذوبة فيه الى حنان الأمهات .. عندئذ ينساب بهدوء ويترك على وجه أمي ابتسامة .

منذ ذلك اليوم أحببت الماء عشقت عذوبة الطبع الذي فيه .. وأخذت على نفسي . أن اقصد الماء كلما أردت أن أكون عذب اللسان ولا اخدش حياء الكلمـات .. ولا استر وضوحها بستار زائف يحتمي بالبياض .

فرحت أمي وحدثتني عن أبي الذي لا تنسى ذكره في مناسبة أو دون مناسبة .

كنت احترم فيها هذه الذكريات وهذا الوفاء العارم .. كانت تقارن كل رجل تـراه أو يراها بأبي وكأن أبي قد خلق من مادة نادرة لم يخلق الله بـديلا عنهـا ولا مثيلا لها !

أمي جعلت من أبي .. إنسانا نادرا , وهي تحاول قـصارى جهـدها أن ترسـم طريقي .. حتى يلتقي بطريق أبي , وعندئذ نسير بامتداد واحد .. وحتى يرضى أبي لان ما زرعه لم يجف .. وان مساره سيظل سالكا لأنه مسار حق وصـدق ونبل ومسؤولية .

علمتني أمي أن أقدس تراب أبي .. فضلا عن كل ما عرفته وتلمسته واكتـسبته من روح أبي .

كانت روح أبي تقودني ليس إلى السماء فحسب بل إلى كل ما هو أثيـر ودقيـق وحكيم .

وإذا كنت قد اكتسبت الكثير من سمات أبي عن قصد أو عـن سـريان التـأثير المباشر وغير المباشر وهذا ما تقره أمي وتسعد وتفخر بـه كمـا يعبـر عنـه الجيران وأصدقاء أبي فان أمرا واحدا ظل يشغل ذهني دون أن اصل إلى نتائجه أو اعرف أبعاده .. وهو كيفية الحصول على حكمة أبي وكيفية الوصـول الـى القناعة نفسها التي وصل إليها أبي .

هذا ما كنت ابحث عنه وأريد الوصول إليه .. واعد نفسي بأمنية الوصول إلى ما أريد .. وما أراده أبي وما تتمناه أمي .. حتى يكون الوريد بالوريـد متـصلا . وحتى يكون طعم الحياة ابهى مما كان عليه ذاك الزمان وما سوف يكون عليـه هذا الزمان الذي أعيشه وانشده وارسم صورة الغياب فيه بلا ملامح !

(3)

أعود إلى العتمة استنطقها أرى النجوم تبرق.. تبرق هنا وهنـاك .. وهنـاك , هناك نجمة يختلف بريق ضوئها عن سواها من النجوم .. وقد قال لي أكثر مـن صديق أن هذا الشيء الذي يضيء بشكل غير اعتيادي ليس نجمة وإنما هو قمر صناعي مزروع في السماء حتى يراقب كل حركة وكل فعل نؤديه كرهت عـالم التجسس هذا كرهت اختراعا انصرف إليه إنسان أو مجموعة من البشر لـزمن

طويل من اجل ابتكار هذا الشيء الذي يراقب فيه الناس مراقبة دقيقة .. بحيث يحصي عليهم أنفاسهم ويحسب عليهم عدد نبضات قلوبهم ويمسك بأصابع القوة كل عاشقين يصدقان أو يكذبان على بعضهما .. ذلك انه غير معني بالصدق بل بفعل المحبة ذاته قمر .. وصناعي .. الطبيعة تكذب عندما تبدو في زى قمر والصناعة تكذب حين تسمي جهاز التجسس .. قمرا كم نحن نعيش حالات الخداع على بعضنا وعلى أنفسنا .. تعال يا أبي وضح لي حكمتك من هذا القمر الذي ابتكره احد (البصاصين) كما جاء في الكتب القديمة التي تسمي الذين يبصرون سواهم ويرصدون حركاتهم .. تعال .. الهدهد لم يعد الطائر الذي يجيء بأنباء سبأ .. سبأ نفسها صارت كلها تجيء إليك بدلا من ذهابك إليها .. حتى يتم التخفيف عنك من عناء سفر قد يطول أمده .

أتأمل ذاك القمر البعيد أو القريب .. عيوني لم تعد تملك القدرة على تحديد الحقائق والوقائع كما هي عليه .. صار يحددها أكثر من اعتبار ويرسم وجهها أكثر من انتباه .. وليس أمامي سوى تنفيذ ما يأمر به سواي .. فسواي على حق دائم لان حقه مقترن بقوته . وأنا لا شأن لي لأنني ضعيف والضعفاء لا شأن لهم في كل زمان ومكان .

بحثت عن القوة التي تكمن في. يقولون أن داخل كل كائن قوة كامنة مخزونة خاصة به وحده دون سواه، والذكي هو من يستخدم هذه القوة عند الضرورة الملحة والوقت المناسب والمكان المناسب ..

كانت مشكلتي التي تشغلني دائما والتي ليس بمقدوري وضع حل لها .. هي معرفة .. المناسب وأنا اجهل التوقيت وأقر حقيقة الأشياء في أوقاتها المعهودة دون مراعاة للزمن وللاعتبارات الأخرى .

تنادي أمي :

ـ عماد . الشاي جاهز .

لا أرد , وأشفق عليها بالرد:

ـ نعم : سأجيء حالا .

ولا أجيء .. فتنادي ثانية :

ـ عماد .. الشاي .

اركض إليها حتى اسكت صوتها الذي اعرف انه سيظل ينادي دون توقف هذا ما صنعته الأمية والجهل .. حين لا يعرف أصحابها بمشاعر سـواهم , حينمـا لا تبرق عيونهم وكامل حواسهم بما هو عليه الآخر .

الأخر الذي هو أنا يضيق صدره حتى يعاف نفسه ويطلق زفراته حسرة ونـدما على عمر تمضي سنواته دون أن يحقق فيه المرء ابسط أمنياتـه فـي العـيش مطمئنا على قوته وأمنه وحريته .

اجلس قرب أمي المنشغلة عني بالحياكة تارة وبالنظر إلى التلفاز تـارة أخـرى وقدح شاي مل من دفء الانتظار حتى بردت أشـواقه إلـى الحفـاوة بـشفتين ضامئتين ..

أمي .. تواجهني بسؤال يبدو أنها فكرت طويلا قبل أن تعلن عنه :

ـ عماد .. ما بك هذا اليوم .. هل سئمت من العدس ومن الـشاي .. هـذا مـا بوسعنا توفيره هناك من لا يتمكن ..؟

سؤال مفاجئ وصل أذني وصار يدق فيهما ويضرب على أوتار مخبأة في صدري وليس بمقدوري البوح بها والكشف عن حقيقتها .. لأنني وصلت إلـى قناعـة أكيدة هي آن أصحاب الحقائق كلها وعلى مر الأزمنة مـدانون بجريمـة الثقـة بقناعاتهم , وأنا رجل أسير في موازنة مع نفسي ومـع الجـدار الـذي يـلازم مسيرتي , عله يسند تعبي فأتكئ عليه عند التعب .. ولكن .. لكن مـن قـال أن الجدار سيتحمل جسدا متعبا منهارا , من قال انه يقبل بان احتمي به ولا يعلـن عن انهياره .. وهو منطق رفضه ؟

ـ عماد . ما بك , ما الذي يشغلك , قل يا عماد , طمئن أما ليس لها في هـذه الدنيا سواك ..

ـ أمي .. لاشيء أبدا , تشغلني دروس الكلية , وطلبات الكلية , وأوامر الكليـة التي لانهاية لها أبدا .

ولكنك لم تكن تشكو من هذه الكلية أبدا .. فيها أحببت سعاد وتواعـدتما علـى رسم حياتكما القادمة سوية !

أردت أن افصل لها إحساسي بالضجر من كل شيء حولي وفي .. لكنني كنت على ثقة بأنها ستمطرني بكثير من الأسئلة حتى يفجرني تراكم الضجر .

ـ أمي .. سعاد موجودة والكلية بخير .. والنفوس عامرة بأهلها , والبلاد سعيدة بما هي عليه من نعم حباها الله بها دون سواها من البلدان .

وانهض .. آخذا بفم معطل عن التذوق شاي لم يعد شاياً أنما ماء له لون وطعم مختلف عن المألوف .. شربت ما كانت تعافه نفسي , حتى أرى أمي هانئة مطمئنة ..

تذكرت قول أبي : النفوس الكبيرة تشقى لذاتها وتسعد لسواها وتفنى من اجل حقيقة تبوح بها.

ضحكت في سري من حكمة أبي, وأبي تسره ضحكاتي ,وضحكاتي عادة تطمئن من يراها وتسخر مني أنا الذي يتلبسها .

هكذا إذاً .. ارتدي زياً لا أؤمن به ولا أنسجم معه ولا اطمئن أليه .. وهذا ما لا عهد لي به عن نفسي فانا اعرف الرجل الذي في والرفض الذي يحكمني بالصمت , والصمت الذي يلزمني بالتعبير عن حالة التخفي والاعتراض لأظهر بمظهر المشارك والمتفق والمؤمل ..

أمي . لا تملك غير الأسئلة وأنا لا املك سوى مهمة استقبال هذه الأسئلة بكثير من الحفاوة وقدر اكبر من الصبر .. فانا كائن أقع في منطقة محاصرة بأسئلة كثيرة لا شأن لأحد بالإجابة عنها لان لا احد هنا ولا احد هناك و لا اعد نفسي بان أحدا سوف يأتي للإجابة عن كل تلك الأسئلة .. لان كل الأسئلة باتت مفرغة من محتواها !

(4)

توجهت إلى مكتبي , صوبت نظري إلى صورة أبي سألته :

ـ لماذا علمتني الوهم بدلا من الحقيقة , لماذا جعلتني افصل بين الحق والباطل , لماذا خلقت مني كائنا يؤمن بالفضائل حتى يحسب الجميع حالة استثنائية لا يمكن القبول بها أو الركون أليها .. لماذا فعلت كل هذا أمامي وجعلته قواعد ثابتة ينبغي علي السير على وفقها .. لماذا ؟

أمس قدمت استقالتي من الوظيفة .. قلت أن الوظيفة لا تسد براتبهـا الـضئيل رمقي . ولا تعادل في مردودها جهد ساعة من عملي .. وانه لم يعد بمقـدوري الجمع بين الوظيفة والدراسة الجامعية .

الوظيفة تأخذ مني جهدا ذهنيا وطاقة عضلية طوال النهار .. ولا تعطيني سـوى ما يعادل ثمن وجبة طعام واحدة في مطعم متواضع !

أما الكلية . فقد زادت طلباتها يوما بعد آخر . حتى أصبح من المتعـارف عليـه والمعمول به أن النجاح مرهون بالتوريق .. والتوريق مفردة جديدة دخلت إلـى قاموس اللغة العربية في العراق مطلع التسعينات ويقصد بها عد النقود الورقية ودفعها مقابل كل عمل مطلوب إنجازه سواء كان قانونيا أم غير قانوني حقـا أم باطلا , حراما أم حلالا , ممنوعا أم مسموحا .

تداخلت الأشياء بحيث بات على كل ميسور القدرة على تحقيق النجـاح والفـوز ليس على درجة النجاح في الكلية حسب، وإنما تخطى عتبة الجامعـة بكبريـاء حاملا شهادة عالية ولقبا علميا يسبق اسم صاحبها .

ترى ما موقعي وأنا الذي كنت امني نفسي بان أكـون معلمـاً ومربيـاً لأجيـال متعاقبة أو محامياً يدافع عن حقوق الناس المستلبة منهم عنوة أو طبيبا يوقف كلمة الألم على الشفاه التي تتوجع وتئن .

كل شيء صار وهماً .. ولم أكن المعلم ولا المحامي ولا الطبيب ..

فرص عديدة فتحت أمامي حتى أكون شرطيا .. وأنا الذي لا شروط لي مع احـد ولم أكن لأرضى أن يشترط علي احد .

و.. فرصة وحيدة لا خيار لي سواها هي أن أكون ممثلاً أو مـشروع ممثـل أو مدرسا لمادة هامشية لا شأن للامتحانات العامة بها وإنما وجدت لتكون بديلا عن الفرص القصيرة الأمد أو سبيلا موفورا من الوقت يمكن لأي مدرس مادة علمية أن يشغله ويطمئن طلبته بنجاح مطرد بينما يكون العلم مطرودا من نافذة الصف المدرسي!

في الوظيفة آخذ وفي الكلية أعطي .. وليس ثمة موازنة بين الآخذ والعطاء .

وحتى أكون سويا بين الناس , و لا أتسول لقمتي ولقمة أمي . رحت ابحث عن عمل ..

عملت عتالا فكلّ متني , وعملت محاسبا لدى تاجر فأخطأت في جدول الضرب , وسائقا عموميا فشملتني غرامات وتوسلات من شرطي المرور لم تكن لتنتهـي قبل أن ادفع أضعاف ما حصلت عليه من أجور طوال يوم كامل وفي أيـام أخـر رحت ادفع أجور تصليح غير متقن لميكـانيكيين لا خبـرة لهـم وثمـن أدوات احتياطية رديئة الصنع أعدت خصيصا لتصديرها إلى بلادي وهو في محنة الجوع وقتامة الروح وانتشار عفن المرض والعوز والموت غير المؤجل ..

عملت مصححا طباعيا فأفلتت مني كلمات , وصباغا للدور ولم تعجـب الألـوان صاحب الدار , وعامل بناء فصهرتني الشمس .. شمس آب وهي فـي وضـع عمودي حددت أهدافها باتجاه رأسي ..

عملت مسؤولا لناد سينمائي فاتهموني بعرض أفلام ممنوعة تـشكل إسـقاطات تكسر الظهور ومسؤولا أداريا في مصنع .. طردوني منه لأنني تـساهلت فـي ضبط الدوام ..

وكانت اسعد مهمة عملت بها .. محررا في جريدة يومية انهوا خدماتي منهـا بعد استلامي راتب الشهر الأول .. قالوا لي أن كتاباتي لا تعرف سوى النقد مع أن ظواهر ايجابية كثيرة تدور حولي وأمام نظري دون أن اكتب عنها مما يـدل على أن النقد الذي اكتبه نوع من النقد الهدام والمعارض وغير المرغوب فيـه ..

إلا أن هذا الرفض المستمر لعملي في كل ميدان اقصده وبعد كل مدة قصيرة من العمل .. بات متوقعا بالنسبة لي , حتى أنني بت ألفه واعتاد عليه واحتاط له في البحث عن عمل لاحق.

لم أكن شؤما على احد ولم أكن قد وقعت في فخ الخيبة كما يجري في حـالات مماثلة .. قد استاء بعض الوقت ولكن بمرور الزمن أنسى كل شيء وابدأ مـن حيث انتهيت .

كانت الحالة التي تقلقني دائما هي حزن أمي وهي تراني عاطلا .. في وقت أنشد فيه العمل واتوسله .

كنت اعرف جيدا أنني حريص على أنجاز أي عمل يعهد به ألي .. لكـن العمـل كان يهرب مني وكأنني على الضد منه , على الضد من حالة الوئـام بـين مـا انشده من استقامة وما ترتابه الاستقامة نفسها في .

وكانت أمي تعرف هذا الإخلاص وهذه الحميمية التي تربطني بالعمل لكنها لا تجد معرفة بالسر الذي يكمن في بطالتي بين وقت وأخر !

تسألني ..ولا تعجب عندما أجيبها لا اعرف الأسباب .. والأسباب تهرب مني غير أنني كنت أدرك جيدا أن الأسباب وجدت حتى تلصق بشخص ما , ولم يكن هـذا الشخص سواي .. وان التهم لم تخلق لو لم يكن هناك إنـسان مـتهم , وهـذا الإنسان هو أنا..!

أما لماذا أنا وليس غيري فهذا ما لا اعرفه وليس مقدرا لي أن اعرف ما أريـد معرفته .. فتلك غاية لا تدرك وما لا يدرك هو شأني الذي ابحث عنه وأفتش عن السر الذي يكمن فيه . دون جدوى ! . كان ما بيني وبين أمي هدنة واتفاق غير معلن , ولكنه مرغوب وينسجم مع رغبتي بالصمت ورغبتها المتخفيـة بجـلال الصمت .. بأن لا تسأل , لان في السؤال مشقة وفي المشقة تذكير بجـراح لـم تلتئم وما لم يلتئم عرضة لمضاعفات .. كلانا في غنى عنها .. لذلك بات العهـد بيننا أن لا تسأل وان لا أجيب .. مع علمي الأكيد أن أسئلة حائرة كثيرة تدور في رأس أمي وتتحول سريعا لتنتقل على طرف لسانها ومع إصراري علـى عـدم الإجابة لكن إجابات حقيقة جاهزة تقولها حواسي كلها .. وأمي , أمي الوحيـدة التي تفهم لغة حواسي بوضوح .. عندئذ تحترم اتفاقنا السري على أن لا تـسأل ولا أن أجيب .

(5)

في الجامعة , وفي كليتنا الفنية .. تتكرر عبارة شكسبير في مسرحية (هاملت): (أكون أو لا أكون .. تلك هي المسألة) بدون مناسبة دائما، ويتعبنـي الجهـل

المعتق بين زملائي ويرهقني التوضيح الدائم فـي تفـسير المعنـى والموقـع والمناسبة .
أحيانا اضحك على وفق طريقة الكوميديا السوداء كما اعتاد أسـاتذة المـسرح تعريفنا بكل موقف مأساوي مثير للبكاء .
في الكلية يريدون إعمار المسرح ومطلوب منا نحن الطلبة الإسـهام فـي هـذا الأعمار وبجهود ذاتية .. وبأموال من عرق جباهنا .. في وقت نحس فيه جميعا أن أرواحنا قد هدمت وان لا جباه لنا .. لأننا بلا وجوه أصلا وما يـدل علينـا ويميزنا عن سوانا , هي الأقنعة التي نرتديها دائما ...
مع ذلك تظهر مبادرات لا تفرق بين رغيف الخبز والليرات الذهبيـة .. كلاهمـا يشكلان دائرة متكاملة وكلاهما ميال إلى السحنة التي تجمع بين لـون الـسنبلة ولون القطعة الذهبية وكلاهما مرغوب فيه حد القتال والموت من اجل الحـصول عليه!
في حالة عدم التمييز هذه، نجد عددا من زملائنا يبادرون إلى تقديم يد العون إلى الحرم الجامعي احتراما وتقديرا للمؤسسة العلميـة التـي يتلقـون زاد العقـل والمعرفة داخل جدرانها .. أما نحن الكثرة الباقية فأننا نظل نقدس رغيفا يبـدو كعين الشمس بهيا صعب المنال وعلاقتنا بما تقدمه لنا من معارف يزدهر خارج جدرانها !
هذا الحال خلق حالة درامية نتج عنها أن يكون النجاح والتوفيق مـن نـصيب زملائنا أصحاب الكف الذهبي . .أما نحن الحالمون الذين ندعي أن غودو بكيـت لابد أن يأتي مهما طال انتظارنا لمجيئه .. فأننا لانصرف مـن أحلامنـا سـوى الخيبات المتلاحقة ومع ذلك نصر على أن غودو لابد أن يبـر بعـودة ميمونـة وعدنا بها منذ زمن طال أمده .
الكف الذهبي .. ما أن يلمس الأشياء حتى تتحـول إلـى ذهـب لا علينـا مـن الأسطورة المغفلة التي حولت الرغيف إلى قطعة ذهبية بعد لمسه !
فهي ليست بحاجة إلى الخبز أصلا فبأمكانها أن تتذوق مـا تـشاء بـالأوامر .. فيستجاب لها .. من هنا اكتشفت كذب الأسطورة وجهل الذين تناقلوهـا وكتبـوا

عنها , وجعلوها مثالاً حياً للتنديد بجمع المال .. المال .. المال .. وحده يطردنا جميعا نحن عشاق وجه الشمس .. الرغيف يطردنا من الشهادة الجامعية العليـا والوظيفة التي نستحقها والموقع الذي يناسب مواهبنا وكفاءاتنا وقدراتنا ..

و.. أحدق في عمق الليل إلى صورة أبي .. أجدها تحتجب عن ناظري لأول مرة تخجل أن تراني .. تخبئ نفسها في العتمة أشعل المصباح .. فأرى أطارا خاليـا من صورة أبي .. أعجب , من اخذ أبي مني , من سـرق حكمتـه مـن قلبـي وروحي وذاكرتي .. أناديه :

.. أبي , أبي تعال و دع كل ما تعلمته من حكم ومأثورات وفضائل وقيم وأعراف .. دع عمرك جانبا وتعال , تعال نتحاور .. فأنا لم اعد أعيش تحت مظلتك .. لا لأني أريد أن أتمرد على تعاليمك التي احفظها وأقدسها وتجعلني على صلة دائمة بك ولكنني أواجه واقعا جديدا , تبدو فيه كل فضائلك , ليس أكثـر مـن قطعـة زخرفية أنيقة مركونة على جدار أصم .

وتتخفى صورة أبي , تبدو خيالا يغيب تارة ويظهر تارة أخرى .. ترى هل يخجل أبي من قناعاتي الجديدة التي يقف على الضد منها هل يكابر ويعفي نفسه مـن مناقشاتي بشأن كل ما عدت أدركه الآن .. الآن , وليس ما أدركه هو بالأمس .. وما سوف يدركه ولدي في الغياب الأبدي والأمنية المستحيلة غدا ..!

أناديه : أبي , لم اعهد فيك كل هذا الصمت , الصمت جهل وأنـت الـذي تعلـم والصمت جبن وخوف ورهبة وأنت شجاع في الحق , والصمت موقف الضعفاء , وأنت قوي في احتمالك على الملمات , قوي في صدقك .. وبه وحـده يعلـو صوتك , يغدو قويا يملأ بقوته الزمان والمكان ..

فبماذا احلل صحتك كل هذا الوقت . وأنت الذي لا يتقن لغة الـصمت و. لـيس صحتك حسب , أنما صورة الرجل الذي اعرفه وهو دائم الحضور يعرف التجلي , لا التخفي , الوضوح , لا غيوم العبارة , التعبير لا يخونك أبدا , وأبدا لم تكن بالرجل الذي ينسحب من الحجة , بل يأتي الحجة بأقوى منها , والأدل عليها ..

أين خبأت وجهك يا أبي .. وهل يخبئ الآباء وجوههم عن أبنائهم عندما يملـك الأبناء عدة وافية من البراهين والقرائن والأدلة ؟

لقد خيبت آمالي جميعا بغياب أبي .. وبت أحـس بالـضجر يقهرنـي ويـصرع الإنسان الصلب الذي كان في والذي كان أبي قد بناه في كل قطرة من دمي حتى إذا رحل .. قال انه قد أدى رسالة الأبوة بكل إخلاص إلى ابنه ..

الان أنا بحاجة إليك يا أبي .. تعال أقول لك عن فوائد العتمة الإلزامية بعد قطـع التيار الكهربائي المبرمج تارة وغير المبرمج تارة أخـرى .. نتيجـة اسـتهلاك المعدات الخاصة بالطاقة الكهربائية .. وإسرافنا نحن الذين اعتدنا التبـذير فـي نشر الضوء في كل مكان .. وكان علينا أن نقتر في الـضوء والمـاء والخبـز والدواء واستنشاق الأوكسجين .. ذلك أن العالم المتحضر اليوم يقطـر الـضوء تقطيرا ويقيس حالة الآرواء بمقاييس دقيقة جدا ويتناول الدواء على وفق النظر أو اللمس حسب .. أما اخذ الهواء هكذا وبشكل مجاني مطلق فهو هدر وجهـل وحماقة ومؤامرة كبرى على اقتصاديات البلاد التي ينبغـي علينـا أن نـصونها ونبعد عنها شر المعتدين!

ألان . سأشرح لك فوائد العتمة , ضمن فوائد كثيـرة سأوضـحها لـك لاحقـا والمتعلقة بفوائد العطش واستعمال الأعشاب بدلا من الدواء , والنوم عن جـوع أفضل بكثير من النوم ببطون شبعى , واستهلاك الهواء بهـذه المجانيـة غيـر الحضارية ..يعني الجهل.

سأبدأ بالعتمة , معبرا عن فوائدها العظمى .. ترى هل تسمعني هل تصغي ألي أم تقفل على أذنيك حتى لا يصل أليك ندائي ولا تتوضح صورة هذا النداء أمامك ؟

العتمة يا أبي سبيل جديد إلى توحيد العائلة وجمع شملها بعد أن فـرق التلفـاز وحدتها , والضوء جعلها تنتشر بعيدا عن بعضها ..

كذلك يراد منا أن نحس بنار جهنم فنتوب وننصرف للأيمان بالله.. أمـا مـضار الأوكسجين فهي كثيرة .. منها أن هناك غازات سامة مذابة في الهواء ولم تجر تنقيتها .. الأمر الذي قد يؤدي بأولئك الذين يأخذون الهواء الخام ليكونوا عرضة للموت قبل سواهم .

وأما الماء .. وما أدراك ما فيه من شوائب وكم هو بحاجة إلى النظافة وكم نحن جهلاء عندما نستخدمه للطعام والوضوء وارواء العطش .. من فكـر أن يعـود نفسه على العطش حتى لا يصوم شهر رمضان وهو يعاني من العطش ؟

وأما الأعشاب الطبية , فهي اصل كل دواء وما نراه في الصيدليات ما هـو إلا سموم , بدليل أن الحية صارت رمزا يعلن عن كل صيدلية .. وأصحابها يعترفون علنا بهذه الحقيقة ونحن لا نتعظ !

وأما الجوع فهو دليل الصبر .. ألم نقرأ عن احد أجدادنا وضعه حجرا على بطنه حتى يحميها من الجوع .. ألم يقل علماء الطب أن المعدة بيت الـداء .. وهـم يقصدون بالطبع المعدة المتخمة بالطعام .. وان المرض الذي سمي بداء الملوك لم يكن ألا نتيجة لتناول اللحوم ..؟

وأما .. وأما .. وأما ..

كثير من قناعاتك يا أبي ذابت في الزمان ..

فالقاضي صار يحكم وهو ببطن خاوية .. فقد أسـبغت عليـه نعمـة التوريـق الإحساس الدائم بالشبع .

والطبيب صار يقيس ضغط الدم .. وعينه على كف المريض وهي تقبض علـى الأوراق المالية ..

والتدريسي بدءاً من حلم الطفولة المبكرة في الابتدائية حتى شيخوخة طلب العلم مشغول بالرياضيات فهي علم هذا العصر وبه قياس المال الذي يـشكل شـريان الحياة ..!

.. ها .. أبي , أكنت تعلم بكل هذا ؟

دعني أنير لك طريقا كنت تجهله .. وتصر على عكسه تماما .. كنـت تقـول : العملة الجيدة تطرد العملة الرديئة , هكذا يقول علم الاقتصاد أما الواقع فأنه يقر ويؤكد ويبرهن حقيقة أن : العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة ..

ترى هل اصدق العلم أم الواقع ..؟

(6)

طوال سنوات الدراسة في الكلية مارست أعمالا شتى دون إن افلح في أي منهـا .. فانصرفت كليا نحو القراءة والكتابة وقصدت كل المكتبات العامة في مدينتي , ذلك إن شراء كتاب يعني بالنسبة لي الشيء الكثير .. وما يمكن إنفاقه من راتب أبي التقاعدي لا يسد الرمق , فكيف اصرف القليل الذي في حوزتي من النقـود على اقتناء كتاب ؟

سرني إن ترحب الصحف والمجلات بما اكتبه من نصوص قصصية ومقالات في شؤون ثقافية مختلفة .. وصارت تنشره وتدفع لي عن نشره مكافآت هي عندي بمثابة كنوز ثمينة اعتز بها .

أدركت إن للكلمة الطيبة ثمن توجيه الناس إليهـا .. ثمـن إن اشـغل رأسـي بمهمات كبيرة وفي شؤون عميقة حتى صار الـبعض يناقـشوني فـي أمرهـا ويوجهون الأسئلة المتعلقة بها .. ومع إن بعض ما كتبته قد أثار حفيظة البعض وأثار ردود فعل حادة , كدت من جرائها أقاد إلى مكان لا يأمن احد من صـمته الصائت ويفضل الإعلان عن جواب جاهز بدلا من جواب صادق .

طلبني رئيس تحرير صحيفة (الأيام) وتوسم نجاحي في عمل اختاره لي وزاوية أحررها .. أفرحني الطلب وفتح أمامي سبيلا إلى أفق واسع والى اتخاذ الكتابـة مهنة لي .. وكنت اعلم جيدا إن مهنة كهذه تحتاج إلى خزين دائم من المعلومات والخبرات والتجارب والعلاقات وتطوير الثقافة والاستيعاب بشكل دائم وبدون ذلك سيظل قلمي عرضة للجفاف .. وأوراقي ستتحول إلى كفن جراء البحث عن جثة حتى أتخلص من وجودها !

هذه المرة واجهت تحولا جديدا .. هذا التحول بدأ من نظرتي إلى بياض الورقة , صرت أحب هذا الفضاء الواسع الذي فتح إمامي فرصة ثمينة للبوح , لقول مـا أشاء .. لم يعد البياض هو الكفن الذي ادفن فيه كلماتي وأشده إليها وأخفيها في داخله مثل حشرة الليمون .

بت ابحث عن نقاء الورقة وهو يستقبل كلماتي بشغف ويجعلهـا قـادرة علـى الانتقال إلى رؤوس وإحاسيس الناس .

حصلت عل الشهادة الجامعية التي لم تكن لتسهم في معرفتي لا قليلا ولا كثيـرا بل هي أربع سنوات ضاعت من العمر حتى احمل الشهادة التي لا تـروي مـن عطش ولا تقي من جوع ..

أكملت الخدمة العسكرية الإلزامية .. ألزمت نفسي على الاستقامة سـواء فـي تنفيذ الأوامر أو انضباط الدوام والسلوك الذي كنت أباهي نفسي به فقـد كنـت الجندي المكلف الوحيد الذي لم يطلب أجازة ليست من حقه .. ولم يقـم بعمليـة التوريق حتى يستريح من عناء التدريب ..

حظيت بالاحترام .. هذه حقيقة لابد من الحرص على قولها - وان كنت اعلم إن هذا الاحترام يكمن في احترام موهبتي في الكتابة وتوظيفها أسلوبيا لصالح العمل الإداري العسكري - لكنني فوجئت وخجلت وخنقت صوتي عندما طلب ألي آمري إن اكتب مقالة تحمل توقيعه ..!

فعلت , لا أفكر إنني قد فعلت ولم لا أفعل وكيف لا أفعل..؟

كانت تلك تجربتي الأولى في الكتابة بأسماء الآخرين .. وقـد توسـعت هـذه التجربة بعد انتهاء الخدمة العسكرية لتشمل أعادة كتابة وتحرير مقـالات غيـر صالحة أصلا للنشر بسبب فقر أسلوبها وموضوعها .. لكن رئـيس التحريـر يطلب ألي أعدادها للنشر .. وقد فهمت فيما بعد أن بأمكاني تمزيق مثـل تلـك المقالات وكتابة غيرها .. شرط أن تكون حاملة توقيعا لسواي !

كرهت عملي لأول مرة أحسست أنني اعد مجداً محسوباً لغيري .. وأن غيري لا يكلف نفسه حتى بتقديم الشكر لي بل إن بعضهم لا يخجل من جرأته في مناقشتي بالمقال المنشور والذي كتبته بنفسي .. حاملا اسمه !

عجبت .. كيف انسب إنجازا لسواي على انه إنجازي ..؟

زادت أجوري , صار كل وقتي للقراءة والكتابة .. ما عدا ساعات اقضيها على نحو عابر في تدريس التربية الفنية في أحدى الثانويات .. وأتقاضى راتبا مثـل سواي من خريجي الجامعات العلمية .. وفي الغالب لا أجيء إلى المدرسـة ولا يجرؤ المدير على تأشير غيابي مدعيا إن دروسي ليست أساسية وانه قد نجـح

في إقناعي بإشغال الدروس التي بعهدتي إلى المدرسين الـذين يحتـاجون إلـى أوقات إضافية ..!

أدركت جيدا طبيعة المخادعة في المدرسة الثانوية والصحيفة والـشارع حتـى تسلقت الخديعة جدران بيتي وقلب العروس التي سأقترن بها .. والتي لم تحـظ باهتمامي أبدا مع أنني حظيت باهتمامها .. حتى أخجلني هذا الاهتمام اللامحدود وجعلني أتقدم لخطبتها .. واجعل من أمي صديقة حميمة .. تسأل عنهـا يوميـا وتمني نفسها بالزواج والعيش مع الطائر السعيد الذي سيملأ حياتهـا فرحـة لا وسع لها ..

هذا الإدراك جعلني أتنبه إلى حقيقة أهميتي في الجريدة التي اعمل بهـا وكيـف أنني اصنع نجوما وأقدم أعلاما في المعرفة .. مع علمي جيدا إن تلـك النجـوم منطفئة تماما وان أولئك الذين يتباهون بأسمائهم .. ما كانوا ليكونوا لولاي ..

وعرفت إن إدراكي هذا لا يفضي إلى شيء .. بل هو عمل أنا مكره على إنجازه .. ملزم به , كاتم السر عليه ..

و.. تحولت الكتابة إلى منجز آلي لا أحس بحرارته، ولا دفق أفكاره، ولا حقيقة دوافعه، ولا نتائج هذا المنجز .

صرت اكتب لسواي، وسواي يكبر في عينيه وفي عيون سواه ..

سواي صدق الكذبة التي يعرف جيدا أصلها .. وسوانا لا يعرف إلا كوني كاتبـا وصحفيا متواضعا وأمامي يتقدم عدد من العقول التي تعني مما تقوله شيئا.. هذا الشيء يكبر ليتقدم أصحابه فـي الـدرجات الوظيفيـة والمواقـع الاجتماعيـة والسياسية ..

اعرف أنني كنت أتقدم .. فهل تكفي معرفتي بنفسي ..؟

((اعرف نفسك)) ها .. أنني قد عرفتها , فماذا تعني معرفتي هذه ؟

وبصوت ناعم وخطوات هادئة رحت أوفر المـصادر لطلبـة الدراسـات العليـا للحصول على شهادات الماجستير والدكتوراه وأنا الذي احمل شـهادة جامعيـة يتيمة بالكاد حصلت عليها .. وبعرق الجبين وسهر الليالي وأيقاظ الفجـر مـن نومه .. توفير المصادر والمراجع... تطور إلى خطة الرسالة الجامعية وأهدافها

وطرقها والنتائج المطلوب الوصول إليها .. كتابة التقديم .. كتابة الفصل الأول .. ثم كتابتها ثانية ثم مراجعتها .. ثم .. ثم .

أبي .. أين أنت إما زلت تخبئ رأسك .. خزياً وعاراً من الابن الذي لم تعده ليكون هكذا ليقترف جريمة الكتابة لأعداد جيل زائف لخوض معترك الحياة والعمل مع الناس من مواقع تربوية وقيادية ..؟

حقك .. والله حقك , اقسم بقدسية رأسك الجليل عندي .. ولكن الظروف يا أبي حالات القهر والمسؤولية .. الدنيا تغيرت يا أبي ولم يعد كل ما علمتني إياه صالحا في هذا الزمان .

هذا زمان ليس زمانك كما انه ليس زمني الذي كنت أتمناه واطمح إليه .. انه الوجود الغريب الذي راح يسري كالسرطان في أجساد الأصحاء والذي أنا ملزم بقبوله .. ومضطر للتنازل عن قناعات سابقة ..

أبي .. هل نسيت حكمتك الأثيرة :(لا تكن جافا فتكسر ولا رطبا فتعصر) ؟ هذه الحكمة مدعاة لتقديم تنازلات .. نعم , أنت تقدم ضعفي وتقبل به وترسم لي خطواتي حتى أكون في حالة توازن مع نفسي ومع العالم المحيط بي .. أما كنت تعلم إن هذا التوازن وهذه الملاءمة تقتضي عدم الإصرار حتى في الحالات المؤكد صحتها حين تصطدم بحالة مضادة .. أما تعني حكمتك القبول بالحلول الوسط ..؟

الوسط هنا .. يعني الخطوة الأولى في طريق الخطأ يعني الانكسار الأول في التنازل عن القناعات الثابتة، يعني المرحلة البكر في التخلي عن الفضيلة.. يعني هذا الوسط , الانتهازية واغتنام الفرص والقبول بالقليل أملا بالكثير ..؟

أنا إنسان أعرف جيدا كل ما أفعل , وكل ما أريد .. لكنني بدأت أحس بالغبن بحقوق تستلب مني وبمعرفتي ..!

أعرف إن طموحات المرء ثلاثة : المال والسلطة والمرأة .

أما المال فقد رضيت بقليله وأما السلطة فلست طامعا فيها لأنني اكره إن أكره أحداً على ما لايرضاه وحتى لا يجيء أحد يكرهني على ما لا أريده .. وأما المرأة فقد كفاني منها أن تكون زوجة أليفة فحسب .

ولكن .. لكن يظل رجائي يتوسل في الزمان وآمل أن أخذ ما أستحق .. ترى من يعترف بأحقيتي هذه .. من يتخلى عن موقعه وزيفه .. لحقيقة ما .. أي حقيقـة ..؟

ما من أحد رفع صوته رافضا ..

ـ هذا مكان لا أستحقه وخبرة لا أعرفها وموقع لست آهلا له .. ما من أحد قال كلمة صدق :

ـ هذا موقع يليق بفلان .. وهذه مسألة .. خير من يحلها فلان ..

لا شأن لفلان بفلان .. فلان اسم نكرة لا يعرفه أحد .. ومعرفة يتنكر لهـا كـل واحد .. لان هذا الواحد يتقدم مسبوقاً بالقبول .

أحدق في صورة أبي .. في الإطار المعلق .. في الـصورة الفوتغرافيـة التـي غيبها الزمان أو غيبت نفسها عن الزمان والمكان .. اسأل :

ـ لماذا علمتني وأشعلت الضوء في رأسي , لماذا لم تبق على الغفلة الفطريـة التي كنت فيها مع أمي . وأمي وفية بارة بك .. وبك أنت تبارك روحها وأحلامها وأوقاتها السعيدة ..؟

لو لم أكن أعلم .. لما كان كل هذا الضجر .. لما كان هذا الأمل المقتول في قلبي ورأسي وحواسي .. لما كان مذاق العسل في فمي يحمل كل هذه المرارة .. لمـا كان الحنظل قد جف في حلقي ..

أن حقيقة ما أعرف يتآكلني يا أبي .. والتستر على هذه الحقيقة يضاعف ألمي , حتى لأدرك أن لا نهاية للخطأ , ولا..كشف للجريمة .. ولا..جريمة سوف تكون في منطقة الضوء أبداً ..!

(7)

بقيت حتى ساعة متأخرة من الليل ساهرا لا تلتفت عيوني إلى الراحة والـسكينة والنوم .. توجهت نحو سريري بعد إن تناولت قرصا من الفاليوم حتى أنام بعمق وأنسى ضجري , وأنقذ روحي من ثقل الهموم التي ألمت بي في وقت مبكر من هذا المساء .. كنت قبلها أعيش حياة عادية , وقد أعدها حيـاة سـعيدة بطعـم العسل .. وعملي مضمون وخطيبتي تنتظر موعدا للزواج .. وأنا أكتب ما شئت

فألقى الإعجاب، كما اكتب وأحرر وأعيد كتابة موضـوعات كثيـرة لشخـصيات أعرف بعضها وأجهل البعض الأخر .

كانت الكتابة بالنسبة لي نافذة هنيئة على العالم .. حتـى إذا صـحوت ونقبـت وبدأت ابحث عن الأسباب التي تكمن وراء قلقي ثم ضجري ثم سـهري .. ثـم عتابي الملح لأبي الذي كنت أعده قدوة حسنة ومنارا أسير في هديه .. فإذا بـي أكتشف أن وراء ضجري تكمن حقيقة كبيرة وآلام ثقيلة وذكريات مرة كانت قـد تراكمت دون أن انتبه إليها ودون أن أضع حلا لها .. وأوقف امتدادها واختناقي بفيضانها العارم .

إمتد جسدي في غرفة أمي كنت ابحث عن الحنان الذي فيها , عن همس أنفاسها وهي تتعذب لقلقي وضجري دون أن تتجرأ على توجيه سؤال ينقذها جوابه عن الحيرة المحيطة بها ..

أحست بوجودي .سألتني :

ـ هل كنت تكتب حتى الآن ..؟

ـ نعم .. نعم .. نامي يا أمي .

ـ عماد .. أنت تعرف أن أمك لا تنام قبل نومك .. عيناهـا لـيس بمقـدورهما الأقفال ووحيدها يسهر على مصباح كهربائي أو شـمعة أو مـصباح نفطـي .. ويعاني من الحر وقد يحتاج إلى ماء بارد أو قدح من الشاي .

ـ نامي يا أمي . لم يبق من الليل إلا ساعات قليلة ..

وتنام أمي وينام الليل وليلي يقظ .. أعالجه بقرص أخر من الفـاليوم وأرقـد .. فتأخذني لحظات لم أكن اعرف من خلالها أن كنت نائما أم يقظا .. إلا إنني تبنيت نومي بعد أحداث وشخصيات وخصومات وعوالم مختلفـة لـم يكـن بوسـعي استعادتها في يقظتي .. لكنني أستطيع القول أن أبي كان يأخذ مركز السيادة من أحلامي التي اختلطت فيها الأفراح والليالي الملاح مع الأحـزان والكثيـر مـن الجراح ..

إلى ماذا أعزي كل هذه الصور التي مرت بها ليلتي هذه .. وما اختلافهـا عـن واقع الضجر الذي بات أشبه بصخرة تثقل على صدري .. فتمنع أنفاسي ؟

لم يكن هناك أحد يجيب لم يكن هناك عماد الذي هو أنا , يمتلك القـدرة علـى الإجابة .. وأمي لا تملك دائما سوى أسئلة باتت تعرف مقدما غيـاب الأجوبـة عنها .. فلا تجد غير التجلي مع ذاتها ..

أعدت أمي شاي الصباح والبيضة المسلوقة . كسرت غلاف البيضة .. وجـدت فيها كائنا صغيرا وخيطا من الدم .. أحسست بالقرف .. قلت : مرة أخـرى .. غلاف ابيض لشيء فاسد في الداخل .. كما هو الحـال فـي الحـشرة المغلفـة بالبياض في شجرة الليمون .. و.. وكما هو الحال الآن فـي الأوراق البيـضاء التي لم تعد تحمل صفة النقاء الذي اعهده في كلماتي بل هي كلمات لا شأن لـي بها وإنما أجريها على لسان غيري .. الذين يريدونها هكذا راضية مرضـية .. نافعة لا أشكال فيها وإنما هي تجميل صورة الأشياء التي نعرف حقيقـة أمرهـا نعرفه جميعا ولا أحد يجهله ..

أنا .. نعم... أنا أجمل الشر .. وأحلي الحنظل , وأصلح كل ما هـو فاسـد فـي الحياة وأدونها في صفحات طويلة .. وأنا على قناعة تامة بأن كل ما ورد فيهـا عار عن الصحة ومع ذلك أريد – على لسان الموقع – إقناع القراء بكل ما جاء فيها ..

أي إزدواجية أعيشها , أي تناقض أعاني منه .. أي حياة درامية هي الحياة التي أعيشها ..؟!

مع ذلك .. كان لابد أن أعيش عيشة كريمة فمن يعيش بالنعيم ليس أفضل منـي في شيء ..أي شيء بل أنا الذي أتقدم عليه بأشياء كثيرة .. في مقدمتها أنني أنسان يمتلك قدرة على التفكير وعلى الابتكار و.. وعلى الإقناع كذلك .

هذا الإحساس بأن أكون مثل سواي بل وأفضل منهم .. أتقدمهم بمسافات .. ذلك أنني كفء في عملي مخلص في أداء مهماتي .. سريع التنفيذ لكل ما يطلب مني تنفيذه فضلا عن طاقة ابتكارية وموهبة أتفوق فيها على غيري .

هذه المقاييس وهذه المواصفات التي احملها كانت تجعلني أمتلك القدرة على أداء إعمال استثنائية .. فأنا أتقن تفاصيل العمل الصحفي كافة بدءا من الكتابة إلى الطباعة إلى التصميم والتنفيذ إلى الاشتراكات والتوزيع والإعلانات ..

ولأنني اعلم بما لا يعلمون صاروا يأخذون مني خبراتي التي اكتـسبتها طـوال سنوات فإذا بهم يشغلونها خلال أيام ويقعون في أخطاء ويفـشلون ومـع ذلـك يتقدمون في أعمالهم من حيث المكانة والموقع والرواتب والمكافآت .. أما أنـا فما زلت في مكاني لا أغادره وان كنت قد غرقت في جزيئاته .

و..وجدت نفسي في موقع أدنى وأن الأقل .. والأدنى والأكثر جهلا فـي عملـه صار يرأسني ولا بد لي من الخضوع لأوامره !

صرت كائنا هامشيا .. ولا أستشار إلا في الحالات الاسـتثنائية المستعـصية .. وبت أحسهم يبعدونني عن ممارسة عملي بشكل متقن .. فالإعلان أساسي وإبراز شخصيات على حساب شخصيات أخرى هو السائد ومشكلات الناس التي تـرد إلى الجريدة لا ينشر منها إلا ما يدين مسؤولين يتم مسبقا تحديدهم ويظل الطرق على مؤسساتهم حتى يتم الاستغناء عن خدماتهم والمجيء بعناصر شابة أخرى تحت شعار (لتتفتح أزهار الشباب وتنتعش الطاقات) ترى .. هل بـت شـيخا والشيخوخة لم تعد مقبولة .. وخبراتها باتت قديمة لا يعول عليها كثيرا ..؟

واجهني السؤال إتسع حجمه في ذاكرتي .. أحزنني انشغالي به إلى هـذا الحـد الذي لا حدود له.

(8)

لست من الخيول (الفنش) غير القادرة على السباق .

لست من كلاب الحراسة التي لم يعد لها قدرة على حراسة نفسها .

لست آلة مستهلكة وحلت آلة حديثة متطورة بديلة عنها.

لست عقلا خرفًا سلفياً .. لا يـؤمن بـالتطور والمجـيء بالطاقـات الـشبابية المتخصصة في شؤون المهنة ..

لست كذلك أبداً .. أبدا إنما أنا كائن يطور نفسه باسـتمرار .. لا يتكـئ علـى شهادة كان قد صنعها لسواه .. فأذا هي تطرده من الزمان والمكان إلى حيـث الفراغ ..

واجهني رئيس التحرير مرة بعبارة صريحة :

ـ سنعتمد على عناصر جديدة تحمل شهادات عليا .. وسـنتخاص مـن أولئـك الطارئين على مهنة الصحافة , ممن لا شهادات عندهم .

وسألت نفسي : هل كان يقصدني تحديدا ويريد أن أقدم استقالتي بنفسي قبـل أن يلزمني بالخروج ..؟

ألا يريد الاستعانة بي في كتابة الافتتاحية بدلا عنه .. ألم يعد يحتاج إلى قلمـي في الكتابة بدلا عن الآخرين ؟

الآخرون وصلوا إلى المواقع التي كانوا تواقين إليها .. ولم يعد يعنيهم شأنه ولا يهمهم قلقه وانشغاله ببري قلمه ..

أصل الجريدة , اقرأ كل صحف الصباح , أتناول قهوتي .. ويمر نهار آخر بلا عمل ولا رغبة ملحة للكتابة , ولا حاجة للجريدة بما أكتبه .. لأن الكتابـة فـي الجريدة صار مختلفا .

صار الخبر المهم .. جريمة قتل وسطو على محل تجـاري وفـضيحة أخلاقيـة وطلاق فنانة وزواج أخرى .. وأنا لا أكتب في هذا كله .

أكتب في الفكر .. ورئيس التحرير يقول : تخلى الناس عن التفكير .

أكتب في الاقتصاد .. فيقول لي : مالنا وهذه المسائل المعقدة .

أكتب في المسرح الجاد , والكتب الجديدة , والثقافة الوطنية .. ورئيس التحرير , يريد موضوعات مثيرة وصوراً تتكلم .. تفضح عن نفسها .

كنت ضد صحف الإثارة , وضد الكلام المجاني , كما كنت ضد الشعارات .

علمني أبي : أن الهدوء سيد المناقشة واللبنة الأولى في الإقناع .

وعلمتني أمي : أن الصبر مفتاح الفرج , ولكثرة ما رددت هذه العبـارة صـرت مؤمنا بها مقتنعا بأهميتها .

قلت : مثلي .. ينبغي أن لا ينتظر من يطرده من عمل أتقنه وأخلص له ..

مثلي .. ينبغي ألا يصبر أكثر مما صبر, لأن الصبر هنا ذل ومهانة واسـتجداء , وأنا لن أكون كذلك .

و.. بهدوء ناقشت المسألة مع نفسي , ووصلت إلى قناعة مفادها أننـي لابـد وأصل إلى نتيجة .. نتيجة حتمية بالاستقالة , بكبرياء صاحب الاستقالة .

وكما توقعت , حصلت الموافقة الفورية باستقالتي .
هكذا . مثل زهرة أخذوا منها رحيقها وتركوها للإهمال .
مثل امرأة جميلة استلبوا أجمل ما فيها ...عفتها , وتركوها ضائعة ..
ورحت أجر خطواتي , حاملا قلمي , متوجها إلى دنيا مجهولة ..
سوف أجد عملا بالتأكيد فمن هو في خبرتي وموهبتي نـادر .. وكـل الـزملاء والقراء يعرفون كفاءتي .. وأسمي دائم الحضور بينهم .
و..مضى شهر على تركي العمل في جريدة (الأيام).
كانت أمي لا تعلم بما حصل .كنت أحرص على عدم معرفتها .. فأنا لا أريـد أن تشغل بالها بمستقبلي وزواجي وقوت العائلة التي ليس بمقدورها أن تشبع أثنين كل تلك الجهود المضنية من العمل المتفاني !
بعت ساعتي وقلت أنها ضاعت مني .. بعت بعض كتبي وقلت أن أصـدقاء قـد استعاروها مني بعت محفظتي وقلت أنها سرقت مني , بعت سني الذهبي وقلـت أن الطبيب قد أمرني بالتخلص منها لأنه سبب التسوس وقال إأنـه لـيس مـن الذهب الخالص وإنما هو مصنوع من مادة مطلية بلون الذهب .. أقضي نهـاري .. أقرأ في المكتبة العامة مدعيا أنني في عملي .
أسهر – كما جرت عادتي – وأستيقظ فجرا , مشيرا وباستمرار إلى كثرة أعباء العمل وضيق الوقت .
كانت أمي تحدق في وجهي , تقرأ فيه أسراره يقولون أن قلب الأم .. دليلهـا . نظراتها تقول أنها تعرف كل تفاصيل معاناتي , لكن صـبرها والكتمـان الـذي اعتادته .. يجعلنا – أنا وهي نفضل أن نكتم ما نعرفه عن الآخر .. كأنمـا هـو أتفاق قائم بيننا .
تجمعنا وجبات الطعام , تجمعنا غرفة نومها .. مكانها الأثير الذي حولتـه إلـى مكان نؤمن فيه – أنا وهي – النوم الهادئ .. مثلما نأمن من البعوض والذباب لم يكن النوم هادئا .. لا وقت القيلولة ولا في عمق الليل . كان نوما قلقا يقـوم على صبر أمي وهي تنتظر نومي حتى تنام . وأنتظر فيه توقف ذاكرتـي عـن

التفكير حتى أنام .. ولم يكن نوما هانئا أبدا .. وقد مضت أيام العسل كلها .. وغدت مجرد ذكريات .

(9)

سعاد .. شريكة الزمن الآتي .. تنتظر , وأنا أنتظر معها مستقبلاً مجهولاً أعدها بلا شيء لأنني لا أملك أي شيء .. وأجهل الحاضر كما أجهل القادم من الأيام .. هل كنت نادما على ما فعلت هل كنت راضيا على ما قدمته من معلوم لشخصيات الجهل والقوة والمال هل كانت أزمنة الأيام أزمنة عسل بالنسبة لي ولأمي ولمستقبلي هل أسعدني ذاك العمل .. وأنا أقدم جهد عقلي إلى من لا عقول لهم.. يفكرون بها.. هل كنت أفعل كل ذاك عن قناعة كاملة ووعي راكز ..؟

كنت لا أختلف أبدا عن أولئك الذين يبيعون كلاهم ودماؤهم ومقل عيونهم .. حتى يأكلوا أرغفة خبزهم . وكانوا يدركون جيدا أنهم يغامرون بحياتهم , وهم عرضة للموت قبل غيرهم..

كانوا يعرفون أن كل عضو من أعضائهم لم يكن أداة احتياطية معروضة للبيع وأنها ملك صاحبها وخزين ثروته التي يمكنه التصرف بها وقت يشاء.. وعندما شاء الوقت وشاخ كذلك .. بعد أن طال أمد الانتظار لخير آت .. ولم يأت ولم يبق حتى على ما كان ولن يظل على ما هو عليه .. فكل الدلائل تومئ إلى أن المستقبل أشد قتامة مما هو عليه الحاضر .. وأن مفاتيح الآتي أضاعتها الأحلام التي كانت ترسم الوهم معطرا بالنشوى , وحتى إذا بانت الأشياء، صارت تلك النشوى الموعودة مجرد سراب..عندئذ صار الندم يأكلني أكلاً .

والأصدقاء الذين كانوا يلحون في الدعوة إلى لقاءات حميمة .. صاروا في المجهول . من أحبهم وأكن الاحترام لهم وأكبر فيهم العلم والمعرفة والكفاءة.. ماتوا أو رحلوا أو شاخوا قبل زمن الشيخوخة وصاروا يعانون من أمراض شتى تقعدهم عن عمل غير موجود أصلا .

ومن أعرف زيفهم وادعاؤهم .. أولئك الذين صنعت خبراتي شهاداتهم والمواقع البارزة لوظائفهم .. لم أعد أعني شيئا عندهم , انتهت مصلحتهم وحاجتهم ..

تنكروا لكل جميل قدمته ولكل شمعة أوقدتها أمامهم .. أهذا طبع الوفاء أهذا زمن الغدر والخيانة واللعنة الكلية على الماضي ..؟

لم أكن أعرف . كيف يواجه هؤلاء أنفسهم .. ترى هل يملكون نفوسا هي من نماء هذه الأرض ومن الارتواء بهذا النهر العظيم نبعا وامتدادا وحياة وألقا ؟

قصدت ذات صباح محافظ المدينة وكنت على يقين انه يعرفني وسيرحب بي خير ترحيب وقد يكون في شوق ألي وأنا الذي لم ألتقيه منذ زمن طويل .

سألت السكرتير الذي تجاهلني .أكدت سؤالي عليه أدعى أن المحافظ غير موجود زرته بعد ساعة قال أن المحافظ في اجتماع زرته بعد ساعتين قال أن المحافظ قد خرج زرته في اليوم الثاني قال أنه لم يجيء بعد زرته بعد نصف ساعة قال أن لديه ضيوف، زرته بعد ساعة ونصف الساعة .. هنا وقف السكرتير غاضبا وهو يصرخ بوجهي :

- يا أخي .. لم هذا الإلحاح، المحافظ يقول انه لا يعرف أحدا بهذا الاسم .. ها .. ما أسمك ؟

ـ عماد .. عماد .

ـ المحافظ لا يعرف من كان أسمه عماد .. وقد ترك لي مهمة صرفك بالطريقة التي أراها مناسبة .. لكنك كما يبدو بليد .. إلى حد أنك لم تفهم طردي المستمر لك .. كيف تريد من محافظ المدينة أن يضيع وقته الثمين مع أمثالك من البلداء والمغفلين والعاطلين عن العمل .. كيف .. ها .. تفضل أخرج , المحافظ لا يريد أن يراك .. هل فهمت ؟

استعدت كل كلمة من تلك الإهانة واستعدت معها .. صورة المحافظ وهو يتملقني .. أنا الذي كنت أعد حوارات وهمية معه .. أكتب الأسئلة وأجيب عليها كذلك ولم تكن مهمته سوى تزويدي بصورة كبيرة ملونة لشخصه الكريم وهو يتكئ على مقعد وفير وأمامه كم من الأوراق تنتظر قراراته وملاحظاته وسداد رأيه في هذه القضية أو تلك .

ولم أشعر بالإحباط كما ينبغي أن يكون الحال مع أمثالي ممن واجه استقبالا حافلاً باللعنة والسخرية والأهانة كما استقبلت به .. بل عزمت على مقابلة

الدكتور فلان الفلاني عميد كلية الإعلام والصحافة .. ففضلي عليه كبير وامتنانه لهذا الفضل سيظل في ذمته مدى العمر .. ولم ينقض من هذا العمر إلا الوقـت القصير الذي لا يمكن لأحد نسيان فضل الآخرين على صاحبه .

استقبلني الرجل بحفاوة بالغة .. والحق يقال، لكنه تجاهل الماضي تجاهلاً كلياً .. والحق يقال .. فمثل مكانته العلمية لا يرقى إليها أحد من أمثالي .. من الفاشلين في حياتهم والذين لم يتمكنوا من الحصول على أية شهادة تجعل صاحبها موضع تقدير واحترام .. والباطل هذه المرة هو الذي يقال .

قال .. أنه لا يعرف كيف يساعدني وأنا غير مؤهل لإلقاء محاضرات في الكليـة وغير كفء في تقديم كتابات تتلاءم والظـرف الـراهن .. لأن عقلـي مملـوء بنظريات مادية قديمة وأفكاري قد عافها الزمن .. والجريدة التي يديرها فـضلا عن عمله الجامعي جريدة تبحث عن المثير والجديد والممتع .

ـ دكتور .. الصحافة رسالة ..

ـ أستا...ذ , هل تعلمني مهنتي .. أن كانت لديك رسالة هناك دائرة البريـد .. أرسلها , لا أحد يعترض عليك , لا أحد يمنعك .. نحـن أدرى بمهنتنـا ولـسنا بحاجة إلى من يعطينا دروسا في شغلنا .

وظل الصمت حاجزا بيننا , أدركت أن لا حوار يمكن أن يقام بيننـا .. وبيننـا مسافة قطعها الدكتور وقد ابتعدت هذه المسافة حتى غدت مستحيلة على اللقـاء في نقطة محددة .

أدركت جيدا أن الزيارة انتهت وان علي مصافحة الدكتور فلان الفلاني وأنصرف غير مأسوف على شيء سوى الأسف على تقديرات وهمية رسـمتها و وعـود قطعتها وآمال رملية هدمتها وآفاق كان علي إغلاقها ..

كانت المصافحة مقصورة على وفق هذه الصورة .. ربع ذراع لأربعة أصابع أقل من نصفية لشبح آدمي يجلس وراء مكتب كبير مترف .. لم يكلف نفـسه حتـى القيام بتوديعي .. حتى أنه أكره أطراف أصابعه على مصافحتي !

ومع ذلك لم أكن أريد الوصول إلى منطقة مسدودة والى يأس تـام .. قلـت أن الناس .. أجناس مختلفة السلوك والمواقف .. فما يعنيني من شخصين تنكرا لي .. وأنا في موقع لا تأثير لي ولا حضور لي , ولا وجود لي أصلا .

توجهت إلى دار للنشر يديرها صديق حميم .. لي فضل الكتابة عـن إصـداراته وتحليلها تحليلا علميا دقيقا أخذ مني الجهد والوقت .. حتى غدت دراساتي لتلك الأصدارات مرجعا بديلا وأساسيا في رفض أو قبول تلك الأصـدارات مـن قبـل القارئ الفطن ... .. وقد كان صاحب دار النشر هذا يدعوني إلى مائدته مـرارا فأعتذر مشيرا إلى زحمة العمل وضيق الوقت .. وهو سبب دائم في رفض أيـة دعوة أو سهرة أدعى إليها .

استقبلني بشكل حيادي يمكن تحديده بين المعرفـة والمجهـول بـين الرسـمية والصداقة بين الابتسامة التي تنم عن التشفي تارة والترحيب العادي تارة أخرى ..

وكنت حائرا بين التعامل معه رسميا أم كونه صديق سابق .. وحـسمت الأمـر سريعا وخاطبته:

ـ كيف صحتك يا أبا سعد .؟

فوجئت به .. وقد تغيرت ملامحه وخاطبني بغضب وشعرت مـن خلالـه أننـي إنسان لا يعرف أبسط لياقة يحسن المرء معرفتها :

ـ أرجوك .. يسموني الأستاذ فاخر العلي .

خجلت من رفع الكلفة بيننا .. اعتذرت :

ـ معذرة أستاذ فاخر .

ـ ... العلي .

أسرع بإكمال أسمه على وفق تصور أدركت فيه أننـي أمـام مكتـب للأحـوال الشخصية أو مكتب للتحقيق الجنائي الذي يقتضي إلزام الشخص بـذكر أسـمه الرباعي ولقبه وتفاصيل كثيرة عن حياته .

معذرة أستاذ جابر الجابري .

ورأيته هذه المرة يرتاح على كرسيه بعد أن كان يتربص بكل كلمة أتفوه بها .. وقد عاد إليه هدوءه قال :

ـ تفضل ..

ـ أنا عماد .. ال..

ـ أعرفك , أنت الذي كنت تشتم إصداراتنا في صحيفة (الأيام) دائما...وعجبت .. سألت الأستاذ فاخر العلي :

ـ أشتم .. أنا لم أشتم أحدا طوال عمري ..

ـ نعم .. أقلب صفحة الماضي .. ما هو المطلوب ؟

ـ عفوا .. لا يطلبك ظالم .

ـ وما شأني بالظالم حتى يطلبني ..؟

ـ أستاذ .. أستاذ فاخر العلي, هذا رجاء وأمنية يتمناها المـرء لمـن يحـبهم ويحترمهم !

ـ ها .. ألا يتم الاحترام ألا بهذه الطريقة , بهذه الأمنيـة ألا يمكـن التعبيـر بصورة أخرى .. أف .. الجهل , الجهل .. حتى أمنيات الجهلاء غريبة !

ـ تفضل .. قل .

قلت برجاء وتوسل .. وكنت في داخلي أفضل الانصراف :

ـ أستاذ .. لا أعلم أن كان بأمكاني العمل مصححاً طباعياً لديكم ..؟

استرخى على مقعده وبانت ابتسامة أرتياح على ملامحه ..

ـ ها .. من كتابة الشتائم إلى تصحيح واعتراف بالكتب التـي كانـت موضـع شتيمة من قبل .. لسنا بحاجة يا عماد لكننا ومساعدة لك سنجعلك تعمـل تحـت الاختبار لمدة سنة .. ما رأيك ؟

أردت أن أقول له:

ـ وهل مثل كفاءتي يختبر ..؟

لكنني ابتلعت سؤالي وأبقيته في مكان ناء عن منطقة البوح قلت :

ـ موافق ..

ـ بشرط ..

ـ وهل هناك شروط ماعدا الاختبار ؟
ـ نعم .. نحن نلزم المصحح بدفع غرامة عن كل خطأ مطبعي لم يتم تصحيحه .. فهل تقبل؟
ترددت .. أحسست أنني أمام تحد لنفسي وكفاءتي وخبراتي الطويلة .
أومأت برأسي موافقا .
ـ .. عماد نحن نعتمد على أصول مكتوبة .. على عقـد يلـزم كـلا الطـرفين المتعاقدين بتنفيذ كل ما يرد فيه .. نحن لا نعتمد علـى الثقـة الـشفاهية مـع احترامي شخصيا بأصحابها .. العمل شيء أخر .
و .. وقعت على عقد مدون تتعلق فقراته بدفع أجور محددة عـن كـل ملزمـة مطبوعة ودفع كذا . مبلغ عن كل خطأ مطبعي أهمل ولم يتم تصحيحه .
بعد التوقيع من قبلي ومن قبل الأستاذ فاخر العلي أعطاني نسخة من العقد ومـد يده مصافحا:
ـ مع السلامة راجعنا بعد أسبوع ستجد كتابا جاهزا للتصحيح ..
مددت يدا ذابلة نحو يد معافاة مترفة .. واغتصبت ابتسامة حزينة خرساء لتقابل ابتسامة سعيدة منتشية بالنصر ..
نصر .. قلت نصر ... بالتأكيد هو نصر لفاخر العلي.. الأستاذ الذي كان يهاتفني شاكرا اهتمامي بنقد ومراجعة إصداراته .. والذي كان يكتم حقدا دفينا لا يظهـر على شفتيه إنما ظل مخزونا في أعماقه ..سببه كفاءتي لا غير..
الآن , أصبحت أعمل تحت رئاسته أصحح إصداراته مما علق بها مـن أخطـاء طباعية دون أن يكون لي الحق في رفض أي منها أو الاعتراض على مـا يـرد فيها .. مهمتي محدودة .. وانتباهي ينبغي أن ينصب كليا على كل خطأ مطبعي , لم يفلح عامل الطباعة في إتقان قراءة مخطوطة الكتاب .. فقام بتنضيد الكلمـة على وفق معرفته واجتهاده وترك للمصحح هو الأخر أن يجتهد ويقرر .
(10)
بعد شهر كامل من العمل المضني قرأت فيه مئات الـصفحات وصـححت آلاف الكلمات حدث ما كنت أتوقعه تماما ..

رفض جابر الجابري صرف أجور عملي , بل على العكس من ذلك طالبني بالتعويض عن عدد من الأخطاء الطباعية أدعى أنني كنت قد أهملتها , والواقع أنني كنت قد صححت الأخطاء الواردة في أصل المخطوط مما كان يقتضي دفع مكافأة أضافية .. ولأن الجابري كان لا يختلف في سلوكه عن (شايلوك) الشخصية المعروفة في مسرحية شكسبير (تاجر البندقية) فقد جرني إلى أسئلة وأجوبة , وأراد أن يقودني إلى المحاكم كي تفصل في ألأمر مما جعلني أتخلى عن كامل أجوري واترك العمل ..

وكنت أعتقد أن الأمر قد أنتهى بتنازلي عن أجري الشهري المتفق عليه , إلا أنني فوجئت بإبلاغه المحاكم ورفعه شكوى ضدي ..

وفسرت الأمر للوهلة الأولى على أنها مزحة غليظة , ألا أن واقع الحال أكد أن ما فعله الجابري قد خرج عن أجور التعويض إلى شكوى تتعلق بتشويه كتاب منعته الرقابة حال صدوره مدعيا أنني قد أضفت عبارات لم يكن المؤلف قد ذكرها بالشكل الذي ظهرت عليه أخيرا .. مما جعل تلك العبارات تعبر عن حقد وعدائية وعن اختلافات فكرية لا علاقة للمؤلف بها وإنما كانت نتيجة لتدخلي شخصيا في صياغتها كما أريد وأرغب واعتقد الأمر الذي يقتضي التعويض عن الخسائر الناجمة وتحمل التكاليف كافة فضلا عن المسألة القانونية المرافقة للقضية .

حيت علمت بكل هذه التفاصيل وأنا أمام قاضي التحقيق .. كدت أسقط مغشيا علي .. فأنا رجل صحافة وأعلام وأعرف جيدا ما هو مطلوب وما هو غير مرغوب فيه , ومهمتي فنية وما ألصق بي طارئ على الحقيقة .. ولم أفلح في الدفاع عن حقيقة أمري , وحقيقة عملي , وحقيقة كل ما حصل .

كانت حقيقة يوسف مع أخوته , وحقيقتي مع الجابري .. عدوا لدودا , وكنت أحسبه صديقا حميما .. فهل كنت مغفلا إلى هذا الحد ..؟

ودخلت السجن محكوما عليه بستة أشهر تضاعفت إلى سنة كاملة عندما قدمت اعتذارا يتعلق بعدم قدرتي على دفع أجور الكتاب المطبوع والموضوع تحت الرقابة ومنع تداوله .. ومثل هذا المعنى يقصد به أتلاف الكتاب !

ولما كان الإتلاف والسجن لا يعوضان الجابري عن الأموال التي خسرها جـراء طبع الكتاب فقد رفع دعوى تميزية ضدي طالب فيها الحجز على بيتي الـذي لا أملك من الدنيا سواه ..

ووجد طلبه آذانا صاغية , وربحت أدور ثانية بين المحكمة والسجن , حتى تبين وهذا من حسن حظي أن البيت مدون في سجلات الحكومة بأسم أمي وتلك حكمة أبي في حفظ أمي من عاديات الزمن وتوقع حصول ما هـو خفـي وطـارئ .. بالنسبة لكتاباتي وما قد تجره علي من مشكلات وبذلك احتفظت أمي بملكها فـي بيتنا العامر بها وبأنفاس أبي .

كانت أمي هي الوحيدة التي تستعين على ذكرى شباب أفل وشـيخوخة تتمطـى وتمتد وتثقل عليها كل شيء في جسمها العليل .. وتتوسل العافية حتى تراني في كل زيارة محددة , حاملة إلي أرغفة الخبز الحارة وما تيسر شراؤه من فواكـه ومأكولات متواضعة .. بعد أن تكون قد باعت بثمن زهيد أحدى مستلزمات بيتنا وفي مقدمة المباع .. كانت كتبي .

وقد حذرت أمي من البيع الكتب هكذا دون تحديد ولا معرفة , وكنت أخشى بيـع كتب هي أهم بكثير من الطعام الذي تأتي به كما أن أمرا أخر زاد من قلقي فقـد تقوم أمي بعرض كتاب كان مسموحا وبات الآن من الممنوعات وهذا ما يحـصل كثيرا .. مما يعرض حياتي وحياتها إلى خطر جديد نحن في غنى عنه وعن كـل الإشكالات .

همست في أذني أمي في أقرب زيارة .. وتفهمت الأمر تفهمته جيـدا لأن الأمـر يتعلق بمشكلات قد تطرأ وعليها أن تكون حذرة وتستعين بهناء .. التي كفت عن خجلها وزارتني أكثر من مرة حاملة معها كل ما كانت تستطيع حملـه , وفـي مقدمة ما سرني حمله ثلاثة كتب فكرية جديدة كانت تعرف جيـدا كـم سـأكون سعيدا بها وقد غامرت بحملها متجاوزة الرقابة المشددة على كل ما لـه علاقـة بالأقلام والحبر والورق والكتب .. ومع أن شرطيا متعاونا زودني بعدة الكتابـة سرا مقابل التوريق ألا أنني لم أفعل ذلك ثانية .. لا تعففا من ممارسة الرشـوة التي نهاني أبي عن تسلمها أو تسليمها .. فقد باتت ظاهرة عادية بل وأساسـية

في مسيرة الحياة ومن لا يفعلها يصبح غريبا في مجتمع بات يـستهلك نفـوس أبنائه .. لم أفعلها .. لسبب بسيط جدا هو أنني لا أملك من المال شيئا .. ومن لا يملك يظل عرضة للإهانة من زملاء السجن والحراس ...

لكنني أنقل وباعتزاز أنني كنت من الندرة التي تمتعـت بـالاحترام مـن قبـل السجناء والحراس على حد سواء .. وقد أكون السجين الوحيد الذي تمتع بهـذا الاحترام وجيوبه خالية ليس من الأوراق المالية فحسب وإنما بكل ماله تمـاس بالورق وبياض الورق , ولعنة الورق .. مع الحاجة الأساسية والدفينة إلى هذه اللعنة التي لا خلاص لي منها أبدا وليس بوسعي التخلي عنها والاتجـاه نحـو الاهتمام بشأن أخر .. سواء كنت داخل السجن أو خارجه , عـاطلا أم عـاملا , شابا أم شيخا .. لعنة الورق تجري في دمي ومن خلال هذه اللعنـة يمكننـي أن أتنفس , أن أنقل هواجسي وأتخلص من سقم أيامي وأهرب من الأوجـاع إلـى فضاء الورقة .. فلا شيء أكثر مدعاة للمغامرة من الحصول على الورق مكتوبا فيقرأ خال من الكتابة .. مجردا , فأكتبه كنت أعشق الخصومة الدائمة بيني وبين سحر الورق .. خصومة من طراز خاص .. هكذا حتى خصوماتي فيها ما يميزها عن سواها من الخصومات .. فلم تكن خصومات حقد وكراهية .. بل خـصومات حذر وترقب .. فهذه الورقة التي يمكن أن نقرأ في وجهها أجمل الكلمـات قـد تتحول بسرعة إلى أداة من أدوات الأجرام وقد تقود إلى الموت .. وقد يتحـول الموت نفسه إلى كارثة تودي بأرواح عدد كبير من البشر .. جراء تقريـر قـد يتولى مهمته واحد من الكائنات التي يطلق عليها خطأ أو اتقاء شرها ... بـشرا .. مع ذلك يظل في ورقة سحر لا أجمل منه كل جمال .

(11)

ودعت زملاء السجن وحراسه .. لأستقبل أمي وهناء .

كانت أمي جذري الذي أعتز به وأمتد أليه , وهو الجسر الأزلي الـذي يقربنـي ويشدني إلى ذكرى أبي وقيمه النبيلة ..

وكانت هناء .. قريبة حد التماس وبعيدة حد القطيعة !

التماس معها .. يفرضه هذا الزمان الورقي الذي تحركه ورقة رابحـة وأخـرى خاسرة .. وأنا لا أملك لا ما أربحه ولا ما أخسره ..

أذن أنا في قافلة مأمونة .. ذلك أنني أعاني ليس من إفلاس مادي حسب وإنمـا من إفلاس روحي وآمال مفرغة من المحتوى .. وجسور قد تكـسرت وعلـى الجانبين لا أحد ينتظر ولا أحد يجيء .. وأنا حـائر بـين الانتظـار للاشـيء , والمجيء الوهمي لأيام وليال لا تفضي إلى شيء !

أسماء جديدة تظهر في سماء المهنة وأسماء أخرى تنطفئ فجأة وتمحى بـشكل قاطع كأنها لم تكن لم تولد أصلا .. وليس من أحدا يسأل عنها أو يذكرها حتـى في سبيل الذكر الحسن أو السيئ .. كأنما تحولت الأسماء الواثق ة الراسخة في المهنة إلى جمرة نار لا يلمسها أحد .. ولا يقترب من دفئها أحـد هـذا الأحـد مشغول , مشغول جدا بصنع أسمه بنقشه علـى حجـر الثبـات علـى كرسـي المسؤولية والموقع الوظيفي .. هكذا سريعا قبل أن يشغل الكرسي أحد أخـر .. وهذا الأمر يقتضي أن يتكئ رواده على شخصيات قويـة ومقبولـة ولهـا رأي مسموع وخطوات راسخة ..

هذا من جانب ومن الجانب الأخر يتطلب التوجه إلى ما ينبه ويعلن عـن وجـود طاقة معطلة لم تستثمر .. ولأنني عاطل عن العمل .. وأحتاج إلى مـن يعيننـي على البقاء حيا فقد قصدني الآخرون لقضاء حاجاتهم مقابل قضائهم حاجاتي .

كانوا يأتون فردا , فردا , بالسرية والتخفـي .. يطلبـون أن أكتـب بأسـمائهم موضوعا بالقضية الفلانية أو يقدمون لي موضوعا هشا ويتوسمون في مراجعته وأضيف ما أجده يغني الموضوع .

والقسم الأكبر منهم يسألونني ويستشيرونني في هذه القضية أو تلك ومـا هـي كتب ومساهمات فلان الفلاني وماهي الأسئلة المناسبة التي يمكن توجيهها إليـه لإقامة حوار جيد صالح للنشر ..

أما إعارة الكتب والدوريات فقد تكررت وتضاعفت بحيث وجدت نفسي في حالـة فراغ وقد جردت مني مكتبتي الأثيرة التي ورثت معظم كتبها من أبي وأصـدقائه وزملائي .. وصار من النادر أن أجد الكتاب الذي أريد أن أقرأ فيه .

ولأنني إنسان يريد نشر أفكاره أولا , ولأنني في حالة معيشية رثة ثانيـا ؟فقـد قبلت على مضض الاستجابة لتنفيذ كل الطلبات ..

و.. صرت دكتورا جامعيا .. بلا شهادة , وباحثا ممتازا مجـردا مـن الاسـم , وصحفيا لامعا , بنجومية منطفئة , وناقدا دائم الحضور .. يعـاني مـن غيـاب شخصيته .. ومن ثم وجدت نفسي في مهمة لا تتجاوز مهمة كاتب العـرائض , بل وأسوأ منه .. فهو يعرف مهمته في صياغة الطلبات والمـشكلات ويـضعها بأسماء أصحابها .. وأنا أكتب فكرا وإبداعا للمترفين الـذين يملكـون وجاهـة اجتماعية وموقعا لا يمكن لي أن أشغله .. لأسباب أعرفها وأكتمها , ولا أعرفها , ولا أسأل عن معرفتها أبدا .

لا أحد من الزملاء يدعوني للكتابة , فقد شاخت أفكاري . مع علمي أنني صرت معتقا مثل الشراب النادر الذي تم خزنه على مدى أعوام طويلة , فصار الأفضل والأهم والأكثر ندرة .

كنت أعرف جيدا .. أن الأفكار لا تشيخ وإنما تتجدد باستمرار وأنا دائم البحـث عن صياغة كل ما هو جديد .. ولم أكن في أي وقت .. بقعة مائية راكـدة , ولا مستنقعا ضارا .. كنت حيويا في أفكاري ورؤاي , وأقف على خزين هائل مـن المعلومات والتجارب والخبرات .

جربت أن أكتب إلى هذه الصحيفة , والى تلك المجلة .. وظل مـا كتبتـه طـي الأدراج المعتمة لا مكان للضوء أن يلمسه ولا للحياة أن تدب فيه .. الأمر الذي جعلني أتخلى عن هذه المهمة وأنصرف متوجها للبحث عن مهنة أخرى بعيـدة عن مشاغل الورق والحبر وأيام العسل وتزويق الألفاظ وحكمة التوجه إلى قارئ ذكي , يقرأ ما بين السطور .

كانت الورقة عالمي الفاتن .. وصارت عسلي المر الذي يشقيني , ويخبئ فـي ثناياه رجلا تمتصه الأيام وتتآكله الحشرات .. مثل .. مثل تلك الحـشرة التـي تغلف سطحها بالبياض في شجرة الليمون .

كنت شاحبا , ذاويا , أعاني من سقم ومرارات كبيرة تدور حولي تـشتبك مـع عالمي .. مع أن هذا العالم لا يخرج عن زوايا ثلاث : أنا وأمي وهناء .

كان أبي بعيدا صار بعيدا كل البعد .. لم يكن بميسوره أن يكون ,أن يحضر فـي ذاكرتي .. صار منسيا وصارت فضائله جميعا .. نادرة واستثنائية بحيث لم أعد أذكره وأذكر ما أودعني من وصايا , حتى لا أبدو مغفلا في زمن يحتاج أصحابه إلى كثير من المهارة , والى كثير من الذكاء والبراعة .. لتغدو عمليات الاحتيال والكذب والاستغفال والنصب من عمليات الشطار والنـابهين والمتفـوقين فـي حياتهم , والذين يعرفون الصورة الحقيقية التي تسير على وفقها الحياة الراهنة .

لم أكن أملك القدرة على امتهان أي من هذه المهن , أو المساهمة في أي عملية تتسم بالشطارة.

كان أبي يأتيني متخفيا .. كنت أرصده وهو منزو في مكان سري من ذاكرتـي . ولم أخيب أمله في , ولم أخيب الأمل في نفسي .. وأن كنـت أحـس بخيبـات صارت تقترن بي من قبل معارفي وعدد من الجيران .

لكن ما أزهو به وأتوسمه مضيئا في روحي .. أنني اخترت ما كنت أريده ومـا وصلت أليه بقناعة كلية أن أكون .. أنا كما أريد , لا كما يريـدونني أن أكـون حتى أكون في نظرهم إنسانا ناجحا .

كان نجاحي مقبولا أمام نفسي , وأمام هناء ..

.. واخترت أن أعمل خارج أطار ما أحب ..

واختارت أمي أن تخرج من ع زلتها وتتولى مهمة حياكة الغزول لتقدم ملابـس شتوية لمن يقصدها من الجيران ..

واختارت هناء أن تكون معلمة في مدرسة ابتدائية .. وأن نتـزوج بـالمتوفر , حتى نكون كما نريد أن نكون , حتى تكون حدائق الكلمات التـي نزرعهـا فـي أعماقنا . سبيلنا إلى حياة سعيدة .

كانت قناعتنا نحن الثلاثة .. سيدة الموقف , وحدته , وبقـاءه , ومـسراته .. وصرت أفكر على وجه آخر :

لا ضير أن أعود لأعمل عتالا في سوق المدينة , أو سائق سيارة عمومي فـي الشوارع , أو بائعا جوالا أو موزعا للمواد الغذائية التموينية .. لا ضير في كل

هذا .. أنا أعمل باستقامة , الاستقامة وحدها تكفيني . نظرية الكفاية .. مفهـوم أقنعني وعزز مكانتي بين الناس الذين صرت أعمل معهم .. صاروا يثقون بـي يتوسلونني أن أعمل عندهم .. فأنا جدير بالثقة , والثقة صارت هي العـدم .. فهل كنت استثناء ؟

كنت هذا الاستثناء يا أبي .. وكنت موضع سخرية في مرات عديدة نتيجة لهـذا الاستثناء .. لكن هذه السخرية بدأت تنسحب شيئا فشيئا , وحل محلها شيء من الاحترام , ومن الاعتزاز , ومن المحبة , و.. من الحذر كذلك .

حذر مشوب بالتقدير .. حذر أن أقع على حالة من الافتراء .. فأرفضها , وحذر من الاشمئزاز .. فتبعدني عن أصحابها ..

ولم يكن الانسحاب من عمل لا أرتضيه يشكل عائقا أمامي للقبول ..

فعلت ذلك قبل سنوات , رفضت ما ينبغي أن يرفض , وكان إصراري على أن لا أسهم في صناعة الزيف .. وأجعل من شخصيات مفرغة مـن المحتـوى هـي السائدة في مجتمع يبني نفسه ويعزز أرادته .

وتنبهت إلى ضرورة أن أكون منسجما .. في فكري وإرادتي .. وحـين أبـوح بشيء – شفاها أو مدونا – لابد أن أدافع عنه , وأناقش في تفاصـيله , لا أن أمليه على لسان غيري .. وغيري بلا لسان !

اللسان الآخر أخرس .الموقف الآخر .. موقف لا أحترمه .. وما لا أحترمـه لا يمكن لي الدفاع عنه .. والحقائق التي أعرفها علي أن أ قولها , وفـي أسـوأ الأحوال أن لا أسهم في صناعة الخديعة والكذب ..

كاتب مثلي له عدته وخبرته وموقفه .. كاتب تربى في ظل أب تحترم فيه عفـة نفسه وإباء موقفه , وصدق لسانه ..

مثلي .. من له أم بكل هذا الصمت القدسي , وزوجة تهنأ لهـا الـروح .. لا يمكن أن يعمل ما عملت .. وما أخطأت فيه لن أكرره , ولن أسهم في صـناعة زائفة هي ليست من صلب إرادتي ووعيي .

و.. ذات مساء كنت أنام فوق سطح بيتي . إلى جانبي زوجة حميمـة , وعلـة مسافة قريبة .. هناك أمي .. تتنفس نسمات المساء .

كان الصمت من حولي .. حيا , خجولا .. يريد أن سيعزف لي لحنـا جمـيلا .. وكانت النجوم .. تضيء لي العتمة التي خيمت .. لتحيط بي ..
كانت هناك منطقة غريبة تبرق .. قلت أنه ذاك الغريب الذي أبتكر عقلـه قمـرا زائفا يتولى مهمة رصدي .ز ومحاصرة أنفاسي .. ويتجسس على أشياء كثيـرة تملأ رأسي .ز ورأسي مقفل , والأقفال .. الأقفال تكسر لابد أن تكسر .. لابد أن تكون هناك فضاءات جديدة , وآمال كبيرة , وأشراقات سعيدة منتظرة .
وحل أبي ينظرني من بين النجوم .. حييته , استقبلته بحفاوة الإنسان المـوزع بين النوم واليقظة .. ناديته :
ـ أبي , أبي .. تعال , تعال نتحدث في هذا المكان الأثير , تعال .. لا أجمل من الحديث والنجوم حولنا .. تضيء كلماتنا .
أقترب مني أبي , قبلني , همس في أذني :
ـ عماد .. سميتك عماد , ولم أكن مخطئا , سميتك عماد وقد كنت جديرا بأسمك .. الآن أستطيع أن أتحدث أليك .. وأباهي نفسي بك .
وذهب أبي , مثل خفة النجمة التي تمد ضوءها على عجل , وتعود إلى موقعهـا مثل خفة طائر يأخذ من الزاد حبة .. ويطير , مثل نسمة عابرة , مثل غيمة تعد بالمطر .. وتذهب الى مكان تقطر فيه الخير .
أبي مر في ذلك المساء , أضاء القلب , وجعله ي كبر بالمحبة , مثلمـا يجعـل الروح تسمو , والعقل يفضي إلى الفرح في ذلك المساء , تبدد ضجري , الـذي كان ..
صارت روحي .. مثل حمامة بيضاء تطير في سماء متسعة ممتدة إلى مديات لا نهايات لها ..
صرت أفكر .. في رقة ورقة أكتب على وجهها حروف نقاء وصـدق . أرسـم عليها خارطة قلب يرق , ورأس يتأمل وروح هادئة ونفس مستقرة .
.. قلت هذا من طبع الحلا .. من طبع الأزهار والفراشات والنحل في نظامـه .. الذي يعطي بموجبه حلاوة العسل ..
كانت الأغنيات هانئة على شفاه يأتي صداها من مذياع بعيد .

كان الرجل المأزوم .. المثقل بالضجر , الذي يملأ فمه بالعسل المر .. كـان .. وما كان .. أصبح في صفحة الماضي .. في مرارته , جمرات ظلت تكوي الجسد وتنخر في الذاكرة .. كان ..

وما كان .. مضى .. وما مضى صار درسا , تجربة مضافة ..

و.. خرجت من الضجر .. بورقة بيضاء , وأيام من العسل .

في وقت مبكر من ذلك المساء نمت بعمق .. واسـتيقظت ومعـي أحـلام روح منتشية بالمسرات .. توجهت إلى عملي .. وكل من حولي .. أراه في حالة قلق وضجر وتوتر .. أما .. أنا .. أنا الوحيد , الذي , يملأ صدره بالهدوء .. أوراقي بيضاء .. أطرز عليها ما شئت من النجوم .. أجملها بالشمس ..

خيـــال و صـــدأ

ليس الأمر كما أتمنى ، وليس الحلم كما ارسمه ويرسمني ، وليس الحال كمـا ارتجي ، ولا الواقع كما اطمح ..

في الرأس حزمة أمنيات ، وفي الرجاء جملة طموحات ، وفـي الخيـال مدينـة سعيدة ابنيها وازينها لي كما أشاء ..

وما أشاء أقل من القليل .. وما ارسمه تغسله أمطار دموعي أو جمرة روحي ..

فماذا افعل بأمنيات مستحيلة وخيال يبدده الواقع ؟

كانت تعلم كل هذا ..

زينة تعرف كل شيء ، وليس بوسعي إخفاء شيء .. كنت أبدو عاريا أمامها .. كلي لها .. عقلي وقلبي وروحي ، فلم التخفي ، ولم لا أكون أمامهـا واضـحاً وبالحقيقة كلها .. ؟

هل كنت ابحث عن قطيعة تبدأ بها .. وهل أدرت جفاءها ، وهـل أطـرد زينـة الروح بهذه البساطة ، بهذه العجلة ، بهذه الأسباب ، بهذا الندم الـذي اخطـط ملامحه مسبقاً وأعد لمآسٍ جديدة .. تضيف رصيداً إلى تلك الطعنـات التـي عشتها من قبل ... ؟

هل اقسم على براءتي ..؟

قلت : نعم .

قالوا : اغسل يديك .

غسلتهما وعدت بكل نقائي .. كانت يداي مبتلتان عندما خاطبني أحدهم :

- اقسم .. مد يدك .

وضعت يدي على الكتاب .. فأمسك بي بقوة والقاني أرضاً ، وفقدت وعيـي !

ولا اعلم كم من الزمن كان قد مر ، وأدركت فيه إني أمسكت بكتاب مشدود بتيار كهربائي .. ثم القوني في غرفة ضيقة ، رحت أرقب فيها بطانية تتحرك .. خفت

. فضلات احتمال البرد على الاستعانة بها علها تقيني من لسعات الأرض الثلجية .

راحت البطانية تقترب مني .. كانت تزحف وابتعد .. تشم رائحتي وتقترب .. لم تترك لي خيار الا نفلات منها.. كانت بسعة الغرفة وبضيق أنفاسي .

تبينت إن شيئاً ما يجعلها تتحرك ..

هذه الأشياء راحت تغزوني ، تأكلني .. كما لو أنني مائدة طعـام شـهي لهـذه المخلوقات الصغيرة التي ترضع النتن وتجعلني .. أحك جلدي وأمزقه .. وأحس القمل يأخذ مني دمي .. رحت أقتل ، وكلما كنت أتحـرك ، كـان الألـم يـزداد والمائدة تتسع لاستيعاب المزيد من الضيوف التي تأكل مني ..

كنت أحسني كما لو إنني بؤرة قمل، ومستوطنة حشرات زاحفة وطائرة وقافزة .

راح خيالي يعيد شريط الصور ... فيما ليل بغداد يطول ، وقمره يضيء ونجومه تتلألأ .. ولا شيء يعكر صفو هذا السكون المقمر سوى أصوات الطائرات تحلق فوق هذا النشيد العذب .. وأنا مستلق فوق سطح داري أفكر بزينة قلبي ..

سألت نفسي :

- لماذا أجر المآسي إلى هذا الوقت الجميل .. لماذا لا أبقي أصواتها مضيئة واكتفي .. ؟

كانت مقمرة .. كما الليلة ، وكانت عذبة كما النسمة في هذا الهدوء الذي يلـف الزمان والمكان .

لم يكن بوسعي أن أشطب ما يرد على خاطري .. لا زوجة تسترخي مـن تعـب الحياة القاسية وتستريح على سلامة ذاكرة بيضاء .. وتستسلم للنوم قريبة مني .. ولا قتامة ماضٍ صار وشماً يملأ كياني كله ، ولا خياراً يمكـن أن أكـون عادلاً فيه ! وتذكرت في هذا الوقت .. كيف استسلمت لكيس ناعم وضعوني فيه ، وكيف وجدت من يشاركني ويزاحمني مساحة هذا الكيس ..

كانت قطة تموء ، وكنت كائناً يصرخ .

كلانا يريد أن يعيش ، وكلانا يريد ان يتخلص من الأخر ..

لمن كانت الغلبة لا اعرف ، لكني اذكر .. إنني أشفقت على القطة ، وخـشيت عليها من غضبي .. فاستسلمت لها حتى تعبت ، وأخذت قسطا من لحمي .. دون أن أعي ما يجري ..

غضبت مني .. أعاتبني واسألني :

ثانية تبحث عن ماضيك القاسي ، عن جراحك ، كما لو انك تفتحها وتتركها دون أن تبحث عن علاجها.. وهذا جرح جديد .. قاس ، ومع ذلـك أحـس بجمالـه وعذوبته وسحره .

شيء مختلف تماماً من : التيار الكهربائي ، والقمـل ، والقطـة ، ولا وجـه للمقارنة ، ولا احد يشبه أحداً ، ولكن الكائن الذي في ينحت في قسوة ما جرى ، وقسوة ما يجري . كان لزاماً علي احترام صدقي ونقاء روحي .. حتى أحتمل عذابات الماضي . وكان لزاما علي كذلك احترام هذه الأنفاس النابضة ، الناعمة ، الحالمة ، المسترخية .. التي تركن بهدوء على جانب من كتفي .. الذي أكـل منه التيار الكهربائي والقمل والقطة . وعلي أمام هذا الحاضر الساخن أن أكون عادلاً ؟

والعدل لا يعدل في نبض العقل والوجدان .. فما بـين أن تعـشق أزمنـة الألـم والتجارب المرة في حاضرها الذي يختزن الكثير من الـصفحات الداميـة التـي تقترن بعائلة متعبة ، مهمومة تعاني من ثقل العمر المدمي ، ومـا بـين هـذا الإحساس العميق بالحياة ونشوتها .. هناك مساحة فارغة ليس وبوسعي ملأهـا بسهولة ولا نسيان حتى الجزء اليسير منها .. ذلك أنها كانت في منطقة عميقـة معتقة بالبقاء .

كانت الحيرة تأخذ مني ، تسرقني ذاكرتي وتأخذ مني خضرة روحي ، ووعي هذا الرأس الذي احمل همومه بكثير من الجهد والتعب والتجاذبات .

كنت أجدني سعيداً بها ، كما لو كانت اكتشاف قارة ، أو فردوساً أو غابة نخيل دانت حلاوته من فمي ، أو بحراً يحتضن كل الكائنات ، أو أفقـاً يتـسع لكـل الطيور .. وكانت فرحة بي كما لو إنها قد عثرت على ضالة منسية افتقدتها كل سنوات عمرها التي صرفتها في الدراسة والصلاة والحذر من المنطقة التي يمكن

للقلب ان ينبض فيها ، وللعقل أن يفكر في أبعادها وللروح أن تجنح في خيالاتها .

كنت أجد زينة .. كما لو إنها استيقظت مما فات من ليل طويـل دام سـنوات لا تحيطها سوى العزلة داخل غرفة البيت والصفوف الدراسية .

كان البيت يحيطها بتقاليد العفة التي لا تبيح لشعرها ان يكون عرضة للـريح ، ولا لشفتيها أن تغني أو تبتسم ، ولا لعينيها أن تقرأ وأن لا ترى ما لا يحـب .. وكان أمامها طريق واحد لا خيار لها سواه .. أن تدرس وتنجح بتفـوق .. والا عدت مغفلة ومدانة..

واكتشفنا معاً .. أن الواحد منا بحاجة للآخر .

أنا .. أنفلت من سجن الماضي الثقيل والحياة البليدة ، وهي .. تنفلت من هـذا الحصار الذي أحاطت به نفسها طويلاً ، لتبدأ نقلة تعيش فيها أنوثتها وعـشقها وبهجة شبابها قبل أن ينطفئ .. كما انطفأت طفولتها وصـباها . كانـت بيننـا حواجز ..

حواجز .. تقسم وتعزل وتحيط وتنبه .. كما لو إنها تعيد رسم بغداد وهي تنـوء بالتقسيم الذي لا ترضاه .

حواجزنا كثيرة ، ولكثرتها نخترع سعاداتنا بالخيال والأحلام والرؤى ..

وهي تفتح الفجر بمكالمة هاتفية تنسى طولها .. وأنا.. تتفـتح رغبـاتي علـى صوتها العذب وتأوهاتها السارة .

هي تضيء الوقت .. ونداء الديك الذي فيَ يعلو ..

هي تتنبه إلى زهوي بصوتها ، وأنا أتنبه إلى أزهارها وهي تئن رغبة إلى لقاء ودهشة جنونية سارة ..

كنا ندق على أبواب النهار حتى ينسى الأمس بكل ما يحمله من صـدأ ، مثلمـا نشرع الأبواب للخيال حتى يتحول إلى واقع يثمر عسلاً ... ومـا بـين صـدأ الماضي والخيال العسل .. كنا ومازلنا ننتظر ..

/ 8 / 29 (

2007)

الرغبة والموت

أفتح شهية الصباح , واطل على الكون من بذرة الفجر .. عبر همس صوتها الحريري . للحرير .. لمس فراشة تتوج الصباح في زيارة الحدائق , وانا افـتح نهاري بكنز حروفها التي تذوب رقة , وتحلو عسلا.

ارى الليل وهو يرفع ستارته شيئا فشيئا . وكلما عمق الحرف مسافاته في قلبي , اجدني انطلق الى افاق رحبة .. حتى اجدني كما لو كنت حمامة بيضاء تطيـر في سماء زرقاء تتسع لفرح الناس جميعا .

تندفع حروفها الندية كل فجر , فأحس أن فجري .. يفجر كل طاقـاتي ويـشعل النار .. ضوءا لاحدود له , وعندئـذ اتوسـل النباتـات والاشـجار والنـسائم والفراشات والناس .. اتوسلهم جميعا حتى يشاركوني بهجة روحـي , وزهـو نفسي , والق ذاكرتي .

امتحن افطاري واعانده واتمرد عليه , واقسو علي واقرر أن اخاصمها واقاطعها وانفيها عن شهية صباحي .. بالنسيان , غير انني سرعان ما اضعف , واغادر منطقة المقاطعة , واصالحها بالتذكر .. واهاتفها باللهفة .

فشلت كل اسلحتي في ابعاد الفراشة عن حرقة حروفي وثورة ذهنـي وتعـذرت علي احاطة الصوت الحريري بالتجاهل والنسيان .. وحتى بحقيقة الحال الذي في علها ترفض , وتصحو وتنسى .. فاذا بها تقبل علي بلهفة وتـصحو بـصورة النادم عن زمن اضاعه في نوم لاقبل له على ابعاده عن عينيه .. وتتذكر كما لو انها نسيت , ولكن من طبع الذكرى أن تصبح وشما في القلب والذاكرة .

صباح هنيء لم يتم افطاره بعد الا بحزمة كلمات .. يتلقاها مثل شلال في ظهيرة تموزية قاسية الحرارة , مثل جمرة الظاميء اذا ارتوى مثل لهاث المتعب مـن عناء طويل اذا استراح .

وها انا قد استرحت وكسرت ظمأي .. ورويته باقداح سكرى من كلمات السرور .. فما جدوى قراري أن ازاعل بالنسيان واصالح بالتذكر ؟

يسترخي الفجر بين اصابعي وهي تمسك بحميمية هاتفي النقال , وارى النجـوم كما لو انها تغادر السماء , فقد حلت نجمة القلب .. ولا مكان لنجمة سواها ..

ولما حضرت نجمة قلبي , فاضت حبا , واستوت على المكان وحولتـه نهـارا لعباد الله جميعا .. وجميعا نادوا على خير العمل .

انا في صراع دائم , في خصومة , في حرب .. فـي قـوة وضـعف واندفاع وتراجع مع نفسي وصباحي .. ففي وقت احث فيه الخطى نحو خير العمل , وانا مشحون بحزم التفاؤل والبشرى .. مختزنا افراح قلبي بصوتها الاثير ؛ أفاجأ كل صباح بمقبرة عن يميني , ومقبرة عن يساري .. وبينهما الشارع السريع الذي تمر به سيارة الاجرة وهي تحمل احياء مثلي يخترقون طريق الموت .. وعلـى الطريق انكسارات اخرى لجنازات تمر , وجنازات انتهت مراسيم وجودها وثالثة تترقب الخوف حتى لاتخاف .. فتخاف ..

ياللخوف كم يجعل الروح تصدأ على عجل , وياللموت .. كم هو حجم الفجيعـة التي يتركها في وانا انتقل من فراشات الكلام القوس قزحـي .. بكـل حـشوده الفرحة . الى منطقة الخطر , وانقطاع الخبر .. وجفاء وجفـاف ورمـاد هـذا الصباح الذي كان يغرد , فأذا به ينقلب على عجل الى موت يتوسل الـدفن فـي اقرب مقبرة !

هذا الانتقال من اقصى افراحي , الى اقصى فجيعتي ؛ كان يؤرقني ساعات النهار كلا , ويبدد سحر افطاري الشهي , ويزهق روحي ويعتم دروبي .. فانصرف الى الموت في وقت كنت ازرع فيه ازهار القرنفل .. بيضاء , حمـراء , ورديـة .. اطرز فيها حياة لا ابهى ولا اسعد ولا اغنى ولا اكثر عطرا من فجر كنت اعـده لبقية زمني الذي ينكسر . كما لو انه حزمة ريش لا قبضة اغصان تنبـت فـي حقول كياني كله .

ماذا افعل لهذا الضد .. لجمع من الاضداد التي تحول بيني وبين أن اكـون كمـا اريد واتمنى مع من زرعت في حدائق الخريف ربيعا , وتربعـت مثـل سـجادة قدسية , مثل طلعة شمس , مثل سحابة مطر مثل نسمة رقيقة ؟

الموت على الصوبين , فأين صوبي من صوابي , واين صوابي من صوبي ؟

نحن ضدان لا نفترق : ربيع يزهر كل فجر , وتطرز نجمته المكان والزمـان .. فتبعثه نورا ؛ وموت اعمى يدق على رأسي , يسلبني النشوة , ويأخـذني الـى مقبرة تتوعدني يمينا ويسارا .. وانا المقبل على الحياة .. لا أقبل !

لم احدثها عن هذا المظهر الذي يصارعني .. فقد كنت لا اريد للرقة أن تـذوب وان يخدش حريرها شؤم الموت الذي يطاردني , واهزمه , ويطاردني فيهزمني .

كنت لا اريد أن احمل لها خبر هذا الذي يطفئ في فرحتي كل صباح .. كنت اريد لصباحها أن يمر ويستوي على عرش الناس جميعا حتى تتوجه الى خير عمل , برغبة شفافة وتفاؤل عميق .. كنت اراها , كما طلعة الشمس , كما النـوارس التي تشرق النفس لمرآها كل صباح , كما الازهار تعطر الصباح , كما الـصباح وقد تحول الى مفاتيح جنة وسعها المحبة كلها .. للناس كلهم .

لابد من الوصول . وان ضاق الطريق . وان ضاقت الصدور وسـكت بنفـسها , وذلك أن الوصول هو الخيار الوحيد للبقاء , في عالم لم يعد يعترف بكل شـيء حي .

لافتات سوداء تملآ كل فراغات الجدران وثمة لافتات تبحث لنفسها عن مكان فلا تجده ... عندئذ تختار لنفسها شارعا فرعيا , وزاوية خجلى , وركنا خائفا ..

وانا بين لافتة تبوح بالموت , ولافتة داخلية تبحث عن البقاء .. فهناك من يفكر بي ويرهن مستقبله من اجلي , ومن اجلي انا الذي تجرحني حواسي وصـدقي واوجاع سواي .. فأعلق لافتة عزائي بنفسي .. واوصي الثقة أن لاتبوح بأسمي , واوصي الموت أن يبقيها .

واوصي الحزن أن يغادرها , واوصي النسيان أن يجعلها تنساني فمثلي لا يريـد لاحد أن يشغل باله بي .. فما بي , اريد تركه للزمن حتـى يـذوب ويتلاشـى , ومابي .. لا اريد حمل ثقله الي وانا اغادر احتفالي بوجودها في حياتي الى الابد .

وتتوسلني أن اطمئنها بالوصول , والوصول محفوف بالخطر , والخطر مقتـرن بالعنف والحواجز وجفاء وجفاف وقتامة وقسوة الوجوه .. فمن اين انفلت لاصل الى مكان عملي ؟

احس بسجني كما لو انني اقفل على الحياة , اسجنها , وهي تعاني مـن سـحق ودمار وتفتت وانقسامات وثارات ونقم معتقة واحقاد مكبوتة من زمـن بعيـد , وهي الان تريد أن تثأر للماضي مثلما تريد للماضي أن يحضر بكل ما يحمله من وحشية وتصفيات جسدية ورغبات مقموعة واَمال منطفئة .

ماذا اقول لموجات عينيها وهي تتوسلني البقاء فيما بيننا مـسافات مـن ربيـع الشباب وشتاء الشيخوخة بين جمرة تنير وجمرة صارت رمادا بين زهـو بريـد ومرارة في الفم تجعل النفس تشتهي الموت اشتهاء ..

توسلتها أن لا تنتظر أن لا يحط القلق الطوطمي هواجـسه .. قلـت لهـا .. أن الوصول اليك اصعب من الصعب , وقالت الوصول الي اسهل من الـسهل .. أن اردت اردت انت وأنا اريد ولانني اريد .. اسقط في اول امتحان وانطفيء وعندما انطفيء سأخذها معي وانا استحي مني وانا اجر من تسكن معافاة في قلبي وقـد سلبتها ارثها في مستقبل حياة طيبة تبحثها في .. وفـي لا شـيء لـم يهلـك ويستهلك .. كما لو انني قطعة من جليد . او كومة من رمل او وفرة ريـش او ابجدية على لسان لايتقن الكلام .

وابحث عن فراغ على جدران قريبة علها تقبل على اسمي مزروعا على لافتـة سوداء واسم مكتوب بالاصفر الفاتن الغيور .. وما دمت لا اعرف الفتنة جمـالا ولا الفتنة شقاقا ولا الغيرة احساسا ؛ اذن اوصي من يقرأني بان يكتـب اسـمي بلون اخضر , لانني كنت وسأظل أتوسل لامنيات حتى تبقى على خضرة روحـي .. خضراء , خضراء , كما الغابات والحقول والآمال.

***

اندفع الى عملي استقبل زملائي والمراجعين انظر في ملفاتهم اجدها تشترك في عامل واحد ومحور وهم ومحن واحدة .. اسمها ثقل الحياة التي تنوء بكل واحد

منهم .. واتأمل الشكاوى وانظر في وجوه اصحابها .. واحدق في صورتي امام نفسي فلا اجد فيها سوى مشكلة مضافة .

وانا احرر في صحيفتي شكاوي الناس .

تقول الشكاوى :

هناك حلول طيبة ,ووعود سعيدة , وامال كبيرة .. ولكنها جميعا تبقى مجرد وعود وهمية هناك اوجاع وازمات وارواح تموت كل يوم .. ولا يوم يصحو بلا ألم .. فيما ينعم الاخرون في العسل ..!

وانا بين الشوك والعطر .. بين حاجتي الملحة اليها , وحاجتها الملحة الي وبين أن نفترق على وفق ما يحيطنا من عقبات وعثرات ومحن ..

بين أن اقلب شكاوى الناس وشكاوى القلب وامتحان الالم .

***

يهمس هاتفها الفجري ويحفزني على الحياة .. فيما اكون يقظا استجمع ما تبقى مني , من هذه الشيخوخة التي تنوء بي , وتضع شاغلا في رأسها وان نفت عنها هذا الاحساس وان ابعدته لكنه موجود .. وان رفض الاختلاف بين الروح والجسد , العاطفة والعقل , الدرس الجامعي الصارم الذي تعلمته ودرسته وشغفت فيه وجاهدت من اجله , وبينه .. هو الذي حمل هموم العالمين فوق صدره , كما لو انه يحمل صخرة سيزيف التي يدفع بها الى القمة , ويكتب عنها بكل ما تعلمه ومارسه وبرع فيه .. ليصل بها الى اعلى مكان , لترتد اليه بقسوة اكبر والم اكثر ايغالا في ثقل الاذى ..

يخاطب الاخر فيه .. يخاطب جرحا داميا معتقا ازليا نما وكبر وصارت قطافه .. تقليدا اعتاده مثل طقس تقليدي , مثل دوامه التقليدي ..

لكنه هذه المرة , بات يرى الاشياء بعيون المحبة والقسوة معا .

محبة أن يخرج بنتائجها .. حتى يخرجها من كوابيس الليالي المعتمة , وقسوة عليه حتى يتخاص من هذا الذي فيه من حسرة الانفلات , وحسرة أن يحل عقدتها , فيقع في اشتباك طويل مع عقد جديدة لا اقلها حيرته مع تشابك وتفاعل

وفوضى ما سوف يكون من صراع النفس مع النفس والنفس مع الاخرين والنفس معها والنفس مع النفس مرة اخرى واخرى ..

لا اجد حدا فاصلا بين شكاوي وشكواها وشكاوى الناس .. فنحن جميعا نشترك في الهم .. لنواصل الهم .. لنضيف هموما جديدة .. بين ظروف قاسية تهدد بما تبقى من انفاس , وانفاس تريد أن تتنفس ما تبقى من العمر .

يصرح لها بصراحة مطلقة .. وبعفوية بريئة تقول :

- لا عليك من المشكلات انا كفيلة بحلها , لا عليك من شيخوخة العمر , انا سعيدة ببعثه شبابا , لا عليك من هاجس الموت , انا امتلك قدرة على جعلك انسانا ازليا خارج دائرة الموت .

اسألها كيف ؟ تقول :

- انا اعشق قاتلي , وانت قاتلي ..

- ولكنني لا اريد أن اكون قاتلا .. حتى اصبح حبيبا .. اريد أن اكون حمامة سلام , وانا أحب , وانا احيا , وانا اعمل , وانا افتح نوافذي للمستقبل .

- لكنك تخاف ..!

- اخاف الندم , وقد لا يسعفني ندمي على رجاء الحل .

- اذن احتفظ بحيرتك .. الحيرة سيدة المآسي .

- وانا المأساة وصاحبها معا !

واجدني مسحورا بالحاجات كلها .. أن اكون معها , ومع نفسي , ومع الناس , ومع الاحداث بكل ما تحمله من مآسٍ وويلات , ومع عائلتي واولادي واهلي وجمع ممن اورثت لهم قوت يومي .. كنت اتوسل روحي أن اغادرها , واتوسلها أن اكون في مآقيها وكل كيانها .. واحتار بين هذا وذاك .. بين أن اكون لها .. فأسعد نفسي , واكون لسواها فانتقم مني واسعد سواي .. فألى أي صوب اتوجه , والى أي بلاء انتمي .. وفي أي موقع اكون كانت الحيرة تأكلني اكلا , تمزقني ..

**

وينتهي نهاري مثلما بدأ .

انتشهى صوتها , ومن لهفتي عليه اخافه , واتردد في سـماعه , فقـد لا افـي صوت الشبيبة الباكر حقها , وقد تعجز الشيخوخة عن عزل احـساسها بـالعجز والفناء .. فتموت شر ميتة , وتنفي عن الصباح صباحه , وعن الزمان اوقاته , وعن الموت اجله .

هل من فجر يجيء حتى اسمعها .. هل من حيرة تتبدد .. هل اخرج من حيرتـي سالما ..؟ سأمني الوقت .. بوقت مؤجل .سأمني الحيرة بالـضوء .. هـذا مـا قررته , وهذا ما جعلني انام مرتاحا على قرار اتخذته وسكنت . وسكنت .

2007/8/10

حسب الله يحيى

***ولد في مدينة الموصل عام 1944.**

***عمل في التعليم لعدة سنوات في القرى الكوردية .**

***مارس العديد من المهن وأكتسب خبرة مهنية واجتماعية واسعة.**

***اصدر الكتب الآتية:**

مجاميع قصصية

1- الغضب - الموصل 1967 / مطبعة الزهراء.

2- القيد حول عنق الزهرة- منشورات مجلة الثقافة - بغداد 1974.

3- ضمير الماء/دار العودة - بيروت1972.

4- الحطب/ بيروت دار الثورة العربية 1974.

5- النهار يدق الأبواب(قصص ومسرحيات)- دار الأديب - بغداد 1977.

6- هي... أمرأة عراقية / المؤسسة العربية - بيروت1982.

7- الاشواق- دار الشؤون الثقافية 1986 بغداد .

8- - كتمان - دار الشؤون الثقافية 1989 بغداد.

9- أنفاس - دار الشؤون الثقافية 1993 بغداد.

10 - كوميديا الكاتب في الزمن الكاذب - اتحاد الكتاب العرب- دمشق 1999.

11- حدائق عارية - أتحاد الكتاب العرب - دمشق 2001.

12- أغتيال الحنين (رواية) - دار الحرية بغداد 2001.

13- أجنحة حجرية - دار الشؤون الثقافية -2001 بغداد.

14- هواجس/ دار الشؤون الثقافية - بغداد 2002.

قصص للأطفال

1- دفاع عن الفرح- أتحاد الشباب- بغداد 1977.

2- الفراشات- دار ثقافة الاطفال- بغداد 1997.

3- سمكة تعرف كل شيء - دار الهلال-القاهرة2003.

الدراسات

1- مقدمة في مسرح الاطفال - دار ثقافة الاطفال- بغداد 1985.

2- فنا رات في القصة والرواية- دار الشؤون الثقافية - بغداد 1993.

3- المسرح العراقي- قضايا ومواقف- دار الشؤون الثقافية -بغداد2002. سلسلة الموسوعة الصغيرة.

4- ثقافة الارهاب والعولمة- دار الشؤون الثقافية- 2004.

5- شخصية الدكتاتور في المسرح العالمي - دار الشؤون الثقافية - بغداد 2002- سلسلة الموسوعة الثقافية.

*ناقد مسرحي قام بتدريس النقد المسرحي وتاريخ المسرح في معهد الفنون الجميلة -بغداد لعدة سنوات وساهم في ندوات ومؤتمرات ومهرجانات مسرحية عراقية وعربية عديدة وترأس قسم المسرح في مجلة (فنون) وهيئة تحرير مجلة (السينما والمسرح).

*كتب ونشر العديد من المقالات بأسماء مستعارة عديدة وفي صحف ومجلات عربية وكوردية في اثناء الحكم السابق.

* أعد وقدم عدداً من البرامج الثقافية والمسرحية - إذاعية وتلفزيونيه لعدة سنوات من تلفزيون بغداد ، والتلفزيون الثقافي - بغداد .

*كتب عدة نصوص مسرحية للاطفال واخرى للكبار ونشرها في صحف ومجلات عراقية واردنية وسورية ... وقد عرض قسم منها على خشبة المسرح.

*عمل في الصحافة منذ عام 1964، ونشر دراساته النقدية والقصصية والمسرحية في المجلات الثقافية العربية المتخصصة.

*مراسل معتمد للمجلات العربية:

*الرافد - الاماراتية.

*الجسرة الثقافية - -قطر.

*لمجلة الثقافية - الاردن.

*حالياً يعمل خبيراً في وزارة الثقافة ورئيساً لتحرير المجلة (المركزية لوزارة الثقافة (دجلة) مسؤول الملحق الثقافي (ابعاد ثقافية) في جريدة التآخي التي سبق وان بدأ العمل فيها منذ عام 1971.

المحتوى

1- البراعة في احتمال الأذى.
2- مهنة الأذى.
3- المنايا.
4- أحزان السيد (ن).
5- الموناليزا تكره الحروب.
6- ألم.
7- كل هذا العالم.
8- أنقاض.
9- الموت بين الأشواك والأزهار.
10- لا احد هنا ... لا أحد هناك.
11- التوريق وبلع الريق.
12- الأمهات.
13- السيف والوردة.
14- طلاء فاسد.
15- للشاي مذاق الموت.
16- موت وسعة المدى.
17- رئة الأرض.
18- سر..حان.
19- الحروب الجميلة.
20- الزعيم يختار الخراف الرشيقة.
21- صورة صلاح القصب الأثيرة.
22- الثمرات .
23- عناء.
24- أعدام حلم.
25- الطريقة المثلى في قلع الاسنان السفلى.
26- مرسوم الطاعة.
27- مدينة تسافر الى المجهول.

28- ذاكرة النسيان.

29- الفرح الذي يبدد العتمة.

30- صورة رجل يتآكل.

31- الموجة تعشق البحر.

32- نوافذ سوداء...مطرزة بالأزهار.

33- خيال وصدأ.

34- الرغبة والموت.

مع تحيات د. سلام حسين الهلالي

salamalhelali@yahoo.com

https://www.facebook.com/salam.alhelali

https://www.researchgate.net/profile/Salam_Alhelali?ev=hdr_xprf

07807137614